حديث الشهر

مع مؤلف (أنا الشعب) محمد فريد أبو حديد

يقدمه : محمد عبد الحليم عبد الله

للقائى معه ذكريات ترجع الى أكثر من عشرين عاما . هبت على فى ذلك اليوم وأنا أجتاز الباب العتيق الضخم فى حى عابدين .

وفى الممر الضيق الذى سرت فيه لألقى مؤلف قصة «أنا الشعب» كان هناك ورق مكدس مثل بالات القطن ... مثل عقول أطفال ولدوا ولم ينطقوا بعد . ومن المؤكد أن هذا الورق أعد لكى ينطق بالحكمة .

وخفضت رأسى أنظر الى الارض .. خيل الى أن البلاط لم يتغير وكذلك خشب السقف . وأزيز المطبعة يأتى من الجانب الأيمن بين أوامر ودندنة غناء . وحوض لغسيل الايدى ركب فى الطرقة عليه ألوان المداد .

« لجنة التأليف والترجمة والنشر » التى دخلتها منذ أكثر من عشرين عاما خائفا متلفتا ... لم تتغير أرضها ولا سماؤها . فهل أماكن «العلم والثقافة» أقدر على الاحتفاظ بالبقاء من أماكن اللهو والتسلية ؟ وقلت فى نفسى وأنا أداولها هذا المعنى : « ولعل أهل العلم والثقافة أطول عمرا من غيرهم » ...

وسرنى هذا الخاطر سواء كان أملا أم حقيقة . سرنى أن أصعد السلم الذى صعدته ذات يوم خافق القلب لأقابل طه حسين وأحمد أمين وفريد أبو حديد وغيرهم والسلم متآكل الدرجات من أقدام المفكرين .

ووجدتنى أبتسم ... فى الهواء ... حينما طالعنى البهو القديم فى نهاية السلم بالحجرات والدهاليز والسقف المرتفع . لو أن المبانى تبوح بأسرارها وتخرج عن صمتها لقال هذا المكان أشياء كثيرة . منها ما يتعلق بالثقافة ومنها ما يتعلق بالسياسة . فقد كان منذ زمن بعيد مقرا لجريدة (العلم) لسان حال الحزب الوطنى ودخلته وأنا فى الخامسة عشرة لأقابل ابن عمى المحرر فى هذه الجريدة ...

وهكذا صعدت السلم بأعباء من الذكريات . لذيذة ثقيلة مفرحة كحزمة الكتب المدرسية التى كنا نعود بها الى بيوتنا أول يوم فى افتتاح الدراسة ...

وهناك عبر البهو رأيت موظفين جللهم الشيب ... رأيتهم شبابا وغبت عنهم ثم رأيتهم شيوخا . كانوا يمرحون عبر باب مفتوح وهم يعملون . لقد شاخوا وهم لا يشعرون . ومرآة البيت عظيمة النفاق ... تكذب علينا كل يوم بضع مرات .

مالى استطردت ... انني اريد فريد أبو حديد . وبنفس هذه الجملة نطق لسانى لرجل لعله كان ينتظر مقدمى . ودخلت حجرة فسيحة فيها ما لا يقل عن عشرين كرسيا من طراز «الفوتى» لعلها معدة لاجتماع اللجان الثقافية . وهناك فى الركن الأيمن فى أقصى الحجرة جلس الاديب الذى ذهبت اليه . مثل دأبه تماما.. السيجارة الرفيعة جدا فى يده ترسل شريطا من الدخان وعلى وجهه وداعة ندية . وداعة من فرغ فورا من قراءة كتاب احبه ومن هو قادر على التخلص من همـــومه اليومية قبل أن يأوى الى الفراش آخر كل يوم .

ـ أهلا عبد الحليم .

وسارعت بالجلوس الى جواره . وخلفه نافذة تطل على شارع الكرداسى . وبينما كان يطلب القهوة كنت احدثه فى سرور حقيقى عن نشأتى فى هـذا الحى . انه يحمل بعض ذكريات « قصة شجرة اللبلاب » فى تلمذتى ووحدتى . وابتسم مستغربا ... ونظرت اليه . لم أقل له ذات يوم : « اننى أتمنى ان تقدم بى العمر أن أحمل مثل وجهك وانا فى سنك » لم أر على وجهه طوال عشر سنوات ترجمة للتعبير الذى قاله بعض الادباء : « ان الشيخوخة انتظار ممل » فرحة يوم العيـد تظهر فى عينيه عندما يبتسم . ولذلك دفعنى الفضول أن أعرف شيئا عن نشـأته وهو صبى . قلت له :

ـ انك دون بقية كتاب جيلك لا نعرف شيئا عن أيام طفولتك فهل سبب ذلك انك لا تريد .

عند ذلك ضـحك بكل ملامحه . بعينيه القويتين ووجهه الخالى من التجاعيد ومنحته بشاشة الضحكة مسحة تشبه الشباب وأطلقا لتلقائيته واجاب :

ـ وماذا عن طفولتى ؟ ! ... ليس فيها شىء غريب .

قلت :

ـ ليس الغريب أحداثا كبيرة . ربما كان الغريب فى حياة الاديب حدثا عاديا جدا عند معظم الناس . مثل وفاة الاب أو الام ... أو ارتحال احدهما بلا وفاة. فما رأيكم ؟ ...

عند ذلك رأيت طلائع الذكريات تبدو على وجهه . فأجاب بصوته الهـادىء واشاراته الرزينة :

ـ كانت نشأتى الاولى فى دمنهور ...

ـ دمنهور ؟ ! ... انها بلدى .

ـ عجيب ... كان عمى رئيس نيابة هناك . وأبى مزارعا فى بلدة «المسين».

وكان فريد أبو حديد يتناول رشفة من القهوة وهو لا يعلم اين ذهبت انا بعد أن نطق باسم قرية «المسين» ...

كنت ارى شريطين سينمائيين فى وقت واحد أهمهما بطله فريد أبو حديد وهو فوق العاشرة من العمر يجرى فى الارض التى استأجرها أبوه الفلاح هناك وعاش فيها يكافح الجدب والطبيعة . بينما عين الاديب ابنه الذى لم يشب بعد عن الطوق

ترقب العلاقات الانسانية المعقدة بين الناس ويلعب مع عبد القوى العربي «قوية» و «تعويضه» العربية وربما ظللتهما قليلا ... في الصباح الباكر أو بعد الغروب التلال الطبيعية التي كانت تقوم في هذه المنطقة . ونشأت علاقة ما من الحب .. وتقديس عظيم للوالد الذي اعتبره الاديب نموذجا للصراع .

كان كاتب قصة (أنا الشعب) يصف لي حبه لأبيه والارض المترامية الاطراف في هذه المنطقة التي هاجر والده اليها فتدخلت في هذه الوهلة ذكريات شخصية لي ٠٠٠ لاسرة قريبة ٠٠٠ هاجرت الى « المسين » وأنا صغير ٠ كان قلبي يخفق عندما ذكرت دار أقربائي التي ظللها الصمت وكان قلب فريد أبو حديد يفعل نفس الشيء بلا شك ٠ وبينما هو يذكر (تعويضه) بطلة قصة «أزهار الشوك» على أرض « المسين » ذكرت بنية خرجت من قريتنا الى هذه الارض التي أكلت بجوع شديد جهد والده وجهد قريبي ... اطعموها هم بدل ان تطعمهم هي ... قضية معكوسة !!

ولذلك أحب فريد ابو حديد بسطاء الناس في قصصه وكان صديقا لهم .

واسترسلنا في الذكريات معا . هو يتكلم وانا صامت ... اكتب ... فعرفت ان لهذه الحساسية التي يقلقها الهدوء أصلا من الطبيعة . وأحداثا منذ الصغر . وعرفت موطن قصته (ازهار الشوك) ثم رأيت أن أهم ما يسأل عنه فريد أبو حديد هو انقصص التاريخي فسألته :

ــ هل من الممكن أن نعرف بعض ذكريات عن قصة « أنا الشعب » كما هي العادة التي درجت عليها مجلة القصة ؟

وابتسم واشعل عود ثقاب نظر اليه طويلا ... كان يتكلم ... لا يريد ان يضع السيجارة الرفيعة جدا في فمه ويشعلها فينقطع حبل الكلام . وكاد اللهب ان يأكل العود كله فأشعل السيجارة .

كان يقول :

ــ ايوه ... أنا الشعب ... نعم يا سيدى ... كلنا الشعب . تعرف يا عبد الحليم ... انني أحب هذه القصة .

قلت :

ــ انها احد ابنائك فهذا شيء طبيعي . لكنه أشار الى بهدوئه بما يفيد انه ميتكلم فسمعت :

ــ ليس هذا فقط بل لاسباب كثيرة منها انني كتبتها قبل الثورة في سنة ١٩٥١ على التحديد ثم نشرت هذه الرواية في ظل الثورة وقرأها الناس. فأحسست انني شاركت في حركة «الضمير» العامة . وضعت حجرا في البناء الذي كنا نحلم بأن يوجد . التفاف الشعب حول زعيم ...

قلت :

ان هذه القصة فيهـا مواقف سياسية تدل على العزة ٠٠٠ فموقف « سيد

زهير» موقف شاب شديد الحساسية . يثور جدا عندما يشعر من قريب او بعيد أن كرامته على وشك أن تلمس .

ــ وأظن أن الموقف المتفجر بين« سيد زهير » وبين « أحمد جلال » له أصل فى تجربتكم العادية . انها ثورة صاحب الكرامة حين يشعره الفنى أنه هو الأدنى فهل من الممكن أن تكونوا انتم «سيد زهير» فى قصتكم «أنا الشعب» ؟

ودخل علينا فى هذه اللحظة ــ بلا استئذان ــ وجه شعبى يعمل فى لجنة التأليف والترجمة والنشر . وتنحنح قبل أن يطلب من فريد أبو حديد شيئا أجابه اليه . فنظر كلانا الى الآخر وتبسم .

ثم قال فريد أبو حديد :

ــ نعم ... ربما ... نعم ... كما قلت . لعلنى «سيد زهير» .

وأطرقت أتذكر ما قرأت من قصص تاريخي . عن القرون الوسطى والعصور الحديثة والثورات ... فى الادب الاجنبي والادب العربى . وكان صوت أحد عمال المطابع فى أسفل الدار يتناهى الينا هينا لا يزعج . وكما ملأت أنفى ذكريات عن الذين قابلتهم فى هذا المكان من سنوات وسنوات فى « ياقات منشاة وعصى وطرابيش ملأت أنفى روائح التاريخ ... فى أماكن شتى من الدنيا ... ليس التاريخ الخام مثل الحديد الخارج من المنجم ... لكن هو التاريخ المصنوع الذى شكله الفنانون فجعلوا الزمن «اطارا» والناس فى قلب «الصورة» وعلقوا كل هذا على «جدار» حديث .. شممت رائحة «قصة مدينتين» لديكنز . و « الحرب والسلام » لتولستوى « والاحمر والاسود » لستندال . و «عذراء قريش» لجورجي زيدان و «على باب زويلة » لسعيد العريان و « رد قلبى » ليوسف السباعى و « وا اسلاماه » لعلى باكثير و « قلعة الابطال » للسحار .. وقصصا أخرى ... لم أذكرها على الترتيب بل اندفقت على كفتحة الشلال فيها روائح الأزمنة وألوان الناس والاماكن ونبات الارض ...

لم أجدنى أذكر أحد كتب التاريخ التى قرأتها مطلقا . ولم تفد على رأسى صورة ولا حفظ قلبى عبارة . فكأنما الذاكرة الحقيقية للتاريخ انما هى فى (قصصه) وحدها ... نعم ... لذلك كنت أريد أن أتحدث مع أحد كتابنا المشهورين ... وبكتابة القصص التاريخية ــ عن موقفه ومدى تصوره للقصة التاريخية . فوجهت السؤال التالى لمؤلف قصة «أنا الشعب» :

ــ أنتم فى القصة التاريخية تمثلون تطورا جديدا بعد جورجي زيدان. فهل من الممكن أن تحدثنا عن وظيفة القصة التاريخية ومدى تطورها ؟

ــ كل قصة تعالج موضوعا حيويا . وهى فى ذلك اما أن تلجأ الى الحاضر فتأخذ منه مادتها واما أن تعود الى الماضى فتفعل نفس الشىء لكن ... .

ــ نعم !!

ــ لكن ... ماذا تظن ؟! أى المادتين خير للقصة ؟ تلك التى نأخذها من الحوادث الجارية أو تلك التى نأخذها من التاريخ ؟ ما رأيك ؟

ـ فى انتظار رأيكم ٠

ـ نعم ٠ يجب أن نعلم أنه لا فرق ـ من ناحية جدة الموضوع فقط ـ بين الحادثة الجارية والحادثة التاريخية لأن اختيار الحادثة التاريخية يجب أن يؤكد تصوير الكاتب علاقة ذلك بالفترة الحديثة التى كتب فيها روايته التاريخية والا كانت جثة محنطة ٠

ان الرواية التاريخية ليست كائنا حيا مات وأعيدت اليه الحياة ٠٠٠ لا ٠ مطلقا ٠ ان القصة التاريخية كائن حى ولد حديثا له شهادة ميلاد تحمل تاريخ العام واليوم ٠ والفرق بين القصة التاريخية والقصة العصرية هو فى شيء واحد ٠٠٠ هو فى اختلاف الزى ٠ فنحن لا يجوز لنا أن نلبس « يوليوس قيصر » على المسرح مثلا بذلة أو جلبابا والا انهار كل شيء ٠ لكن يجب أن تكون مشاكل قصة « يوليوس قيصر » هى مشاكل عصرنا فى صورة ما ٠٠٠

وسكت فريد أبو حديد كأنه يتذكر شيئا ٠ وحملق بعينيه الصافيتين فى السقف العالى فقلت له :

ـ زدنا ٠٠٠

فقال وهو يضغط كفا بكف :

ـ هناك مزية جديدة للحادثة التى تؤخذ من التاريخ ٠ هذه المزية هى أن المصاير تقررت والحيوات انتهت والعظات وقعت والجزاء الطبيعى والحكم التاريخى قد استقر ٠ عندئذ يمكن للفنان أن يجد أرضا ممهدة لأن التاريخ قد وضع البداية والنهاية لكل قصة تاريخية ٠ فعلى الكاتب أن يجوس فى تلطف وتلصص وعمق خلال العرقات البشرية فى التاريخ ٠ هل رأيت السائح الذى يحمل الكاميرا فى المعابد والمتاحف ويمشى على أطراف أصابعه كأنه يخاف أن يوقظ أحدا ؟ ٠٠٠ ستقول نعم ٠٠٠ الكاتب القصصى التاريخى لابد أن يفعل ذلك ٠ لأن كل سائح يأخذ لقطة جديدة تذكارية لمعبد الكرنك أو هرم خوفو أو وجه أبو الهول ٠ ولو كان العمل خاليا من الجديد لاكتفى « بكارت البوستال » التذكارى لكل أثر من هذه الآثار ٠

قلت :

ـ كارت البوستال ٠٠٠ هو التاريخ ٠٠٠ ولقطة الكاميرا بيد السائح ٠٠٠ هى القصة التاريخية ٠٠٠ ممكن ؟ !

ـ ممكن ٠ وأريد أن أزيد فاقول ان « عنترة بن شداد » لقطة تاريخية ٠٠٠ مثلا ٠٠٠ تحريت فيها أن أبين الفرق بينه وبين أخيه (شيبوب) فعنترة يملك نفس الأحرار وأخوه يملك نفس العبيد ٠ عنترة حر طلب الحرية عن طريق فعل الاحرار ٠٠٠ فى الحب والترفع والشجاعة والعفة :

« يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم »

لذلك كان عنترة بين بنى عبس فى مكان مرموق وأحبته عبلة حبا لا زيادة عليه٠ أما أخوه فكان خوانا غشاشا ناقما على الناس لانه يحمل نفس العبيد ٠

وهكذا كان يفعل «وولتر سكوت» الكاتب الانجليزى عندما كان يسترعى نظره أى حادث فى زوايا التاريخ ٠

قلت لفريد أبو حديد :
– لقد جعلتني أحب التاريخ .
فقال :
– انه صورة لحب الحاضر . فاليوم وليد الأمس ونحن من سلالة ناس (فى التاريخ) لا نكاد نعرف أسماءهم بعد الجد الثالث ...
وضحك . فألقيت السؤال التالى :

– هل كان من الضرورة التاريخية أن يسبق جيل « الموسوعيين » عندنا جيل المتخصصين أو أن ذلك لم يكن ضروريا ؟

– ان ذلك ضرورى . وأنا أعتبر العقاد ممثلا صادقا لجيل « الموسوعيين » . وفى انجلترا مثلا حدث مثل ذلك فدكتور « جونسون » أديب موسوعى قرأ كل المعارف حتى القرن السابع عشر . و « هازلت » أديب موسوعى من أدباء القرن السابع عشر . و « جون استيوارت مل » عالم اقتصاد وأديب .

غير أنى أحب أن أنبه الى أن التخصص (اذا كنت تقصد به المدرسة الأدبية) يجب أن يطلق على العصر لا على مؤلف واحد . فنقول : هذا العصر تغلب عليه الرومانسية أو الواقعية أو غير ذلك . فعصر شكسبير مثلا كان عصر رومانسية لكنه كان رومانسيا كلاسيكيا فى وقت واحد ولقد عبر فيه شكسبير عن القديم تعبيرا جديدا فى مسرحياته التاريخية كلها ...

ثم قلت لمؤلف قصة « أنا الشعب » :

– نحة عن المدارس الأدبية فى بداية نهضتنا الفكرية . وما الفرق بينها وبين المدارس الأدبية عندنا اليوم ؟

الصراع بين المدارس الأدبية فى بداية النهضة كان بين المتحررين والمقيدين . كان بين عقول يمثل طرفا منها قاسم أمين صاحب الدعوة المشهورة فى تحرير المرأة وبين عقول يمثل طرفا منها مثلا الشيخ على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » . ومن الممكن أن نسمى هذا صراعا فكريا .

وكان هناك صراع من نوع آخر يقوم حول التجديد فى لغة الكتابة . كان المنفلوطى فى هذا النزاع يمثل الطرف المتحرر أى الجديد وكان الرافعى فى هذا النزاع يمثل الطرف الآخر . فالمنفلوطى كان (حديث) التعبير والرافعى كان (عباسى) التعبير فأنت ترى أن الصراع كان قائما حول (التعبير والتفكير) فى وقت واحد .

وكانت هناك – فى هذه الفترة – « هموم وطنية » ... هموم حقيقية . كان الاستعمار الانجليزى لمصر فى أعلى صورة من صور الضراوة وكانت الامكانيات الفكرية موزعة بين الوطنية والخلافة فى الوقت الذى كانت تركيا فيه عاجزة عن فعل شىء حتى لنفسها .

والمدارس الادبية اليوم تتخذ أسماء وشعارات عندنا . وهى طبعا وافدة علينا . لكنى آخذ على بعض كتابها تركيزهم على أسوأ ماعندنا موضوعا وصورة باسم الواقعية .

أما هموم هذا العصر عندنا ··· وربما في العالم أجمع ··· فهي « القلق » فنحن مثلا قد قضينا على الاستعمار ونحن نبني حياتنا الاقتصادية في جد ودأب لكن عدوى القلق التي سادت العالم تنتقل الى كل النفوس وهي طبعا غير خاضعة لنظام « الحجر الصحي » والا أمكننا التغلب عليها ومنعها دخول وطننا ·

ثم قلت لفريد أبو حديد :

– بصفتكم مشرفا على مجلة الثقافة وأحد الذين أسسوا لجنة التأليف والترجمة والنشر وبخبرتكم الشخصية في مجال الكتاب العربي – فهل ترون أن هناك مجالا للتنافس بين القاهرة وبيروت حول موضوعية الكتاب ونشره ·وهل تنتابكم المخاوف التي انتابت طه حسين من قبل ؟

– تريدني أن أتكلم عن مشكلة الكتاب العربي ؟ ··· حسين ··· اذا نظرنا الى « المدى المحدود » ··· اذا كانت نظرتنا وقتية فانه من الممكن أن يكون هناك محل للقلق لسبب التنافس بين مكان ومكان في البلاد العربية · أما اذا نظرنا نظرة أبعد ··· نظرة طويلة المدى فانه – في رأيي – لا داعي للقلق · وذلك لسببين :

أولهما : أن التنافس بطبيعته احدى وسائل الرقي والاجادة والابتكار ·

وثانيهما : أن مصر كقطعة من الوطن العربي لها ملامحها الخاصة الثابتة · شعبها له اتجاه وفكر وتقاليد وشخصية من الممكن أن تشم عبيرها في حارات المدن وحقول الريف ومناديره ودواويره وفوق مصاطبه وتحت ظلال أشجاره هذه الشخصية هي التي هزمت كل ارادة مسلحة أو مستغلة لكل مستعمر أو غاز لمصر منذ عهد الهكسوس حتى الانجليز والترك ··· وهم مسلحون لم يستطيعوا « تتريك » أهل مصر وهم من دين واحد · والسبب في ذلك هو الشخصية المنفردة ·

والكتاب صورة طبيعية لشعبه في موضوعه وشكله · وما دامت الطبيعة المتميزة للعربي المصري بارزة قادرة فان طبيعة الكتاب العربي المصري من حيث موضوعه ستظل قادرة بارزة كذلك ·

ويبقى بعد ذلك مسألة شكل الكتاب ··· منظره ··· وهذا في رأيي يخضع لعوامل اقتصادية فكلما زاد رخاؤنا كلما حسنت ملابسنا جميعا ··· حتى غلاف الكتاب ··· وهذه مسألة جزئية ·

يجب أن تتذكر أن التأليف هو خلاصة الثمرات والازهار العقلية والوجدانية وما دمنا كقطعة من الوطن العربي لنا ثمار خاصة وأزهار خاصة فلا بد أن يكون تأليفنا صورة لكل هذا ·

أما توزيع الكتاب وترويجه فهذه قضية متعلقة بالتجارة والعملة والدولة أحرص من المؤلف نفسه على فتح الطريق للكتاب العربي المصري لا شك في ذلك ·

وودت لو انني وجهت اليه أسئلة أخرى · لكنني خشيت أن يكون خلف هذه الوداعة شيء من الضجر · وكان الموظفون في الدار يعبرون أمام الباب المفتوح على الردهة آخذين طريقهم الى السلم · هؤلاء الذين رأيتهم في هذا المكان منذ عشرين عاما يرتدون الطرابيش مروا أمام الباب ورءوسهم عارية لا يغطيها الا الشيب ·

وخيل الى أن دار لجنة التأليف بدأت تتلفع بسكون هـادىء • كان الليل ـ مثلا ـ قد نزل • مع أننا فى النهار •

وتوقف الأزيز الذى كان يتناهى الينـا هينا ونحن فى الحجرة الواسـعة وبدأت مطفأة السجاير تزدحم بالأعقاب الرفيعة المتخلفة عن تدخين الأديب • وعند ذلك ••• بدا لى أن أستاذن • قال لى الأديب الكبير :

ـ الى أين ؟ •

ـ الى بيتى •

ـ فلننزل معا •

وقطعنا فضاء الحجرة الى الباب وهبطنا السلم الذى تآكل من أقدام المفكرين • وعندما وصلنا الى الدهاليز الأرضيةالتى تملؤها بالات الورقمرصوصة حتى السقف كعقول أطفال ولدت وسوف تنطق بالحكمة ـ قلت للأستاذ :

ـ ما أروع هذا المنظر •

فضحك برقة سـائلا :

ـ وماذا يعجبك فى هذا الزحام ؟ ألا ترى أنه (يسـد الطريق) ؟ •

ـ أبدا ••• بالعكس ••• ان هذا الورق (يفتح الطريق) يا سيدى •

كان صوت المطابع ساكتا والعمال يأكلون • وبادلهم التحية فريد أبو حديد مثل أب حنون ثم خرجنا من الباب العتيق الى شارع الكرداسى •

كانت روائح حى عابدين الذى عشت فيه أنا أول لحظات حيـاتى بعد نقلتى الى القاهرة من الريف ـ كانت تملأ أنفى وقلبى ومشـاعرى ••• عدت ابن أربعة عشر عاما ••• عادت الى ذكريات حية كأنها فصل محكم من قصة تاريخية ••

وكنت الى جانب مؤلف « أنا الشعب » فى سيارته ونحن نمر على مقربة من حدود « ميدان الجمهورية » الذى كنت أجتازه أول دخولى القاهرة وأنا فى طريقى الى المدرسة ريفيا قليل التجربة وكان هذا الميدان أيامها يحمل اسما آخر ••• وكان على أحد أبواب « القصر » فى ذلك الزمان والأوان حصانان واقفان باستمرار وعليهما فارسان جامدان لا يتحركان ••• وكنت كلما مررت بهما أسـأل نفسى فى همس وسذاجة وخوف : « ماذا ينتظر هذا الرجلان ؟! » •

ولما كبرت عرفت ••• عرفت انهما كانا بانتظـار من يفك أسرهما فى فجر ليلة من ليالى شهر يوليه ••

كان مؤلف قصة « أنا الشعب » صامتا ونحن على حدود ميدان الجمهورية ••• كان يفكر فى شىء ••• ربما هـو ما فكرت أنا فيه أو شىء غيره • لكننى أشرت الى الميدان الذى فرشته أشعة الشمس بحصـير من الذهب وقلت له :

ـ كم بطلا وقف فى هذا الميدان وهتف قائلا : « أنا الشعب » ؟ ! •

فضحك قائلا :

ـ اثنـان فقط !!

وسكتنا نستمع الى محرك السيارة التى كانت تتقدم الى ميدان التحرير •

خطوات على الشلال

الى اسوان

بقلم : محمود تيمور

من رحلة بعنوان « خطوات على الشلال » وصف فيهـا الكاتب سفرته الى موطن السد العالى ، وزيارته لما هنـالك من آثار ومعالم ومنشآت ٠

لما دعيت الى حضور « ندوة الكتاب » فى « دار الثقافة » بمدينة « أسـوان » وثبت الى راسى على الفور حكمة لبعض هواة الترحل ، يقول فيها : « أطيب الرحلات وأجداها هى التى يقوم بها المرء على ظهر دابة ذلول » ٠ والحق أن الرحلة اذا توافر لها التمهل والتؤدة أتاحت لصاحبها أن يستجلى المشاهد فى هينة ورفق ، ويستوعب الحقائق فى روية واستمتاع ٠ بيد أن هذه الحكمة على وجاهتها عسيرة التنفيذ من نواح عدة ، فى عصرنا الحاضر ، ولاسيما فى سفرتنا هذه ، ونحن نؤدى مهمة لاتحتمل التباطؤ والتسويف ٠

لا أقل اذن من اتخاذ وسيلة للسفر ، غير الوسائل السريعة الخاطفة ، وأن « قطار الصعيد » لمطية حرية أن تبلغنا ما نريد ٠

انه ركوبة طيبة ، فيها راحة للمسافر بالنهار والليل ، وفيها مجـال للتفرج والتعرف والاستجلاء ٠ فان « عربة النوم » تجمع لك فى مقصورتك كل أسـباب الطمأنينة لرحلة رخية هانئة ٠

ما ان قر على ذلك عزمى حتى نمى الى علمى أن المسافة بين «القاهرة» و «أسوان» تتطلب أربع عشرة ساعة أو تزيد فى « قطار الصعيد » ، على حين ان الطائرة تقطعهذه المسافة كلها فى نحو ساعتين اثنتين ٠

ولبثت أراجع نفسى لحظات ، ثم هتفت : لا شأن لى بالقطار ، فلن أقضى يوما وبعض يوم ، حبيسا فى « عربة نوم » !٠٠٠ دعنى أيها القطار المكسال ، لقد أصبحت ــ والزمن زمن سرعةواغتنام ــ تثير الاشفاق والرثاء ٠ أنت يا صـاحبى على أبواب المعاش ٠٠٠ وأما أنت يا « عربة النوم » فلا أستطيع أن أستبقى نفسى صريعا بين ذراعيك الدافئتين طوال ساعات وساعات ٠ وأخشى ما أخشاه أن يتسرب منك الخدر الى كيانى ، فاذا أنا أستمرىء التراخى وأركن الى الخمول ٠٠٠ ان السـاعات التى أمضيها فى صحبتك مجلبة للملل ، مبعثة على الضيق ، فالراحة والرفاهة ــ وان كانت

مستعذبة – اذا طالت وامتدت عادت مكروهة لا لذة فيها ولا متعة . نحن على موعد مع العمل الجاد ، والنشاط العارم ، والطموح البعيد ... نحن فى رحلة استطلاع ، نتعرف فيها مجد ماض غبر ، وجبروت حاضر تتجلى فيه صلابة العزم ، وصرامة الجهد، وعبقرية الانشاء والتعمير ... اليك عنى يا غانية الأمس الدابر ، ومرحبا بك يا غادة اليوم المشرق الجديد ... اليك عنى يا «عربة النوم» ، ومرحبا بك أيتها الطائرة!

ولمعت فى خاطرى مشاهد قديمة ، حين زرت تلك البقاع السياحية ، منذ ثلاثين عاما ونيف . لقد قطعت الرحلة من قبل فى ذهبية نيلية يجرها زورق بخارى ، وكنت يومئذ ضيف صديق كريم ، واستغرقت الرحلة خمسة عشر يوما . ومرة قطعتها بالقطار ، فاستغرقت ليلة وبعض نهار ، وهأنذا أقطعها الآن على بساط الريح فى نحو ساعتين فهل تكتب لى سفرة قادمة الى موطن الفراعنة متخذا من «الصاروخ» وسيلة انتقال ، فابلغ مأربى فى دقائق معدودات ؟

سبحانك مبدع الكون ، ومودع الانسان مواهبك الغالية ... ماذا فى الغيب المحجب من أسرار وكشوف يفاجئنا بها العلم ، وتطالعنا بها الحضارة ؟ أتكون مطية المستقبل القريب أشعة الشمس أم ضوء القمر أم طاقة الذرة ؟ كل شىء محتمل الوقوع وكل أساطير الأولين مظنة التحقيق ، وأن الاحلام المغرقة فى الخيال لتصبح من الحقائق فى واقع الحياة .

دخلنا مطار القاهرة الدولى ... مبنى شامخ الذرى ، أبهاء فساح ، الواح مصورة تزين الجدران ، سلم متحرك ، مقصورات من زجاج ، أندية محدثة الطراز ، نشاط دائب يشعرك بأنك فى سوق دولية عامرة . فتابعت خطاى ، يملأ جوانحى فخر واعتزاز .

واحتوتنا الطائرة المصرية الكريمة ، فما هى الا أن مضت بنا تصعد ، والبرد قارس ، والغيم ضارب ، وتحت أنظارنا رمال الصحراء كأنما هى بساط من ذهب ، وسرعان ما علت بنا الطائرة على مناط السحب فى أجواز الفضاء ، فاذا البساط الذهبى قد تحول الى غطاء من ذوب الفضة ، والسماء من حولنا باهرة الاشراق ، تمرح فيها أضواء الشمس . وبعد حين ظهرت الصوانى الرشيقة مرصوصة عليها ألوان الطعام ، وشغلنا بها وقتا نصيب غداءنا الشهى ، ثم عدنا نتطلع من الطاق ، فاذا غطاء السحب الفضى من تحتنا قد تهتك وتشعث ، فتراءى لنا ذهب الرمال المراق من جديد على أديم الصحراء ، ولا شىء غير الصحراء ... فيا ترى أين النيل ، وأين النخيل ، وأين نضرة الوادى الجميل ؟ لم تطل نجواى ، اذ استبانت رقاع خضر سرعان ما تلاحمت ، حتى استطالت بساطا سندسيا يشقه مسيل النهر الفياض .

ولم نلبث أن شددنا أحزمتنا على خصورنا ، فالطائرة وشيكة الهبوط فى مطار « الأقصر » ، وخرجنا اليه ، فاستقبلنا مبنى عصريا مزهوا بجدته ورونقه ، كل ما فيه يوحى بأصالة ذوق ، وبراعة فن .

وعدنا بعد قليل الى الطائرة ، تستأنف مضيها بنا الى «أسوان» ، وعادت الرمال الذهبية تملأ عيوننا سهولا وكثبانا ، فالرمال فى هذه الرحلة طابعها الغلاب ، وما أقربها شبها – لونا وغزارة – بالحمص فى موالد الاولياء الصالحين !

وتبدى النيل ، على حافتيه حاشيتان من خضرة زاهية ، وهو بينهما يتخايل ويتخطر ، ادلالا بقدرته على أن يحيل الارض الموات جنة فيحاء !

واخيرا نزلنا مطار « أسوان » ··· وهو على نحو مطار « الاقصر » فى الجدة والرونق · وخرجنا الى بابه ، فتقدم منا رجل ربعة فى سمرة قانية ، على محياه بشاشة ، يرتدى جلبابا بلديا سماوى اللون ، وعرض علينا سيارته · انه سائق يملك سيارة فاخرة ، يتخذها مورد رزق ، فركبناها على بركة الله ، وانسابت بنا على طريق معبدعريض ، تتسامق بجانبه أعمدةالمصابيح ، ثم رأينامجموعات من العمارات حديثة البناء ، جميلة التنسيق ، أقيمت مساكن للعاملين بالسد · ولما تدانينا من خزان « أسوان » أخذت أعيننا منشآت كهربية جديدة ، لاستغلال القوى المائية للخزان فى الانارة وغير الانارة من مطالب العمران · وقد ظلت تلك القوى طوال نصف قرن أو يزيد ، منذ اقامة الخزان ، تذهب هدرا ، لا ينتفع بها فى شىء ، حتى عنى بها العهد الثورى الحاضر ، وبها تجدد شباب هذا الشيخ الوقور ، الخزان القديم ، ونهض بأعباء اقتصادية يواكب بها أعمال التعمير فى جد ونشاط ·

وتابعنا السير ···

وحلت أمامنا ضاحية مستحدثة ، شرعت السواعد الفتية من العمال تنشئها على طراز عصرى ، تلك هى « مدينة ناصر » التى أريد بها أن تتلقى المد العمرانى الزاحف من المدينة · وليكونن لها فى القريب شأو بعيد ·

وبلغنا « نيوكاتاركت » ـ وهو « فندق الشلال الجديد » ـ تحفة هندسية رائعة اشتركت فى اعدادها وتشييدها كفايات مصرية صميمة ، فمثلت وقتا أمام هذا الصرح الرفيع ، أجتلى فنا وصناعة · وفتنت ناظرى لوحتان بارزتان على النمط الفرعونى ازدانت بهما طلعة الفندق · وطالت وقفتى أتملاهما حتى أنبهنى صوت رقيق ، هو صوت أمين الفندق المشرف على استقبال الزوار ، ينبئنى بأن الحقائب قد بلغت مستقرها ، وأن حجرتى تتأهب للقائى ·

ولم يطل مكوثى بالحجرة ، فنزلت منها الى « ندوة الكتاب » ، والليل مرخ سدوله ، والمصابيح الوهاجة تبدد الظلمة ، وقد عقدت الندوة فى «دار الثقافة» حيث يقام مهرجان « أسبوع الكتاب » ·

دخلنا قاعة فسيحة ، بل قاعات وقاعات ، فيها تحتشد دور النشر ، يزاحم بعضها بعضا فىمنافسة شريفة مجدية · كل دار تحتل ركناتعرض فيه كنوزالعقول والاذهان ·

ان الكاتب اليوم ليستشعر الفخر والعزة بأن «الكتاب» لم يعد زخرفا كماليا كوردة تزين الصدر ، بل أصبح غذاء طيبا تعنى الدولة به وتعتد ، ولا تفتأ تكفل له عوامل التنمية والاتقان ·

وجزت بأركان المعرض ، كأنى أزور قادة الفكر وأعلام العلم والأدب ، فى صوامعهم الانيسة ، وقد امتلأت أرجاؤها بعبق زكى ينعش النفس ويمتع الروح·

وانتقلنا الى قاعة المحاضرات ، ولك أن تسميها مسرحا للتمثيل ، ومثابة للعرض السينمائى ··· قاعة اكتملت لها وسائل التحضر فى توفير الراحة للاستماع وللأداء على السواء ·

والتقينا هنالك بنخبة من شباب « أسوان » المثقف ، لمسنا فيهم براعم متفتحة واعدة بمستقبل مشرق ، وجلسنا اليهم ساعة أنيسة ، متنوعة كانت فيها أسئلتهم متتابعة متنوعة ، تشهد بيقظة وعى ، ولطف ملاحظة ، وشغف باستكشاف أسرار المشكلات التى تعن لخواطرهم فى قضايا الأدب والفن والاجتماع .

وكان يومنا الثانى فى طوفة جامعة للمدينة ، فزرنا « فندق الشلال » القديم وهو وصنوه الجديد متصلان بحديقة جميلة متدرجة ، تبهج العين بألوان أزهارها وأشجارها ونخيلها ، وما اكتست به أرضها ، وماتناثر عليها من مقاعد وظلات . وان هذه الحديقة لتنحدر الى مرسى الزوارق البخارية والشراعية على ضفةالنيل فى انتظار المتنزهين والمتنقلين من السياح .

وفى أعلى مدرج الحديقة مستشرف لطيف يقضى فيه الزوار أوقات النهار ، مستمتعين بلوح رائع ينبسط أمام العيون ، ذلك هو اللوح الذى نمقته يد الطبيعة الفنانة ، يلوح فيه النيل الساحر وقد مد أجنحته يمنة ويسرة ، فاذا المجرى خلجان ومسارب وجزر ، واذا هو فيه صخور وجنادل ، والأشرعة البيض فى جيئة وذهاب ، كأنها حمائم سابحة على متن الماء ، وعن كثب جزيرة « أسوان » العتيقة تطل منها خرائب الأمس البعيد ، وفى بقعة خضراء وراءها تبدو دار « البيجوم أغا خان »بيضاء ناصعة ، وخلف ذلك صحراء مترامية يرتفع على قمة فيها ضريح الزعيم الاسماعيلى الكبير ...

هذا الموقع الفريد على روعته وفتنته لا تطول جلستك حياله ، فالوقت يمر ، وما جئنا لننفقه استدفاء بالشمس ، أواسترخاء على الارائك ، ولكننا قدمنا للتعرف والتطلع والاستخبار ، فهيا بنا الى قلب المدينة نجول .

مضينا الى رصيف النهر « الكورنيش » ، وكلما أوغلنا فيه شاهدنا كيف الصراع بين الجديد والقديم ، هى حرب طاحنة شنتها روح التطور والتجديد ، على روح التخلف والجمود ، ففى كل مكان يحل المستحدث المبتكر محل العتيق البالى ، وانها لحرب حامية الوطيس ، ولكنها صامتة لا تسمع فيها جعجعة ، بل ترى طحنا : أطلال تتداعى ، وأنقاض تتزايل ، وفى مكانها تقوم منشآت تتسامى فى عزة وجلال .

يسير معك رصيف النيل مسافات قاصية ، وعليه من باسق الشجر صف معدود كأنه حرس يؤنسك على الطريق . وينتهى بك عند منطقة عامرة بمنشآت عمرانية كلها من مفاخر البناء العصرى : مسجد تعلو مئذنته المربعة ، ناد للتجديف ، حوض للسباحة ، دار للثقافة ، متاجر تنافس أحدث المتاجر فى الغرب - هذا الى المعاهد والمشافى ودور الضيافة . انها حقا مجمع بنائى شامل ، أو هى وحدة عمرانية نموذجية لمدينة المستقبل المرموق .

أنت تسابقين الزمن يا مدينة العصر القديم ، ولكأنك مومياء نفضت عن عينيها سبات السنين ، ونهضت من ناووسها الحجرى تطرح عنها اللفاف الماضى السحيق ، فسرت فيها حيوية الحاضر ، ودبت فيها روح العصر الجديد ، وما هى الا أن اكتمل خلقها ، متوردة الوجه ، خفاقة القلب ، فارهة الشباب .

هكذا لاقيناك يا « أسوان » الفتية المتلألئة ، ولكن من ورائك « أسوان » أخرى تستتر فى حياء وخفر ، هى « أسوان » القرن الماضى ، ما برحت تتخذ المئزر،وتسدل

على وجهها اللثام ، وتحيا في جو عبق بالبخور : بخور الشرق الأصيل ، يثير غوامض الأخيلة وغرائب الأحلام ٠

أضافتنا تلك المدينة الشرقية ، وقتا ، فذرعناها طولا وعرضا ، حارات وأزقة متداخلة ، يسلمك بعضها الى بعض ، من حيث تدرى ولاتدرى . فأنت هنالك ملامح فقد ابرته المغنطيسية التى يسترشد بها فى معرفة وجهته ، فراحت مركبه تخوض الموج على غير هدى ، أو كأنك عابر صحراء ضل الطريق ، فانطلق يضرب فى رمال متشابهة ، لا يبلغ بها غاية ، ولا يعرف معها من قرار ٠ أو كأنك فى تلك المتــاهة المعروفة فى الاعيب الملاهى ، تبدأ من نقطة ثم تدور وتدور وتحسب آخرا أنك انتهيت الى باب الخروج ، واذا أنت حيث كنت ، ولكنك على الرغم من التيــه والضيعة فى مجاهل الحارات والازقة لاتحس من وحشة ولاضيق ، بل تأنس بما يحوطك من طريف المشاهد فى ســـوق عامرة بألف صنف وصنف ، أو مولد حافل بالمواكب والطبول ، فتود لو طال بك السير ، وتنأت عنك آخرة المطاف ٠

ولاحت لنا فرجة طالعنا فيها رصيف النهر العظيم ، فقصدنا اليه نكمل جولتنا معه ، وآثرنا أن نعود الى الفندق راجلين . وماكدنا ندفع بخطانا حتى استرعى نظرى مايثير الفضول : مركبة خيل لها حصان فرد ، ومازال هذا الضرب من المركبات له شأن فى « أسوان » خاصة ، واظنه بات جزءا لا يتجزأ من معالمها الأثرية الباقيــة على وجه الزمان ٠

ورأينا حول المركبة جمعا من السياح ، هم أسرة واحدة : أب وأم وصغار ، عدد النمل ، يتأهبون للركوب ٠ ولكن أنى لهذا الصندوق الخشبى الأثرى أن يستوعب هؤلاء جميعا ؟ وما لبثت المعجزة أن تحققت أمام جمهرة من السابلة تكاثروا ليستمتعوا بذلك المشهد الألعبانى العجيب ٠ وكان من الطبيعى أن يتبوأ الأبوان مكان الصدارة، تاركين لكل من غلمانهم وبناتهم أن يختار المكان الملائم له ، وفقا للقانون الغاشم : حق الاقوى . وما نشبت المعركة حتى انتهت بسلام ، وشاهدنا المركبة وقد نبتت على جوانبها وفى أنحائها براعم متحركة أوشكت أن تخفى هيكلها عن الانظار ، ففى كل شبر منها مخلوق غائص فى مكانه ، أو متشبث به ، أو متسلق له ، حتى أن كومة البرسيم تحت قدمى الحوذى لم تضق بغلام أو غلامين ٠

وراقنا المشهد الطريف ، فتعالت أصواتنا نحن الجمهور ضاحكين ، واذا المركبة بمن فيها تشاركنا فى الضحك ، والكل يتمايل طربا ، حتى الحوذى المهشـــم ، الا مخلوقا واحدا ترفع أن يقاسمنا ذلك المرح الشامل ، وأعنى به الحصــان الهزيل ، وهو مشدود الى عريشه بأحزمة من جلد ، مغلوب على أمره ، لا يملك الفكاك ٠ لقــد كان المسكين يتلفت حواليه ، ليرمق الجمع الفرح المهتاج بنظرات تنطوى على صبر واذعان ٠ ولبثت مليا أرمق ذلك المخلوق التاعس ، وأنا احس التوجع له ٠ انه ماثل فى وقفة تعبر عن نبل حزين ، فهو لا تختلج فيه عضلة ، ولكن تستبين على محيــاه كآبة خرساء ٠

شد ما رقت نفسى لهذا الحيوان الأعجم ، ووددت لو تقدمت اليه أقبل غرته ، وأناجيه بقولى :

لا تأس أيها الصديق الكريم ، فأنت فى محنتك عظيم أى عظيم · احتمل الثقل الذى هبط عليك ، وسر به فى شهامة واقدام · واعلم بأن الحياة أعباء وأحمال وكلنا من حملة الاثقال ، والبطولة تتجلى فى شجاعة الصبر وقوة الاحتمال !

وكأنما بصر الحيوان بى ، وكأنما فهم ما أناجيه به ، فقد بانت فى نظرته لمحات شاكر مستجيب ، وانبسطت أساريره ، ولاحت عليه طمأنينة وهدوء ، وصاح الحوذى المهشم بصوته المتحشرج صيحات لم يفهمها الا حصانه ، فتحركت المركبة ،واشتدت الجلبة ، ورفع الحيوان رأسه ، وأحد من نظرته ، وسار متخطرا على الطريق ، وكأنه حصان فرعون يجر عجلته الحربية الى ساحة القتال !···



هزيمة الحب

قصة بلا اسلوب

بقلم : فؤاد القصاص

تقديم

كحقيقة ٠٠ القصة بلا أسلوب كاللوحة بلا ألوان ٠٠ وكالفاكهة بلا طعم ٠٠ فالاسلوب هو الذى يعطى القصة مذاقها وينسج لها رداءها ٠٠

والقصة ان خلت من الاسلوب قد تعطى المعنى والمضمون ٠٠ ولكنها تفتقر الى الجمال والرقة والروح ٠٠ وهو لذلك ـ أى الاسلوب ـ أصعب عناصر القصة وأكثرها عناء ٠٠ ولا غنى عنه للقصة المقروءة ٠٠ فهو الذى يحمل المضمون على بساطه السحرى الى ذهن القارىء ويفتح أمام وجدانه أبواب الخيال والتأمل ! ٠

ورغم ايمانى بهذه الحقيقة ، الا أن عصر السرعة الذى أخذ يفرض نفسه على الحياة والاحياء ، لم يدع للقارىء وقتا ينفقه فى تتبع التشبيهات الجميلة والجمل الموسيقية والكلمات العذبة ٠٠ فاصبح يقفز بنظراته فوق السطور ليصل بأسرع ما يستطيع الى الحدث والمضمون ٠٠

اننى أقدم الى قارىء (القصة) هذه التجربة القصصية التى خلت من الاسلوب ٠٠ واكتفيت فيها بالاحداث تتابع ٠٠ تحمل فى النهاية مضمون القصة ٠٠

والرأى فى هذه التجربة متروك للقراء ٠٠ وللنقاد ٠٠

(عادل) أديب مصرى شاب أعزب نال شهرة واسعة فى العالم العربى بقصصه العاطفية الملتهبة التى أصدرتها له احدى دور النشر فى بيروت ٠٠

وحدث عقب نشر قصته الاخيرة التى أحدثت ضجة كبيرة فى لبنان بعد أن نفدت كمياتها الكبيرة فى ساعات ، أن تلقى من الاستاذ (مازن) ناشر كتبه دعوة لزيارة لبنان وحضور حفل لتكريمه يقيمه له الادباء هناك ٠٠

وكان عادل يعيش وحيدا فى القاهرة الضخمة رغم كثرة أصدقائه والمعجبين بفنه وطالما أحس بالملل والفراغ العاطفى ٠٠ مما دفعه الى تلبية الدعوة والرحيل الى بيروت ٠٠ وهو يحلم بأيام هنيئة يقضيها وسط جمال الطبيعة وبين

حسان لبنان اللائى طالما سمع عن سحرهن الكثير • آملا أن يستوحى من وجوده هناك أحداثا تصلح لتكون نواة لقصته الجديدة •

وقد أقام الناشر لعادل حفلة تكريم فى بيته المطل على البحر ضمت صفوة رجال الفكر فى لبنان وباقة من الجميلات اللائى يعشقن الادب وتستهويهن معرفة أبطاله وفرسانه ••

وأحس عادل بسأم من جو الحفلة لما فيها من الرسميات والتكلف ولكنه كتم مشاعره حتى اذا انتهت الحفلة صحب صديقه مازن وذهبا الى أحد الملاهى الليلية وجلسا يحتسيان كأسا من الخمر ويتحدثان •• ولكن سرعان ما وقعت نظرات عادل على شابة فاتنة الوجه والقوام تجلس وحيدة وهى تدخن وامامها كأس من الصودا •• وكان فى عينيها غموض مثير جذب انتباه عادل فسأل صديقه عنها ولكن صديقه كان يجهل مثله كل شيء عنها •• فانتهز عادل فرصة عزف الفرقة الموسيقية لأحد الالحان الراقصة وقام اليها يستأذنها فى الرقص ولكنها صدته ببرود واستخفاف•

وعاد عادل الى مقعده بجوار صديقه وهو أكثر رغبة فى التحدث اليها مدفوعا باحساس خفى لا يقاوم ••

وظل يختلس اليها النظرات ويحاول جذب اهتمامها اليه • ولكنها ظلت تتجاهله ولا تأبه لوجوده •• حتى عزفت الفرقة لحنا من الحان التانجو الحزينة فرآها تتمايل مع النغمات فى نشوة فتشجع ونهض اليها رغم معارضة مازن وعندما سألها أن تراقصه فوجىء بها تنهض وتضع نفسها بين ذراعيه

دون كلمة وراحت تدور معه على النغم وهى شاردة كمن تحلم •• بينما عادل قد انطلق يحدثها عن نفسه وعن سبب وجوده فى بيروت •• وعن اعجابه بها•• وهى لاتعيره سمعا ونظراتها سابحة فى سقف المكان ••

وعندما انتهت الرقصة مضى معها الى منضدتها وهم بالجلوس ولكنها سألته فى برود وضيق عما يريده منها •• لقد طلب أن يراقصها فرقصت معه •• وانتهى بذلك لقاءهما !

ولكن عادل يصر على أن يعرف اسمها •• فتخبره بانه يستطيع أن يناديها باسم (صفاء) ثم تنهض لتنصرف ولكن عادل يلح فى أن تعطيه موعدا للقاء فتحاوره فى ذكاء لتهرب من اجابة طلبه •• ولكنها أمام اصراره تحذره بأسلوب غامض قائلة انه لن يفيد من هذا اللقاء كما يتوهم •• بل ربما يخسر الكثير!••

ولكن غموضها يزيد من رغبة عادل فى رؤيتها مرة أخرى فتعده مكرهة باللقاء فى غروب اليوم التالى فى مكان حددته على شاطىء البحر ••

وتنصرف (صفاء) ويعود عادل الى صديقه مازن فرحا سعيدا بموعد الغد ولكن مازن يبدى قلقه وخوفه من هذه المرأة الغامضة ويحذره من مقابلتها •• بينما عادل يؤكد له انه واهم وان المرأة تميل بطبيعتها الى الغموض لتثير الرجل •• وانه أى عادل يحس بانه مقبل على أحداث قصة رائعة لم يكتب مثلها أحد من قبل ! •

وقبل الموعد المحدد بقليل كان عادل جالسا فى المكان الذى اختارته صفاء يحلم باللقاء وما بعد اللقاء •• رغم

ما يداخله من شك فى مجيئها ٠٠

حتى رآها تدخل المكان فى هدوء وثبات وتحييه بايماءة من رأسها ثم تجلس بجواره ٠٠

ويبدأ عادل الحديث بسؤالها ان كانت قد قرأت آخر كتبه الذى يحمل اسم (انت لى ياحبيبى) فيبدو عليها التجهم ولكنها سرعان ما تكتم عواطفها وتجيبه بالايجاب ! فيسألها ان كان قد حاز اعجابها فتجيبه فى اقتضاب بأنها قد اعتادت أن تحتفظ لنفسها برأيها فى الآخرين وفى تصرفاتهم ٠٠

ويحس عادل بالحرج ٠٠ ولكنه يفتح موضوعا آخر للحديث عن الجو وعن شاعرية المكان ٠٠ فيفاجأ بها تسأله فى برود عما يريده منها ٠٠ فيقول لها بلا تردد انه معجب بها ويتمنى أن يقضى معها أكبر وقت يستطيعه ٠٠ وتقول فى تهكم ودهاء ان ما يريده سوف يكلفه كثيرا ٠٠ فيؤكد لها استعداده للتضحية بالكثير لينال هذا الحلم ٠٠

وأمام اصراره تشترط صفاء لكى تحقق له رغبته ألا يوجه اليها أية أسئلة ٠٠ وأن يغادر المكان الذى سيقضيان فيه ليلتهما قبل شروق الشمس ٠٠ فيوافق عادل ٠

تغادر صفاء وعادل المكان حيث كانت تنتظره سيارة سوداء فخمة يستقلانها لتمضى بهما فى طريق الجبل الوعر المتعرج ٠٠ وتظل السيارة تلف بهما وتدور نحو ساعة من الزمان وصفاء صامتة شاردة الفكر ٠٠ بينما عادل قد بدأ يداخله الخوف من نتيجة هذه المغامرة ٠٠ فتلاحظ صفاء ذلك وتؤكد له بانه يستطيع التراجع والعودة الى المدينة ٠٠ وهى تفضل ذلك لانه فى مصلحته ٠٠ ولكن عادل يؤكد لها بأن حبه لا يعرف الهزيمة ٠٠

تقف بهما السيارة فى مكان منعزل أمام كوخ أحمر صغير يحيطه سور متآكل من الخشب غير المطلى ٠٠ وتهبط صفاء بصحبة عادل فيفتح باب الكوخ صبى نوبى فى ملابس نظيفة ٠٠ حيث يدخلان الى ردهة الكوخ المؤثثة بأثاث شرقى فخم ٠٠٠

وتختفى صفاء فى احدى الحجرات وتتركه مشغولا بتأمل المكان وخاصة اللوحة الزيتية الكبيرة التى تصور قلعة محمد على بالقاهرة تصويرا دقيقا بارعا ٠٠ ولا تمضى لحظات حتى يفاجأ عادل بصفاء تدخل الردهة وقد ارتدت غلالة رقيقة شفافة تكشف مفاتن جسدها الثائر ٠٠ وقد انسدل شعرها الكستنائى الغزير على كتفيها العاريين ٠٠ ولأول مرة يقرأ فى عينيها الشوق اليه ٠٠ وبينما هو ثائر الدم مبهور الانفاس يسمع صوتها يدغدغ وهى تقول ان حلمه بين يديه ٠٠ يسرع عادل نحوها ويرفعها بين ذراعيه فتشير له بأصبعها الى الحجرة التى جاءت منها فيندفع بها حيث يختفيان وراء الباب ٠

يقضى عادل مع صفاء الليل فى متعة جارفة لا يفيق منها الا على صوتها وهى تنبهه الى أن موعد رحيله قد حل !٠٠

ثم تترك الفراش وتزيح ستارة النافذة وتنظر الى القمر الذى بدأ يختفى فى الافق ليخلى مكانا لاضواء الفجر الزاحفة ٠٠

ويسألها عادل وهو يرتدى ملابسه متى يلتقيان ؟ فتخبره بأن علم ذلك عند السماء ‥ ولكنه يؤكد لها أنه سيلتقى بها ‥ فانه قد أصبح يهيم فى حبها ولن يستطيع العيش بدونها ‥ وتسأله ساخرة من اين جاءه التأكيد ؟ فيخبرها بأنه عود نفسه على أن يحقق كل مايريده ‥ وهو لهذا سيلتقى بها غدا وبعد غد وكل ليلة ‥ وتجيبه فى غموض مثير انه ليس فى حياتها شىء اسمه الغد ‥ لانها لاتحب أن تفكر فى شىء لا تملكه ‥ وان صلتهما قد انتهت عند هذا الحد ‥ فيقول لها مبتسما (سنرى !)

ثم يسألها قبل أن ينصرف أن تأمر سائقها بتوصيله بسيارتها حتى المدينة ولكنها تعتذر بأن السيارة مع السائق الذى يقيم فى مكان يبعد كثيرا عن الكوخ ‥ ويعود فيسألها حائرا عن الوسيلة التى سيعود بها الى المدينة فتخبره بأن عليه أن يسلك طريق الجبل الذى يوصل الى المدينة يبدأ بعد مسيرة دقائق من الكوخ ‥ حيث سيجد احدى السيارات التى تحمله الى المدينة ‥

ويودعها عادل بقبلة حارة ثم يغادر الردهة وهى ترقبه بعطف وعلى شفتيها ابتسامة غامضة ‥

ولا يكاد يغادر الكوخ ويخرج من باب الحديقة ويسير قليلا بمحاذاة سورها الواطىء ‥ حتى يستغرقه جمال الليل تحت ضوء القمر الغارب ‥

وفجأة يسترعى انتباهه وقع اقدام مقبلة من خلفه ‥ فيتلفت وراءه واذا به يرى رجلا ضخم الجثة مقبلا وفى يده عصا غليظة وملامحه تنطق بالشر والقسوة فاستدار وفى نيته أن يطلق ساقيه للريح ولكنه فوجىء بشخص آخر يقبل نحوه من الطريق المضاد ويسد عليه سبيل الهرب ‥ وأحس بالخوف وقد أدرك من هيئة الرجلين انه معرض للخطر ‥ فلم يجد أمامه الا سور الحديقة فقفز فوقه وأصبح داخلها وأسرع الى باب الكوخ وأخذ يطرقه فى عنف وينادى (صفاء) وقد أصابه الهلع ·

ومضى وقت طويل قبل أن تفتح كوة صغيرة فى باب الكوخ وتطل منها امرأة عجوز ذات شعر مشعث ووجه مخيف وتسأله فى حدة عما يريد فيخبرها بأنه يريد صفاء ‥ فتبدو عليها الدهشة وهى تجيبه بأنه لا يوجد فى كوخها أحد بهذا الاسم ‥ وعندما يؤكد لها انه كان معها فى داخل الكوخ منذ لحظات تجيبه فى ضيق بأنه مخطىء ثم تغلق فى وجهه الباب فى عنف ‥

ويقف عادل لحظات حائرا خائفا لايدرى ماذا يفعل ‥ بينما القمر قد اختفى خلف سحابة عابرة فأشاع الرهبة فى نفسه ·

ويدور عادل بنظراته من فوق سور الحديقة بحثا عن مهاجميه ولكنه لايجد لهما أثرا فيتشجع ويقفز من على سور الحديقة ولا يكاد يفعل حتى يفاجأ بالرجلين يبرزان امامه كأنما انشقت الارض عنهما فيضرب احدهما بقبضته

بكل ما يملك من قوة ورغبة فى الحياة ثم يطلق لساقيه العنان والرجل الآخر يطارده حاملا عصاه الغليظة ·· ويظل عادل يجرى ويجرى حتى يصـل الى طريق الجبـل وقد بدأ يلهث وتضعف سرعته ·

وفجأة يغمر المكان ضوء كشاف سيارة آتية من المنحنى وفى نفس اللحظة يحس عادل بضربة هائلة تهوى على رأسـه فيسقط فاقدا الوعى ·

***

يفيق عادل ليجد نفسه فى غرفة بأحد المستشفيات وبجواره صديقه الناشر (مازن) وأحد ضباط الشرطة ·· ويخبره مازن بأنه انتظر عودته الى الأوتيل الذى ينزل فيه ولما تأخر الوقت استراب فى الامر ، فاصطحب معه صديقه ضابط الشرطة الذى كان فى أجازة فى ذلك اليوم وذهب الى المكان الذى واعد فيه الفتاة على اللقاء فعرف بأنه استقل معها السيارة السوداء الكبيرة وقد استطاع ضابط الشرطة بتحرياته السريعة أن يعرف أن السيارة قد اخـذت طريق الجبل وان لم يعرف وجهتها بالتحديد ، فصحبه مازن بسيارته وانطلقا يقطعان طريق الجبل ذهابا وايابا حتى عثرا عليه فى اللحظة المناسبة ·· أما المعتدى فقد تمكن من الهرب ·

ويقرر عادل فى محضر الشرطة انه تعرض لمحاولة قتـل بيد أشـخاص مجهولين آكد بأنهم من أتبـاع السيدة الغامضة التى أعطى أوصافهـا والاسم ـ صفاء ـ الذى يعرفه عنها ·

ولكن تحريات البوليس لم تصل الى كشف شخصية هذه المرأة أو مكانها ·

ومضت ثلاثة أيام قبـل أن يسترد عادل قواه ويصحب بعض رجال الشرطة الى الكوخ الذى التقى فيه بالفتاة ·· ولدهشته فوجىء بأن الكوخ لونه أصفر وليس حوله سور من الخشب كما رآه وكما ذكر أوصافه فى التحقيق ·· وظن ضابط الشرطة انه واهم فلا يوجد فى هذه المنطقة كوخ غير هـذا الكوخ ··

ويسقط فى يده امام نظرات الشـك من ضابط الشرطة وزملائه فيصف لهم عادل أثاث الكوخ وصفا دقيقا ويطلب أن يدخله ليتحققوا من صدق روايته · ويجيبونه الى طلبه ·· ولا يكاد يدخل الكوخ حتى يفـاجأ بأثاث عتيق مترب كأنه مهمل منذ سنوات ·· ولا وجـه للشبه بينه وبين الأثاث الذى وصفه ·

ويعود عادل مع رجـال الشرطة الى المدينة وهو فى حالة ذهول وغضب ·· ولا يكاد ينفرد بصديقه مازن فى الاوتيل حتى يعلنه بتصميمه على كشف سر هذه المرأة ولو ضحى بحياته ·

ويحاول مازن أن يقنعه بالتخلى عن هذا الامر والتمتع بأيامه فى لبنان ·· ولكنه يصر على رغبته فهو مصمم عـلى الانتقام من هذه المرأة السفاحـة ·· ويلاحظ مازن أن عادل يحبها رغم حقده عليها وعندما يكاشفه بهذه الحقيقـة يعترف بها على الفور ·

***

يبدأ عادل بمفرده جولة فى الاماكن التى التقى فيها بصفاء وفى الاماكن التى يحتمل أن تتردد عليها ·· ولكنه لايجد أحدا يعرف عنها شيئا ·· فيذهب الى طريق الجبل عله يجد كوخها ويجدهـا

فيه ٠٠ وأثناء بحثه يمر ببيت عتيق متهدم حوله حديقة مهملة ٠ وفجأة يشاهد صفاء فى شرفة المنزل فيندفع نحوها فى حقد ويمسكها من رقبتها وهو يصرخ فيها لماذا أرادت قتله ؟ فتصرخ الفتاة مستغيثة ليسرع لانقاذها رجل عجوز كان يسقى بعض اشجار الحديقة من رشاشة فى يده ٠٠ بينما تنظر اليه مذهولة خائفة دون أن تنطق بحرف ٠

ويقول عادل للرجل العجوز أن هذه الفتاة قد حاولت قتله ، وأنه لن يتركها حتى يسلمها للشرطة ولكن الرجل العجوز يفاجئه بأن هذه الفتاة لم تغادر هذا المكان ثلاثة أعوام ٠٠ وانها عمياء وصماء ٠٠ ورغم أن عادل تأكد من صدق الرجل الا انه شك فى الامر وعول على معرفة الحقيقة بنفسه فقد كان على ثقة من انها هى صفاء بشعرها وعينيها وكل مافيها ٠٠ وانها تمثل أمامه دور العمياء الصماء حتى تفلت من عقابه ٠

وعادل عادل فى اليوم التالى يحمل هدية للفتاة كاعتذار عما بدر منه ٠ ٠ فاطمأنت الفتاة اليه وكذلك الرجل العجوز لاسيما بعد أن عرفا أنه أديب مصرى غريب عن لبنان ٠

ومضت ايام وعادل يتردد على الفتاة ويستميلها اليه حتى تعلقت به ٠٠ وبدأ يستعد لخطته التالية التى قال عنها لمازن انه سيكشف بها حقيقة الفتاة التى ليست فى اعتقاده سوى غريمته (صفاء) وكانت طريقته الى ذلك أن ينفرد بها بعيدا عن الرجل العجوز الذى لايفارقها ويخلع عنها ثيابها ولو بالقوة ليرى الشامة السوداء الكبيرة الموجودة بأعلا كتفها والتى رآها فى نفس الموضع من جسم صفاء ٠٠ ويستنكر « مازن »هذه الطريقة ويحذره من نتيجتها ٠ ولكن عادل يصر على رغبته مهما كلفته من ثمن ٠٠ وخلال الحديث يكتشف مازن بأن عادل يحب الفتاة الصماء العمياء كأنها هى صفاء تماما ٠٠ وهذا ما يؤكد له أنها صفاء !!

يستطيع عادل أن ينفرد بالفتاة العمياء التى مال اليه قلبها ، وفى جلسة شاعرية تهتاج عواطفه فيعتدى عليها رغم مقاومتها ويغتصبها ٠٠ مدفوعا برغبته فى رؤية الشامة، ولارضاء شوقه الجنسى فى وقت معا ٠

ولكنه يفاجأ بخلو جسمها من أى أثر للشامة التى رآها فى جسم صفاء ٠ ٠ وبينما هو مذهول من اكتشافه يأتى الرجل العجوز مع بعض الاهالى على استغاثة الفتاة ويقبضون عليه ٠

ويسجن عادل فى قسم الشرطة تحت التحقيق بعد أن قررت الفتاة انه اغتصبها ٠٠

وقد حاول المحامون الذين وكلهم مازن لانقاذه أن يقنعوا عادل بانكار التهمة المنسوبة اليه لاسيما والفتاة عمياء ٠٠ ولكن عادل أصر على الاعتراف بجرمه مدفوعا بعطفه على الفتاة وحبه لها وشعوره بالذنب والندم ٠

ولكنه يفاجأ فى صباح اليوم التالى بمأمور القسم يستدعيه ويخبره بأن الفتاة العمياء حضرت مع أحد الاشخاص وعدلت أقوالها وقررت انها لاتعرف الشخص الذى اعتدى عليها ٠٠ وبذلك أطلق سراحه ٠

وكانت الصحف قد بدأت تتهامس بما حدث وتشير الى الاديب الكبير دون أن تذكر اسمه فبذل مازن جهودا كثيرة حتى استطاع أن يعتبر الموضوع حرصا على سمعة كاتبه الذى يكسب من وراء مؤلفاته الكثير ٠

وحاول مازن أن يحمل صديقه على الرحيل عن لبنان والعودة الى مصر بعد أن نجا بأعجوبة من السجن ٠٠ ولكنه فوجيء بعادل وقد زاد اصراره على كشف أمر صفاء لاسيما بعد عدول الفتاة العمياء عن اتهامه الذى لاشك يخفى وراءه سرا يحس انه سيوصله الى صفاء ٠

ويذهب عادل الى الفتاة العمياء فى منزلها ليحاول معرفة هذا السر ولكنه يفاجأ بأنها تركت المنزل الى حيث لايعلم أحــد ٠٠ فيــذهب الى قسم الشرطة ويحصل على اسم الرجل الذى أتى معها عندما عدلت أقوالهـــا وتراجعت عن اتهامه ٠

ويفرح عادل وقد اعتقد أن عثوره على هذا الرجل يعتبر وصولا الى طرف الخيط الذى سيوصله الى صفاء ٠ ٠ ولــكنه يفاجأ بأن المكان الذى ذكره الرجل على انه عنوانه ليس سوى خرابة مهجورة ٠

ويزداد عادل رغبة وتصميما فى كشف هذا الغموض وقد احس بأنه يعيش فى قصة مثيرة سيكتبها يوما لتخلد اسمه واسم ناشره كما ذكر لصديقه مازن ٠

ويعود عادل مرة أخرى الى طريق الجبل قاصدا الكوخ معتقدا انه لابد سيلتقى بصفاء بطريقة ما فهى كالمجرم لابد وان تحوم حول مكان الجريمة ٠

ويفاجأ عادل بأن الكوخ الذى رآه مع رجال الشرطة ذا لون أصــفر ٠٠ يراه الآن ذا لون أحمر وحوله نفس السور الخشبى المتآكل ٠٠ وهو نفس الكوخ الذى التقى فيه بصفاء ٠٠ فيندفع الى باب الكوخ وقبل أن يرفع يده ليطرقه فى عنف ٠٠ ينفتح الباب ليجد أمامه صفاء فى نفس الغلالة الشفافة التى كانت ترتديها عنــدما قضت معــه ليلتهمـا الوحيدة ٠

وقبل أن يفيق عادل من ذهوله دعته صفاء ببساطة للدخول ٠٠ فدخل واغلقت الباب خلفه ثم تقدمته للردهة ففوجيء بنفس الاثاث الشرقى الفاخر وباللوحة الزيتية لقلعة محمد على بالقـــاهرة فى مكانها على الحائط ٠

وجلست صفاء أمامه فى وضع مثير واخذت تنظر اليه فى حنان وشوق فنسى حقده عليها ورغبته فى الانتقام منها ٠ وكاشفها فى انفعال بحبه ٠ وانه لايريد أن يصدق صوت عقله من انهــا حاولت قتله بلا سبب ٠٠ ولكنها تجيبــــه فى بساطة أنها فعلا حاولت قتله ٠٠ فيسألها مذهولا عن السبب وهو لم يسيء اليها فتذكره بما اشترطته عليه فى لقائهما من ألا يوجه اليها أية أسئلة ٠

ولكنه يعود فيسألها عن الفتــــاة الصماء العمياء التى اغتصبها ، ولكنها ترفض أن تجيبه ٠٠ فهو ليس زوجهــا حتى تفسر له مايريد ٠٠ فيعرض عليها عادل الزواج منه ويؤكد لها انه قد نسى الماضى بكل ما فيه ٠

وتسأله فى هدوء هل قراره هــــذا نهائى ٠٠ فيجيبها بالايجاب ٠٠ فتعود وتسأله ألم يندم عليه ؟ فيؤكد لها فى حرارة أن زواجه منها هو كل أمنيتـه فى الحياة ٠

فتصفق بيديها فيدخل أحد رجال الدين ويحييهما فتدعوه للجلوس وتطلب منه ان يعقد عليهما ٠٠ ويسألها عادل فى ذهول هل كانت تنتظره وهل كانت تعرف انه سيعرض عليه الزواج ٠٠ لتستمهله الى مابعد اتمام العقد حيث تفسر له كل شيء ٠

وينتهي رجـل الدين من عمـله وينصرف •

ويحاول عادل الاستفسار عما غمض عليه من امرها ولكنها تستمهله الى مابعد أن يتمتعا بلقائهما •• وتصحبـه الى حجرة النوم التى قضى معها فيها ليلته الوحيدة •

ويقضيان بعض الوقت فى متعةجارفة •• ثم يعود فيسألها عما غمض عليه ولكنها تستمهله مـرة أخرى الى حين خروجهما فى نزهة بالقارب فى عرض البحر •• عند غروب ذلك اليوم •

***

وعند الغروب تستقل صفاء وعادل قاربا بخاريا صغيرا تملكه كان واقفا بمرفأ امام الكوخ •• ويلاحظ عادل ان هذا الجزء من الشاطئ وضعت عليه لافتة خشبية مكتوب (خطر •• يوجد سمك قرش فى هذه المنطقة) فيدرك ان هذا تحذير للاهالى حتى لايستحمون فى هذه المنطقة •

وينطلق بهما القارب البخـارى فى عرض البحر حتى يغيب الشاطىء عن ناظره وعندئذ يتوقف القارب ، ويحاول عادل ان يعيد تشغيله عندما تقول له صفاء باسمة انه لافائدة فالوقـود قد نفد •• فيبدى عادل دهشته •• فتخبره فى غموض ان كل شيء له نهاية ، حتى الانسان •

فيسألها عادل حائرا هل كانت تعلم أن البنزين لن يوصلهما الا الىهذا المكان فتهز رأسها بالموافقة •• فيبـدو عليه الذعر ولكنها تدعوه الى الجلوس ليستمع الى أجوبة الاسئلة التى يريد أن يوجهها لها ••

وتخبره وهو مذهول بانها أميرة من عائلة فاروق هربت مع والديها واختها الصغيرة الى لبنان بعد قيام ثورة ١٩٥٢ وان والدتها قد فاست على يد والدهـا كل أصناف العذاب قبل أن تطلق منه وتتزوج من رجل آخر أحسنت به الظن فاذا به أكثر قسوة ونذالة •• ولـكن القدر رحمها منه فمات فى حادثة •• وتزوجت من الرجـل الثالث الـذى استطاع بحبه الزائف وتمثيله المتقن أن يقنعها بانه يختلف عن غيره من الرجال وان يحملها على الزواج منـه •• وهى فرحة سـعيدة تحلم بالرجـل الذى سيعوضها ماقاسته من عذاب •

ولكنه لم يلبث بعد ايام من الزواج ان ظهر على حقيقته انانيا قاسيا نذلا •• يعيش أيامـه بين الخمر والنسـاء الساقطات يستنزف أموالهـا ليعيش حياته الملوثة •• يعتدى عليها بالضرب المبرح بلا سبب •• وأدركت الام بعد فوات الأوان أن الرجال كلهم سواء •• ذئاب شرهة تفترس النسـاء اللواتى يقعن بين مخالبهم • حتى حدث ذات ليلة أن حاول الزوج الشرس ان يعتدى على صفاء فدافعت الام عنها فهجم عليهـا وقتلها امام أعين طفلتيها حتى أصيبت أختها الصغيرة من عنف الصدمة بالعمى والصمم فقد أرادعقلها الباطن أن يحميها من رؤية المنظر الرهيب ومن سـماع صرخات أمها •

وهكذا خرجت هى ، أى صفـاء الى

الحياة وهى تكره الرجال وتحقد عليهم وتنتقم من قاتل أمها فى اشخاص كل الرجال الذين توقعهم سوء حظهم بين يديها ٠

ويسالها عادل ان كانت الفتاة الصماء العمياء التى اغتصبها هى اختها؟ فتجيبه بالايجاب ٠٠ وتخبره بأنها دفعت رجليها لقتله بعد خروجه من الكوخ حتى لاتحين له الفرصة مع الايام للسيطرة عليهـا وتعذيبها ٠٠ كما تعذبت أمها ، وعندما نجـا من الموت أدركت انه لابد عائد ليبحث عنها فاعادت طلاء الكوخ باللون الاصفر وغيرت أثاثه وأخفت معالمه حتى لا يستدل عليه ٠٠ وأخبرته بأنها أنقذته من السجن بان دفعت اختها بالتراجع عن اتهامه٠٠فقد يحمله ذلك على الاكتفاء بما حدث والعودة الى وطنه ٠٠ وبذلك تتخلص منه ٠

ولكنها فوجئت به يتجول فى طريق الجبل فادركت أنه يبحث عن الكوخ الذى كانت قد اعادته الى حالته الاولى ٠٠ وأيقنت انه يحبها وألا مفر من لقائه ٠٠ فاستدعت رجل الدين فى انتظار وصول عادل ٠

ويذهل عادل لما سمع ٠٠ ويسألهـا ان كانت بعد زواجهـا قد تخلصت من عقدتها من الرجال ٠٠ وأكد لها أنهـا مخطئة فى اعتقادها ٠٠ فكل مافى الحياة فيه السيىء وفيه الحسن ٠

ولكنها تسخر منه ٠٠ وتخبره بأنها لن تخدع فيه وتترك له الفرصة ليتلذذ بالسيطرة عليها وتعذيبها ٠

يبدو على عادل الخوف ٠٠ ويسالها عما تنوى فعله ٠٠ فتخبره بأنها ستحقق له أمنيته وسيبقى معهـا الى الابد ٠ ٠ وتلتمع عيناهـا ببريق مخيف يصيب عادل بالذعر وقد أدرك انها مجنونة ٠

وفجأة تمد يدها الى بطن القارب ٠٠ وتنزع قطعة مربعة من الخشب وتلقيها فى البحر وهى تقهقه فى جنون بينمـا الماء قد بدأ يتدفق الى القارب ٠٠ يندفع عادل نحوها فى غضب هائل ولـكنها تخرج مسدسا من حقيبتها وتشـهره فى وجهه ٠٠ وهى تقول انه سـيموت معها فهى لاترضى بأن تعيش صورتهـا فى خيال احد ٠

يقذفها عادل بوسادة كانت بجـواره فيسقط المسدس من يدها فى البحر٠٠ ويندفع نحوها محاولا اقناعها بالنجـاة بنفسها عن طريق السباحة ولكنهـا تقاومه فى عنف ووحشية فيتركهاويخلع ملابسه ويقفز الى الماء سابحا فى اتجاه الشاطىء ٠٠ ولا يلبث أن تهاجمه سمكة قرش فيصرخ مستغيثا بينمـا صفاء تضحك فى القارب فى جنون والماء يعلو حتى يصل الى فمها ٠ ٠ بينمـا قرص الشمس قد بدأ يغيب فى الافق البعيد يصبغ السماء بلون الدم ٠

***

عادل جالس فى بيته وقد تقدمت به السن وأمامه طفلان فى نحو العاشرة ويبدو انه كان يروى لهما هذه القصة ٠

تدخل الفتاة العمياء الصماء تقودها خادمة فيستقبلها عادل بحب وحنـان ويجلسها بجواره ٠

من أقاصيص الأولين

عرض وتقديم : سامية زكي

هذه قصة من الادب العربى القديم

قصة تكشف عن مكانة المرأة فى ذلك المجتمع · مكانتها من أبيها ، ومكانتها عند زوجها ·

كما تكشف عن ذلك الدور الذى كانت تلعبه المرأة فى ذلك المجتمع ـ وهو دور المرأة المدركة لجميع المشكلات التى تجابه الرجل ان فى الحياة اليومية ، وان فى الحياة العامة ·

والمرأة هنا تحب السلام والوئام ، وتعمل على استقرارهما وانى حين أقدم هذه القصة انما أرجو أن تنال المرأة المعاصرة حظ المرأة العربية ـ المرأة الحرة الكريمة ·

قال الحارث بن عوف بن أبى حارثه لخارجه بن سنان : أترى أنى أخطب الى أحد فيردنى ؟

قال : نعم ·

قال : ومن هو ؟

قال : اوس بن حارثة الطائى ·

قال . اركب بنا اليه ·

فركبنا اليه حتى أتينا أوس بن حارثة فى بلاده ، فوجدناه فى فناء منزله ، فلما رأى الحارث بن عوف قال : مرحبا بك يا حارث ثم قال : ما جاء بك ؟

قال جئتك خاطبا :

قال : لست هناك ·

فانصرف ولم يكلمه ·

ثم دخل أوس على امرأته مغضبا ··

فقالت له : من الرجل الذى سلم عليك فلم تطل معه الوقوف ، ولم تكلمه ؟

فقال : ذلك سيد العرب الحارث بن عوف ·

فقالت : فمالك لاتستنزله !

قال : انه استهجننى ·

قالت : وكيف ذاك ؟

قال .لانه جاءنى خاطبا ·

قالت . ألست تزعم انه سيد العرب؟

قال :نعم ·

قالت . اذا لم تزوج سيد العرب فى زمانه فمن تزوج ؟

قال : قد كان ذلك ·



قالت : فتدارك ما كان منك ٠

قال : فبماذا ؟

قالت : بأن تلحقه فترده :

قال : وكيف وقد فرط منى أليه مافرط ؟

قالت . تقول له : انى لقيتك وأنا مغضب لأمر ، فلك المعذرة فيما فرط منى ، فارجع ولك عندى كل ما طلبت ٠ فركب فى أثرهما ٠

قال خارجه بن سنان فوالله انا لنسير اذ حانت منى التفاتة فرأيته وقلت للحارث ـ وهو يكلمنى ـ هذا أوس وهو فى اثرنا ٠

فقال :ما أصنع به ؟

ومضى ومضيت معه ، فلما رآنا لانقف قال : يا حارث أربع على ٠

فوقفنا له ٠ وكلم الحارث بذلك الكلام الذى قالته له امراته ٠ فرجع الحارث معه مسرورا ٠

قال خارجه : بلغنى أن أوسا لما دخل منزله قال لزوجته : ادعى لى فلانة ـ كبرى بناته ، فأتته ٠

فقال لها : أى بنية ٠ هذا الحارث ابن عوف سيد من سادات العرب جاءنى خاطبا وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين ؟ ٠

قالت : لاتفعل ٠

قال .ولم ؟

قالت : لأن فى خلقى رداءة ، وفى لسانى حدة ـ ولست بابنة عمه فيراعى رحمى ، ولا هو بجار لك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون على بذلك مسبة ٠

فقال لها : قومى بارك الله فيك ٠

ثم دعا بابنته الاخرى فقال لها مثل قوله لاختها ، فأجابته بمثل جوابها ٠٠

فقال لها : قومى بارك الله فيك ·

ثم دعا بالثالثة ـ وكانت أصغرهن سنا ـ فقال لها مثل ماقال لاختيها ·

فقالت له : انت وذاك ·

فقال لهـــا : انى عرضت ذلك على أختيك فابتاه ـ ولم يذكر لها مقالتهما ·

فقالت له : والله انى الجميلة وجها ، الرفيعة خلقا ، الحسنة خلقا ، السديدة رأيا · فان حفظنى فقد فاز ،وان طلقنى فلا أخلف الله عليه ·

فقال لها : بارك الله فيك ·

ثم خرج اليه فقال : زوجتك ياحارث بابنتى فلانة ·

قال : قد قبلت ·

وأمر أوس أمها أن تهيئها له ، وتصلح شانها ·

ثم أمر ببيت فضرب للحارث وأنزله اياه ·

ثم بعثها اليه ·

فلما دخلت عليه لبث هنيهة ثم خرج الى · ·

فقلت له : أفرغت من شأنك ؟

قال : لا والله ·

قلت : وكيف ذلك ؟

قال . لما مددت يدى اليها قالت : مه أعند أبى واخواتى ؟ هذا والله لايكون ·

ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معا ·· وسرنا ماشاء الله ·

ثم قال لى : تقدم ·

فتقدمت ، فعدل عن الطريق ، وما لبث أن لحقنى ·

فقلت : أفرغت من شأنك ؟

قال : لا والله ·

قلت :ولم ؟

قال . قالت تفعل بى كما يفعل بالامة المسبية الأخيذة ؟ لا والله حتى تنحر الجزور والغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل مايعمل مثلك لمثلى ·

قلت . انى لأرى همة وعقلا ·

قال : صدقت ، وانى لأرجو الله تعالى أن تكون المرأة النجيبة التى أطلبها ·

فسرنا حتى وردنا الى بلادنا، فأحضر الحارث الابل والغنم ، ونحر وأولم ، ثم دخل عليها ، وخرج الى ·

فقلت . أفرغت من شأنك ؟

قال : لا والله ·

قلت : ولم ذاك ؟

قال : دخلت عليها أريدها فاظهرت العجب من أمرى وقالت :

لقد ذكرت من الشرف ما ليس فيك؟

قلت : ولم ذاك ؟

قالت : أتتفرغ للنساء والعرب من حولك يقتل بعضهم بعضا ـ وكان ذلك فى أيام حرب قيس وذبيان ·

قلت : ويحك ! فماذا تريدين ؟

قالت : اخرج الى القوم فابذل من مالك وجاهك للصــلح بينهم ، ثم ارجع الى أهلك فلن يفوتك ما تريد ·

فقلت : انى لأرى عقلا ورأيا سديدا·

قال : فاخرج بنا ·

فخرجنا حتى أتينـــا القوم ـ وقد تساقطقتلاهم كأوراقالخريف ـ فمشينا بينهم بالصـــلح ، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ثم تؤخذ الدية ، فحملنا منهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير ·· فانصرفنا وقد حملنا أجمل ذكر وأطيب فخر ·

ثم دخل عليها فقالت له : أما الآن فنعم ·

فاقاما معا في ألذ عيش وأهنئه حتى أدركهما هادم اللذات ومفرق الجماعات·

الطريد

بقلم : الدكتور محمد كامل حسين

حدثوه اعجب الحديث عن واد فى اعلى جبال سيناء فيه اشجار من الفاكهة والزيتون لم ير الناس مثلها قط . وفيه عيون من ماء بارد وعذب صاف ينحدر من صخور عالية . يستقى به الناس وتروى به الارض فى غير عناء . وتحدثوا عن طيب هوائه ، وان صيفه لاحر فيه وان برد شتائه غير مرهق لما يحيط به من قمم شاهقة تحميه قر الرياح الهوج التى تعصف فوق اكثر الجبال . وقالوا انه يسقط من سمائه شتاء شيء لايعرفه أهل السهول يشبه القطن يغطى الارض جميعا بثوب أبيض ناصع . حتى اذا اقبل الربيع ذاب هذا الثلج وسالت الاودية بماء عذب يجرى عيونا أو يفور آبارا قريبة المنال .

حدثه بهذا الحديث وبما هو اشد منه غرابة البدو الرحل الذين يجوبون الصحارى والجبال وردد حديثهم الصيادون الذين اقام بينهم منذ فر من مصر الى ساحل البحر الاحمر . ولم يكن اولئك ولا هؤلاء ممن يوثق بكلامهم

ولم يكن لموسى عهد بهذا الذى يتحدث به الناس ولم يكن يعرف شيئا عن الجبال ، فخامره شك كثير فى هذا الذى سمع وحسب أكثره من نسج الخيال.

وروى الرواة أن أهل ذلك الوادى قوم آمنون مطمئنون ، فيهم دماثةخلق وطيب نفس ، يعيشون عيشة راضية هادئة . لايطغى منهم قوى على ضعيف ولا يحقد منهم فقير على غنى ، وانهم لايردون سائلا ولايسيئون الى غريب، يضيفونه حتى يبلغ مأمنه . وان بعدهم عن صخب العالم وتقاتل الناس على خيرات الدنيا جعلهم من أحسن الناس خلقا . وان حرموا لذات الثراء العريض .

ولما كثر الحديث عن ذلك الوادى اخذ موسى يؤمن ببعض مايرويه البدو عنه . واطمأن الىان هناك على كل حال فى أعلى جبال سيناء واديا نائيا عاليا خصبا جميلا وان يكن المرتقى اليه صعبا .

ورغب فى الهجرة اليه . وحببه الى نفسه انه بعيد لن يستطيع أن يتعقبه



اليه احـد من الذين ائتمروا بهليقتلوه حين قتل رجلا من أهل مصر منذ أمد غير بعيد .

واهمته هذه الرغبة فلم يعد يطيق صبـرا على التفكير فى الهجرة اليـه . واعد نفسـه للرحـلة الشاقة . جمع ما استطاع من أخبار عن الطريق خوفا من أن يضل بين هذه الجبال الشاهقة والوديان الملتـوية وقيل له ان معـالم الطـريق واضـحة . وانه ان احتمل مشقة الصعود فلن يخطىء الطـريق . وعلم أن الوادى على مسيرة ثلاثة أيام من حيث كان يقيم على ساحل البحر.

ولم يخبر احـدا بهجـرته هذه . وحمل معهقربة صغيرةفيها ماءواخرى بهاقمح مجروش . وبـدأ رحلته ذات صباح عند مطلع الفجر . ولم . . يفتقده احد من الصيادين الذين عاش بينهم . وكانوا لايالفونهوكان لايالفهم . ضاقوا به صدرا لجهله كل مايعرفون .وضاق بهم صـدرا لجهلهم كل ما يعـرف . وظنوا بهالكبرياءوالصلف . وانحرص على ألا يدلهم شيء يعمله عـلى احتقاره اياهم . فكان سعيدا أن يفارقهم ولم يكونوا آسفين لفراقه .

سار ساعات خمس فى السهل الذى يقع بين البحر والجبال . حتى اذابلغ أول الجبـال وجد منفرجا بين جبلين هـو اول الطـريق الذى ينتهى به الى حيث يريد . وشغلته جـدة الرحـلة وشوقه الى ماسيلقاه فيها عن التفكير فى ماضيه الذى يفر منه . وعن البحث فى المستقبل المجهولالذى هو قادمعليه فكان اقرب الى النشاط والفرح منـه الى القنوط والتردد .

حتى وجد أمامه نخلة باسـقة تحيط بها قطعةصغيرة منارض خصبةخضراء

ووجد عنـدها رجـلا أشيب يعمل فى الارض . ووقف موسى عليه فلم يعره الرجل التفاتا . وراى موسى ان يبدأ. بالحديث فقال له .

ـ ماذا تفعل ياعم ؟

ـ ازرع .

وكاد موسى يضـحك لهـذا الذى يسميه الرجل زرعا . وعهده بالزرعفى مصر يكون ارضا شاسعة وماء غـزيرا ودوابا كثيرة وعمـلا لاينقطع . ثم قد لايصلح الزرع بعد ذلك كله فكيف يكون زرعا هذه القطعة الصغيرة من الارض وتلك الشجرة الواحدة وليس حولهـا ماء ولا دواب .

ـ وماذا تزوع ؟ .

ـ هذا الذى تراه .

ـ أيكفيك هذا ؟.

ـ لو لم يكن يكفينى لرحلت .

وعـز على موسى ان يجـد نفسـه مضطرا الى الحديث مع رجل على هذا القدر من الجهل وراى فى اقتضاب هذا الحديث احتقارا له . ولكنه عـزم مع ذلك أن يتابع حديثه معه .

ـ ولم لاتذهب الى الوادى الخصب فى أعلا الجبل . لعلك تجد فيه أرضـا واسعة .

ـ اذهب أنت اليه .

ـ أليست فيـه فاكهة كثيرة ورزق عظيم ؟.

– (متهكما) احضر لى بعض فاكهته حين تعود منه .

– لعلك لاتصدق ان هناك واديا كالذى أصفه لك .

وتشاغل عنه الرجل وهو يعمل بفاسه فى الارض وأعرض عنه ولم يجبه بشىء .

ولما راى موسى اعراضه تركه وهو عليه حانق وتابع سيره وحمل متاعه بطرف عصاه ووضعها على كتفه كما يفعل الفلاحون فى مصر . واتخذ طريقه فى واد طويل اخذ يضيق شيئا فشيئا.

وشق على نفسه ما لقيه من الناس جميعا منذ خرج من مصر هاربا . وغضب على نفسه اشد الغضب ان تعرض بفراره هذا الى ألوان من الهوان أنزلها به بدو رحل وصيادون جهلاء . وهذا الفلاح الصغير هزا به وتهكم عليه وحقر امره . وكان قبل فراره اسرع الناس غضبا لكرامته وأشدهم اعتزازا بنفسه . ولم يكن يجهل ان حياته غير طبيعية . مضطربة منذ يوم ولد . عاش فى قصر فرعون عيشة عجبا تختلف عن حياة أهل ذلك القصر كافة. وذكر انه ترك فرعون مختارا . وهو يحسب انه سيجد فى قومه وبين شيعته حياة أقرب الى نفسه ما سيكون فيها من شدة وفقر وعذاب . ثم فعل فعلته وهو يحسب انه انما ينصر مظلوما ، ويحق حقا واضحا . وكان يظن ان ذلك مما لا يعاقب عليه أحد . فلما تبين انه قتل نفسا بغير نفس علم انه أفسد بذلك حياته كلها. وانه أصبح طريدا. لايرجو من الدنيا الا أن يجد عملا يقتات من جزائه مهما يكن حقيرا . ومأوى يسكن اليه . وكبر عليه انه لم يجد شيئا من ذلك حتى الآن . وهو أقل ما يرجوه انسان لنفسه مهما يكن فيه من ضعة وضعف ويأس . وذاق مرارة الذل . ولم يعد له امل يرجوه الا ذلك الامل الواهى الذى تعلق بالوادى البعيد الذى لم يؤمن بعد انه موجود فعلا .

كان يعرف من نفسه الشجاعة اقداما وصبرا . لم يرهب احدا يوما رهبة تمنعه ان يحق حقا او يقوم بواجب أو ينصر ضعيفا او يؤنب ظالما . اما اليوم فقد اصبح جبانا رعديدا لا يفكر الا فى الفرار . واشتد به الخوف فالهاه عن ان يفكر فى أمه التى كانت تعيش مؤملة فيه الخير كله . ترجو أن يعوضها بعض المكروه الذى ذاقته فى حياة مملوءة بالكروب . والهاه عن ان يفكر فى أخته التى حملته رضيعا والقته فى اليم ودلت اهل فرعون عليه غير هيابة لهؤلاء الأسياد . وكان تحدث العبيد الى الاسياد امرا محفوفا بالمخاطر . وكان قومه يئنون من العذاب. وكانوا يرجونه ليوم يستطيع فيه ان يخفف عنهم بعض هذا العذاب بعد أن نال الحظوة عند فرعون نفسه . عرفوا عنه ذلك فباتوا يرجونه للجلى . فلما جاءهم كان قدومه شرا ونذيرا بعذاب أشد لا يعلم أحد مداه .

حين ذاك اشتد به الرعب فلم يفكر الا فى الفرار . وكان يعلم ان فرعون نفسه اقرب الى الطيبة والبساطة منه الى العنف والانتقام . وانه غفر له من قبل كثيرا من سيئاته . ولكن الامر اصبح جدا بعد أن فعل فعلته المنكرة وهو بعد كثير العدو قليل الصديق . ولم يشك انه سيكون من رجال فرعون من يقولون له : ان العبيد اذا علموا ان

قتل السادة أمر يسير فذلك بدء الانتفاض وأول الثورة . والعدل بين عبدين يختصمان أمر يسير لا يكلف السادة عناء . والعدل بين سيد ظالم وعبد مظلوم مكرمة من السادة تسخو بها نفوسهم حين يطيب لهم ذلك . أما العدل أو الرحمة فلا تكون بين عبد ظالم وسيد مظلوم . عند ذلك لا يكون القصد فى الانتقام رادعا . بل يجب أن يكون القصاص بالغا حدا لا يدع أحدا من العبيد يفكر يوما أن يعترض ارادة السيد كائنة ما تكون .

وأصبح طريدا . ولم يكن يدرى أن الطريد لا شجاعة له . وأن الخائف لا عزة له . والطريد لا يستبدل أهلا بأهل ، ولا أرضا بأرض . وانما تنقطع صلته بالحياة حتى تستقر على نحو جديد . وكان من قبل يحسب أن ارض الله واسعة . وأن فيها منأى للكريم عن أن يحتمل الضيم . ولكنه أدرك اليوم إن الارض لها بحياة اهلها صلة خفية غامضة تجعل الحياة مستطاعة مهما يكن فيها من ضير . وتبين له أن الوطن ليس معنى أو رمزا . بل هو حقيقة لا يغنى عنها شىء . وأن السبيل الى الحياة الكريمة لا يكون بالفرار . وقطع الصلة بينه وبين أهله وان كان لبعضهم كارها وعلى اكثرهم غاضبا .

من أين يكون لهذا الفلاح الجاهل وهذا الصياد الغبي فضل عليه وهو العالم الذكى ؟ لهم عليه فضلان . انهم لم يرتكبوا اثما كالذى ارتكبه . ولعل فراره كان فرار المجرم الذى يهرب من نفسه أكثر مما يهرب من العقاب . والفرار من النفس أصعب على المرتكب الكريم من الفرار من العقاب . ولهم عليه ميزة أن لهم بأرضهم صلة ولهم أهلا ولهم عملا ولهم كل مقومات الحياة مهما تكن صغيرة جدا . أما هو فقد فقد كل شىء . ولو علم أنه سيلقى بعض ما اصابه لاختار ان يقيم حيث يلقى جزاء ما عمل . وكل شىء هين على الانسان الا أن يكون طريدا .

***

وتابع سيره وقد اثقلته هذه الهموم . وأخذته الرهبة التى تأخذ اهل السهول حين يسيرون لاول مرة بين الجبال . صخور ضخمة ترتفع الى قمم شاهقة يشعر السائر بينها بضآلته . وللجبال أثر شديد فى الذين لا يعرفونها . أثر يختلف عن اثر البحر فى من لا يعرفونه . فالبحر له قوة وفيه عنف ولكنه لا يخيف الناس ما داموا عنه بعيدين . أما الجبل يفجأهم بما لا يعرفونه عند كل خطوة . هوة سحيقة أو حافة مخيفة أو مرتقى صعب او منزلق غير مأمون .

اضطربت نفسه اول الامر وأزعجه السكون الشامل الذى حوله ثم اطمأن اليه واخذ يألف هذه القمم العالية والوديان الضيقة والصخور الضخمة . واطمأن بعد قليل الى هذه الطبيعة الجديدة عليه . ولم يعد يخشى أن تسقط عليه احدى الصخور المعلقة . أو ان يفترسه قطيع من الذئاب تخرج اليه من جحورها . ولعله أخذ يعجب بعظمة الجبال وتنوع صخورها واختلاف الوانها وأشكالها وما تقطع رؤوس الجبال فى الافق من اشكال تختلف عند كل منعرج . وأعجبه أن تحميه هذه الظلال من حر الشمس الذى ارهقه وهو يسير بين الساحل والجبل .

سار ساعات طوالا فى طريق وعرة

أرضها حجارة صلدة قلقة تضطرب تحت قدميه وارهقه الصعود في هذا الوادي . وأهل السهول يتعبهم الصعود أكثر مما يتعب اهل الجبال . ولهؤلاء أسلوب في الصعود باجسامهم لا بأرجلهم فلا يعييهم تسلق الجبال الساعات الكثيرة. وسمع على مقربة منه خرير ماء يجري من عين صغيرة ثم ينحدر بين الصخور الى غير قرار يراه . وكان الماء عذبا صافيا باردا . روى نفسه منه وغسل يديه وقدميه وهو يحسب أن ذلك يذهب بما فيها من حرارة واحتقان والم . وهو خطأ لا يقع فيه من خبر السير الطويل في الارض القفرة . وعزم ان يقضي ليلته عندها غير نادم ولا قلق .

وخطر له ان هذا الماء قليل حلو . وان ماء الانهار في السهول كثير كدر . وكانما الانسان من الحياة لا يكون الا احدى حالين . حياة قليلة صافية حلوة او حياة كثيرة كدرة . اما الحياة الكثيرة الصافية فلعله لا سبيل اليها . وذكر موسى ما عاناه من الحياة الكثيرة الخبيثة في قصر فرعون . وخطر له انه يكون سعيدا لو ان هذا الماء القليل انحدر الى ارض تنبت نباتا حسنا يأكله وترعاه دوابه ويقيم حوله كما يفعل الفلاح الصغير الذي لقيه أول الطريق . وانه مستعد ان يقنع من حياته بهذا وحده لو تهيأ له. ولكن ذلك الفلاح له رفيقة وأولاد ، يصلون بينه وبين الحياة وأين لطريد مثله ان يكون له ذلك ؟

وكان من قبل لايطيق النساء . شهد منهن في قصر فرعون كثيرات . منهن الشريفات الباهتات المتخاذلات. ومنهن الفاتنات تملأ عيونهن وبشرتهن حرارة الحياة وقوة الرغبة . وكان ينفر من هؤلاء لما يراه في سلوكهن من ابتذال . اما اليوم فهو يحلم بأمنية عزيزة عليه ان يجد رفيقة تهيىء له ابسط الحياة .

وبدأ رحلته في اليوم الثاني مبكرا نشطا سعيدا ثم وعرت الطريق وكثرت الحجارة وشق عليه السير وتعبت قدماه . وطال به المسير وهو لا يرى له غاية. فالطريق طويلة والوديان متشابهة والقمم عالية كعهده بها أول ما بدأ رحلته وكأنها لا نهاية لها . كلما صعد قمة وجد وراءها قمما اعلى وأبعد .

واشتد الجدب حوله فلم يعد يرى للخضرة أثرا . ولم يلق عين ماء واحدة منذ ترك العين الاولى . وازعجه هذا الجدب الذي أحاط به وهو من تعود الخضرة والماء والشجر في مصر . فالجدب عليه أشد وأقسى . ولم يبشره شيء بقرب الوادي الجميل الذي يرجوه . واشتد عطشه ثم وجد قليلا من الماء الراكد في منخفض من الارض وحمله عطشه على أن يعب فيه وهو واضح الكدر تعافه النفس لو أن الى غيره سبيلا .

وقضى ليلته الثانية في فجوة من الجبل تعلوها صخور كبيرة تقيها شدة البرد وصقيع الليل وكان متعبا . ولكنه تعب لم يبلغ حد الانهاك . ومن التعب البالغ ما يشعر بالصحة والقوة . ومنه ماينسي المرء همومه وأفكاره وتشاؤمه فلا يفكر في راحة جسمه من هذا التعب الذي يكاد يكون مريحا لذيذا .

دخل هذه الفجوة وقد ورمت قدماه وتنقلت عن فقاعات كبيرة جعلت السير عليه عسيرا . وجد حوله أعشابا جافة قديمة مما ينبت ويذبل حول الماء الضحل فاوقدها نارا ضعيفة ووضع قدميه أمامها. فوجدها تذهب بألم قدميه وساقيه أكثر

مما ذهب به الماء البارد . ولما احس بالدفء انشرح صدره . وقنع بما يلقاه من راحة لجسمه وعقله .

وأقبلت على النار هوام كثيرة صغيرة. وبعض الفراشات البيضاء الرقيقة . وعجب لذلك اذ كان يحسب أن هذا المكان لا يصلح لحياة الكائنات مهما تكن صغيرة . وكأنما رأى فيها رفقاء غربة تترفق بها . وحزن حين رأى فراشة تقبل على النار فتحترق أجنحتها قبل ان يستطيع انقاذها .

وسطع القمر على هذه الفجوة ففرح به فرحا شديدا . أليس هذا هو القمر نفسه الذى يسطع الآن على مصر . والذى يعلو الآن فى سماء مصر مطلا على من فارقهم من أحبابه وأعدائه . وكأنما وجد فيه ما يصله بالناس والحياة . وخيل اليه أن وحدته الموحشة ليست انقطاعا تاما عن أهله وأصحابه بل استوى عنده اذ ذاك من كان يحب ومن كان يكره فهو مشوق اليهم جميعا .

وأخذت أحلامه تحلو له . رأى فى ما يرى النائم ان احدى فتيات قصر فرعون وكانت تهواه أقبلت عليه . وكان يعرض عنها دائما . أما اليوم فلم يعرض عنها بل تركها تقترب منه وتقبله وهو لا يشيح بوجهه عنها . وطاب له أن يرى فى حلمه وجها جميلا مشرقا وشفتين حمراوين يفتران عن ابتسامة حلوة . وشعرا ناعما . وبشرة بيضاء رقيقة وجسما دافئا يحتضنه وعطفا وحنانا . وكان فى أشد الحاجة الى ذلك كله بعد أن ذهب الجدب الذى حوله ولون الصخر الرمادى القاحل بكل ما يشعره بجمال أو طمأنينة .

وقام من غده يتابع صعوده هذه الجبال التى لا آخر لها . وكان سيره بطيئا وتعبه بالغا . ولكنه كان يعلم أنه سيبلغ الوادى يومه هذا . وساعده هذا الامل على احتمال المشقة والالم . ولما كان وقت الظهيرة وجد نفسه فوق هضبة واسعة مستوية تحيط بها قمم غير عالية . يستطيع من أراد أن يرتقيها . ومال بصره فلم يجد منها مخرجا . وخيل اليه لجهله بطبيعة مسالك الجبال ان هذا آخر الطريق . ولم يكن يدرى أن طرق الجبال قد تكون ضيقة بين صخرتين ولا يكون طريقا واضحا دائما ، وأزعجه أن يكون هذا آخر رحلة . وكان يظن آخر الطريق جنات فيحاء وفاكهة وأشجارا وماء كثيرا جاريا .

وكان قد أرهق عينيه ألوان الصخور القاحلة والحجارة الجافة ووهج الشمس . وبرح بهما الألم وغشيت عينيه فاضطربت لذلك أعصابه . وكان يتمنى اذ ذاك لو رأى ورقة واحدة خضراء أو قطرات من ماء يسيل .

واجتمع عليه التعب والجوع والعطش واليأس . ولما رأى الغاية التى انتهى اليها هضبة مرتفعة قاحلة لا مخرج منها، ولا طريق وراءها خارت قوته وتهافت على أقرب صخرة اليه وتملكه اليأس . ولليأس قدرة على الارهاق لا يبلغها التعب ولا الالم مهما يكن مبلغهما .

وتمثلت أمامه فى تلك اللحظة حياته كلها وما فيها من اضطراب . ومرت أمام مخيلته صورها متتابعة سريعة : طفولة غير طبيعية . كان فيها موضع عطف وحنان من امرأة فرعون يشبهان عطف الامومة وحنانها وليسا منها فى شىء . وحب تقدمت به اليه نساء كثيرات ولكنه حب محدود الغاية معروف أصله وأغراضه . وكان يراه حبا قذرا . وهو

شديد الاحساس بالقذارة يعانيها مهما قيل له عن لذاتها . وصداقة قامت بينه وبين شباب ذلك القصر ممن هم فى مثل سنه ونشأته ، ولكنهـا لم تكن صداقة تامة خالصة . كان موضع ثقتهم دائماً دون أن يكون موضع سرهم أبداً وكانوا يعجبـون به حين يفـوقهم فى الصيد واللعب والفترة . وكانوا يستنصحونه ويتبعون ما يشير عليهم به . حتى اذا هموا بأمر من عبث الشباب كتموه عنه فهم يحبون مالا يحب ولا ينفرون مما ينفر منه كأنهم يعرفون فيه من الطهر مالا قبل لهم به .

علم علم الكهنة فحقر فى عينيه ذلك العلم . رأى أن يقـدم لكبار الكهنة ما يطلبونه من طاعة عمياء وخضوع تام . ثار على تعاليمهم ونفاقهم وخلقهم فغضبوا عليه . وألبوا عليه ذوى النفـوذ فى الدولة ولم يكن شأنه مع هؤلاء خيراً من شأنه مع الكهنة . وكان يكره منهم الذلة والخضوع لمن يعلونهم والقسوة العاتية **على من دونهم مقاما أو جاها أو غنى .**

وكانت ثورته هذه ترضيه من نفسه وهو فى قصر فرعون . أما اليوم فقد تجلى له أثر هذه الثورة . جعلته طريداً . وأحالته جباناً . وتركته يائساً . وليس أمامه بعد جهاده فى سبيل الخلق القويم كما تصوره الا الخيبة . وكان خيراً له لو تخلق بخلق من حوله ، يحيا حياتهم وينعم بما ينعمون به ولو بقدر .

وظن أنه سيجد قوماً آخرين أقرب الى طبيعته وخلقه . وما هو قد أخفق فى تحقيق هذا الامل استدبر حياة القصور التى كرهها . ولم يستقبل الحياة التى يرجوها . وهو اليوم قد جاوز اليأس وأصبح قريباً من موت لايرى منه مفراً .

أيكون تمسكه بنوع خاص من الخلق **الكريم سببا فيما أصابه من شر ؟ . أيكون ترفع الانسان ترفعاً عظيما عمن حوله مؤديا الىعكس ما يراد من الترفع؟**

ولم يكن يريد الا أن يحيا حياة هادئة مطمئنة غير صاخبة مهما يكن ضيقه . وكان يظن أن حياة الناس تضطرب ، يرغبون رغبة عارمة فى أمر لا يستطيعونه فتحيلهـم ذلك على الشطط وليس له شىء من ذلك . غيره يصيبه الشر حين تعتريه غيرة ممن هم أغنى منه أو حقد على من هم اقوى منـه . او تعلق بما لا سبيل اليه ، ولم يقع فى شى من مثل هـذا . فمن اين أتاه الخطأ الذى أوقعه فى ما وقع فيه ؟ .

والناس جميعا يخطئون كثيرا وقـد يكون خطأهم فاحشـا ثـم لا يصيبهم ما أصابه . وهو لم يرتكب الا جرما واحدا حتى قتل مصريا ظالما ولم يكن يريد قتله انما كان يريد أن يمنع شره . فكيف اختص هـو بجزاء فظيع كالذى تعرض له .

وندم على ما تردى فيه بعد جريمته . ونـدم على جبنـه حين فر من الجزاء الطبيعى لما فعل فكان ان تعرض لما هو أفدح.والواقع انه فر من مصر لا جبنا ولا خوفا ولكن حمله على ذلك أن قومه غضبوا عليه وطلبوا اليه أن يرحل عنهم حتى لا يحمل الابرياء منهم مغبة الذنب الذى ارتكبه .

ولما ذكر قومه أحزنه ماهم فيه من ذل وبؤس وما يتعرضون له من ظلم . على أن شيئا برح به أكثر من تعرضه للموت القريب . ذلك أن قومه علقوا عليه آمالا كبارا فخان آمالهم كلها . ولم يبك لشىء مما أصابه حتى سـاعته هذه . ولكن

عينيه دمعتا حين ذكر آمال قومه فيه • ظنوا فيه القوة فلم يجدوا الا الضعف ووثقوا بحكمته وعلمه فتبين له ولهم أنه ليست به حكمة ولا علم • وكان أقسى شيء عليه فى هذه الساعة المظلمة ضياع آمال المؤملين فيه الى غير رجعة • وأنه لن يستطيع أن يكفر عن هـذه السيئة أبدا •

ومرت ساعة حسبها عمرا

ثم مرت ساعة حسبها دهرا

وغلبته غريزة البقاء فتحامل على نفسه ليقف • وعزم أن يعود أدراجه وأن ينزل من فوق هذه الجبال فيعود الى الفلاح الصغير الذى لم يأبه له • بل تمنى أن يعود الى الصيادين الذين كرهوه بل لم ير بأسا أن يعود الى قومه الذين رغبوا أن يفارقهم • ولعله كان يقبل اذا اشتد به الحال أن يعود الى فرعون يستسلم له ليقتصوا منه كما يشاءون •

وتقدم بضع خطوات • تبين له عند ذلك أن النزول أصعب من الصعود • ووجد نفسه يخطىء التقدير فى خطاه • فهو يحسب أن الخطوة النازلة أقرب أو أبعد مما هى عليه فى الواقع فكان ينزل بعنف على الصخرة القريبة • ويظن الصخرة البعيدة قريبة فتزل قدمه •• وتعب من ذلك تعبا شديدا • وبينما هو واقف يريد أن يقدر خطوته التالية تقديرا صحيحا وقع (من طوله) ووجد نفسه منكبا على وجهه • ولم يكن ذلك اغماء ولا زلة قدم وانما كان خور الهزيمة واضطراب النفس • ولما لم يقو على النهوض عرف أن من العبث أن يحاول النجاة بالنزول .

وأيقن أنه هالك لا محالة فى مكانه هذا • وكأنما أخذ يؤبن نفسه . وخيل اليه إنه من العار أن تبقى جثة فى العراء • وهو ممن نشأوا على العناية بجثث الموتى الى حدبناء أهرام تقيها البلى • وتوابيت ضخمة تحميها من الفناء • وعز عليه أن يبلى جسمه على هذا النحو وود لو استطاع أن ينقش على حجر بجانبه رجاء الذئاب ـ ان كان فى هذه البقعة ذئاب ـ ألا تنهشه • أو توسلا الى الطيور الجارحة ـ ان كان منها من ضل طريقه فى الهواء فبلغ هذا المكان كما ضل هو الطريق فى الارض ـ أن تتعفف عن هـذا الجسم الذى كان كريما جميلا وكان موضع آمال الناس وحبهم فلا يتخطفونه • ولكن أين له أن يأمر الامطار والرياح أو يرجوها أن الا تذيبه وتكتسح ما يبقى منه الى أسفل الوادى فينتهى امره الى الابد الا جمجمة خربة وعظاما هشة وهو ما كان يخشاه المصريون أشد خشية •

ثم استطاع أن يجلس • وبينا هو فى وسط هذا السكون المظلم وهو فى رابعة النهار سمع صوت رنين جرس صغير • سمعه بعيدا خافتا • ولم يتبين حقيقته • وحسبه من تصورات الذهول الذى يعترى المشرفين على الموت • ومضت مدة حسبها طويلة جدا وهو يصيخ الى الفضاء يلتمس أضعف الاصوات • ثم سمع الصوت نفسه أقرب اليه وأقوى وتساءل ماذا يكون هذا الصوت • انه من غير شك ليس صوت الرياح حين تمر فى الفجوات الضيقة بين الجبال • بل هو صوت جرس لا نزاع فيه • ثم سمعه قريبا قويا • والتفت وراءه فاذا بالصوت يصدر عن جرس صغير معلق فى رقبة ماعز صغيرة تنظر الى غير وجهته ثم أخذت تتلفت يمنة ويسرة وهى فوق

من الأدب الصيني القديم

ذئب تشنجشان

للكاتب هيسيا ليانج

ترجمة : منيره عبد الجواد دكروري

فى احد الايام ، وفى كثير من الصخب والضجيج ، خرج البارون تشاو للصيد فى جبال تشنجشان ، تصحبه مجموعة من كلاب الصيد ، وصيادون محترفون مسلحون بحراب وسهام ، وبعض نسور الصيد المدربة ، وفى الطريق ، راى البارون ذئبا يقف على مسافة قريبة عند مفترق الطرق تماما . كان الحيوان يقف على رجليه الخلفيتين ويعوى كانما ليجتذب الانتباه اليه ، وهكذا أصبح هدفا ملائما فاطلق البارون سهما أصاب الحيوان وجرحه ، ولكنه استطاع الهرب فطارده الصيادون ، ودوت الغابة بصيحات الرجال وكلاب الصيد وارتفعت سحابة من الغبار ، ساعدت الحيوان على الهرب .

فى هذه اللحظة ، كان السيد تونجكيو فى طريقه الى تشنجشان ممتطيا حمارا هزيلا ولايحمل سوى حقيبة تحتوى على كتبه وملابسه القليلة . والسيد تونجكيو هذا احد الموتسيين ، اتباع موتسى ، ذلك المذهب الدينى الذى كان مزدهرا آنذاك ، والذى يتميز أتباعه بحياتهم الصارمة التى تدعو الى التضحية بالنفس والانصراف الى خدمة زملائهم من بنى البشر ، واخذوا يبشرون بالحب العالمى . محاولين هداية الملوك والارستقراطيين والاناس العاديين بحماسة متعصبة وكرسوا أنفسهم لحياة فقيرة مغامرين بأرواحهم فى كثير من الاحيان لمساعدة الآخرين وسعادتهم .

سمع تونجكيو الضوضاء والاضطراب ثم راى الذئب الجريح يجرى مندفعا تجاهه والصيادين يجدون فى أثره ، وما ان راى الذئب الموتسى ، حتى عوى فى ألم طالبا المساعدة ، فهزت الشفقة قلب تونجكيو اذ رأى السهم مغروزا فى ظهر الحيوان المسكين وقال له :

ــ لاتخف ، سأنزع السهم منك .

فصاح الذئب :

ــ اوه ، أنت موتسى ، انك رجل طيب ان الصيادين يجدون فى أثرى ، دعنى اختبىء فى حقيبتك حتى تنتهى المطاردة

وسأظل معترفا بجميلك الى الابد اذا انقذت حياتي .

ــ لماذا ورطت نفسك في هذه المشكلة أيها الذئب المسكين ! انك في حاجة الى قليل من الحكمة ، هذا هو كل ماينقصك وعلى أية حال ادخل الحقيبة بسرعة ولاتتحدث عن العرفان بالجميل ، انى لمسرور أن أقوم بما أستطيع تجاهك .

ثم نزع الموتسى الاشياء من حقيبته واخذ يحشر الذئب بها ، ولكن الذئب كان بالغ النمو والحقيبة أصغر من ان تسعه ، فاذا ادخل راسه اولا ، بقيت ارجله الخلفية وذيله الكث خارج الحقيبة واذا ادخل ذيله اولا ، لم يكن يستطيعان يحشر مخالبه الامامية وراسه دون ان يكسر رقبته ، حاول واعاد المحاولة بكل وضع ممكن ، ولكن دون اى نجاح ، واخيرا صاح الذئب في الموتسى :

ــ أسرع ! ان المطاردة تقترب ، هيا اربطني .

وتكوم الذئب على الارض وترك الموتسى يربط جسده ، وارجله في حزمة واحدة واخيرا ، وبكثير من الضغط والحشر ، افلح تونجكيو في ادخال الذئب في الحقيبة ووضعها على ظهر الحمار .

نظر تونجكيو حوله فوجد أن الذئب قد خلف على الارض آثارا ونقطا من الدم تنز من الحقيبة ، بل واكثر من ذلك راى يديه هو نفسه قد تلطختا بالدم ، ففزع ، وباسرع مايمكنه غطى الآثار ومسح يديه وادار الحمار حتى يمكنه اخفاء الحقيبة . وعندما وصلت الجماعة ، سأله البارون ما اذا كان قد راى ذئبا فرد تونجكيو بهدوء :

ــ كلا ! ان الذئب حيوان ماكر ، وما كان ليسلك هذا الطريق ، لابد انه مختبىء في مكان ما في الغابة الواسعة .

حدجه البارون وضرب على سيفه الذى في يده وقال :

ــ اذا حاول احد ان يساعد الحيوان على الهرب فسيدفع الجزاء غاليا مقابل ذلك .

وبهدوء امتطى تونجكيو حماره ولوح مودعا للبارون وهو يقول :

ــ اذا رايته في اى مكان فسأحيطك علما ، واتمنى لك حظا سعيدا في الصيد .

وعندما تلاشى وقع حوافر جياد جماعة الصيادين ولم يعد الذئب يسمع اصواتها ، صاح من الحقيبة .

ــ اطلقني بسرعة ! انى أكاد اختنق !

وفي الحال ، نزل الموتسى من على حماره وساعد الذئب في الخروج من الحقيبة وفك وثاقه ولمس الجرح برقة وسأله :

ــ أما زال يؤلمك ؟ انى خائف من اجلك :

ــ كلا ! ان الجرح مجرد خدش طفيف ، والآن ، وقد انقذت حياتي ، اتتكرم على بجميل آخر ؟

ــ سيسرني جدا أن أؤدى لك أى عمل يكون في مقدوري ، فأنا موتسى كما تعلم ولن يستطيع انقاذ العالم الا مبدأ الحب فقط . ماذا تطلب منى ؟ انى تحت أمرك .

ـ حسن ، انى جائع ـ ولم اذق طعاما منذ ثلاثة ايام ، واذا مت هـذه الليـلة فانك تكون قد انقذت حياتي هباء ، لما لاتدعني آكلك ؟ مجرد بعض التضـحية بالنفس كما تعلم ، فانا لا اطلب كثيرا ، هل اطلب كثيرا ؟!

وقفر الذئب فاهه واشرع مخالبه وتحفز للانقضاض عليه ، ففزع توتجكيو واندفع بسرعة الى الجانب الآخر من الحمار وهو يرتعد خوفا على حياته وقال محتجا :

ـ انك لا تسطيع ! لا .. لاتستطيع ان تفعل هذا !

ـ لم لا !؟

ـ لاتستطيع ، لقد انقذت حيـاتك منذ لحظة وجيزة .

وبدأ كل منهما يطارد الآخر حـول الحمار الذى اربكه هذا الشجار والنقاش للغاية .

وقال الموتسى مخاطبا الذئب من فوق كتف الحمار :

ـ والآن كن منطقيـا ! لا فائـدة من مناقشتنا ومحاولتنا فض النزاع بالقوة لن أقتنع بانك على صواب حتى لو انك نجحت فى تقطيعي اربا ، وسيؤلمك ضميرك الا تراه سيؤلمك ؟ اظن انه يهمك ان تتأكد عندما تأكلنى انك انمـا تفعـل الشىء الصواب .

فعوى الذئب قائلا .

ـ بالطبع ، ولكنى جائع ومتعب من هذه المناقشة .

ـ اذن دعنا نفض هذا النزاع منطقيا ،

اقترح ان نخضـع للتحكيم ، وحسـب العادة نسأل ثلاثة من كبار السن ليقرروا ما اذا كان الحق فى ان تأكلنى أم لا ، مع مراعاة حقيقة انى أنقذت حياتك .

فأجاب الذئب :

ـ حسن ، حسن ، ولـكن لاتـكن مسهبا ، انى مقتنع ان الله قد خـلق الرجال لتأكلهم الذئاب ، اننا أسمى جدا بالقياس لجنسكم ، انت لاتستطيع حماية نفسك ، انتم جنس منحط ، هـذا هو انت !

وسارا معا فى الطريق ، ولكنهما لم يقابلا اى شخص ، اذ كانت الدنيا قـد بـدات تظلم ، وقال الذئب مشـيرا الى أرومة شجرة عجوز على جانب الطريق .

ـ انى فى الواقع جدجوعان ولااستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، دعنا نسأل هذه الارومة .

ـ انها مجرد شجرة ، ماذا تعـرف هى ؟

ـ اسألها وستخبرك .

فانحنى الموتسى للأرومـة العجوز واخبرها أنه قد أنقذ حياة الذئب معرضا حياته هو للخطر ثم سألها :

ـ خبرينا ، هل من العدل فى رأيك ان يأكلنى الذئب ، هل هذا يعد عرفانا بالجميل ؟

فاطلقت الشجرة صوتا ضخما هادرا وقالت :

ـ ياسيدى الفاضل ، انى افهم ماتعنى انت تتحدث عن العرفان بالجميل ، دعنى اخبرك بقصتى ، انا شجرة مشمش ، عندما غرسنى البستانى لم اكن سوى

بذرة ، وفى خلال سنةازهرت . وفىخلال ثلاث سنوات أثمرت ، وفى خلال خمس سنوات كان جذعى فىحجم الذراع ، وفى ظرف عشر سنوات كان فى حجم كرش الطفل . والآن بلغت العشرين ، وطوال حياتى وانا أطعم البستانى واصدقاءه ، بل انه كان يبيع بعض ثمارى فى السوق وكون منها ثروة ، والآن يرى البستانى انى عجوز ولاأستطيع الاثمار ، فنزع أوراقى وقطع اغصانى ، ونشر أطرافى ليتخذها وقودا ، ولم يكتف بذلك ، فقد سمعت أنه سيبيع مابقى منىخشبا ليشقق وينحت ، حسن ، هذههىالحياة فلماذا لاياكلك الذئب ؟

فصاح الذئب فى سرور عظيم وهو يستعد للهجوم على تونجكيو :

ــ هاهى ذى روح حكيم تتكلم .

فقال تونجكيو :

ــ انتظر ! مازال علينا أن نسمع رأى اثنين مسنين آخرين علاوة على ذلك .

ــ ليكن ماتقول ، ولكن يجب انأقول لك ان رائحتك تبدو لى اشهى الآن مما كانت فى اى وقت مضى .

وسارا لمسافة قصيرة ثم التقيا بجاموسة تستند على سور قديم وتبدو جد متعبة من الحياة فقال الذئب :

ــ سلها ، انى متاكد انها قد تعلمت الكثير من الحياة .

وفى الحال اخبرها الموتسى بقصته وسالها حكما عادلا ، فنظرت اليه الجاموسة ببرود بينما هو يفكر باستخفاف ، فكرت الجاموسة لحظة ولعقت لسانها ثم اجابت :

ــ ان ماخبرتكم به شجرة المشمش صواب ، انظر الى ، انى عجوز ونحيفة، واموت من الجوع ، كان يجب أنتربانى عندما كنت صغيرة ، لقد اشترانى أحد المزارعين من احد الاسواق وجعلنىاعمل فى مزرعته ، كانت البقرات الاخريهرمن واقوم انا بمعظم العمل ، كان المزارع يقول انى المفضلة لديه . وعندما كان يذهب الى اى رحلة من رحلاته كان يسرجنى ، وعندما اراد أن يعمر ارضا مجدبة حرثتها له وجعلتها أرضا خصبة تمكن زراعتها ، وفى موسم الزراعةكنت اخوض فى الوحل ، وفى موسم الحصاد كنت أعمل فى الطاحون ، لم أشفق على نفسى وكنت أقوم بعمل عاملين أو ثلاثة فتحسنت حال المزرعة والمزارع نتيجة لكدى وكدحى فقد كان طعامه ولباسه والنقود التى يدفع منها ضرائبه ، كل هذه النقود جاءته منى ... والآن ! لقد صار فى امكانه اضافة جناح جديدلمخزن غلاله ، وزوج ابنه واصبح يحيا حياة مريحة كالنبلاء ، يحيط به ابناؤه واحفاده ، ليتكما رايتماه عندما جئت الى بيته ، لا .. لاتتحدث عن أدوات المائدة،لماذا ؟!! لقد تعود أنيأكل فىأوان وأطباق وملاعق من الفخار ، والآن ، ان لديه قوارير من الخمور فى مخزنه .ماذا صنعت انت للذئب ولم أصنعه انا لأسرة المزارع ؟ ولكن زوجته تظن انى عديمة الفائدة ، انى عجوز ، وهذا كل مافى الامر ، وتدعنى أتسكع فى الخارج واناما فى العراءمعرضة للرياحوالبرد . وهاأنت ذا ترانى واقفة هنا محاولة الحصول على قليل من دفءالشمس ، ولكنعندما يأتى الليل ، فانى اصير وحيدة ، ومع ذلك لمأهتم ، فكل واحد يهرم ، ولكنى

سمعت زوجة المزارع تقول انهاستبيعنى للجزار ، فلحمى يمكن حفظه وجلدى يدبغ اما حوافرى وقرونى فيمكن نحتها ونقشها وصنع بعض الادوات المفيدة منها ، آه ، هذه هى الحياة ، لاتحدثنى عن العرفان بالجميل ، انى لا ارى سببا واحدا كى لاياكلك الذئب .

ومرة ثانية استعد الذئب ليغرز اسنانه فى ذراع الموتسى ، ولكن تونجكيو قال :

ـ كلا ! ليس الآن ، لقد كنت صبورا فدعنا نسمع ماسيقوله العجوز الثالث طبقا لاتفاقنا .

وفى الحال رايا شيخا مسنا يسير على عصا مقبلا نحوهما . كان العجوزذا لحية بيضاء ، ويبدو كقديس فسر تونجكيو لوجود آدمى واسرع نحوه يرجوه أن يفض هذا النزاع بينه وبين الذئب .

ـ أرجوك ، كلمة واحدة منك ستنقذ حياتى ايها العم العجوز .

واستمع العجوز الى القصة ثم قال وهو ينظر الى الذئب بعيون غاضبة .

ـ ياله من نكران للجميل ، أتعرف أن الشخص الناكر للجميل سيكافأ فى كهولته بابن عاق !!!! سيكون لك فى يوم من الايام ابن ، وسيكون قاسيا عليك على الرغم من كل مافعلته له ، اغرب عن وجهى والا قتلتك .

فقال الذئب فى توسل .

ولكنك لم تسمع قصتى بعد ! من فضلك استمع لى ! لقد كتفنى الموتسى وحشرنى فى حقيبة بالغة الضيق حتى كدت اختنق وظننت انى على وشك الموت ، ليست لديك فكرة كم أنا متعب داخل الحقيبة :

فقال الشيخ :

ـ فى هذه الحالة يجب ان يلام الموتسى

وبدات المناقشة من جديد فقال الشيخ :

ـ لاادرى لمن منكما استمع ؟ ولا من اصدق ؟ تقول انك انقذت حياة الذئب ، والذئب يقول انك آذيته ، والطريقة الوحيدة للحكم من منكما على صواب ان ارى تصويرا فعليا للحادث ، سأرى بنفسى الوضع المتعب الذى جعلك الموتسى فيه داخل الحقيبة .

فقال الذئب :

ـ سترى

وسمح لهما أن يقيداه ويحشراه داخل الحقيبة وهمس الشيخ للموتسى .

ـ الديك سكين .

فقال تونجكيو فى حيرة .

ـ نعم

ـ حسنا ؟!

ـ انك لاتطلب منى ان اقتل الذئب ! اتفعل !

ـ كما تشاء ! اما ان تقتله او يقتلك هو . بالك من اخلاقى غير عملى ! وبينما هو يقول ذلك ، ساعد الموتسى فى تمرير السكين على الذئب فى الحقيبة مماوضع حدا للمناقشة .

حنان



بقلم السيدة صوفي عبد الله

انحسر الموج عن الشاطىء ، واندفعت الطفلة الصغيرة الجميلة بكل حيوية الطفولة البريئة ، اندفعت تجرى وهى تتعثر فى خطاها تسبقها صرخاتها المرحة ويداها ممدودتان كانما تستعطف الموج أن يعوده وفزعت الام الشابة فأسرعت تصيح خلفها قبل أن يدركها المد مرة ثانية :

ـ حنان ... ارجعى ..

ورفعت سيدة نصف عينيها عن شغل التطريز الذى فى يدها ، وكانت تجلس أمام كابينتها على بعد خطوات قليلة . رفعت عينيها تتطلع الى الام الشابة والطفلة السعيدة المرحة . وانطلقت من صدرها أنة جريحة وتمتمت تحدث نفسها :

ـ حنان ... ياله من اسم !

وغامت عيناها خلف قطرات من الدموع ترقرقت ثم انحدرت فوق خديها الغائرين ، فرفعت يدها تتحسس وجهها وتزيح خصلة من شعرها تهدلت على جبينها ثم عادت تحدث نفسها من خلال دموعها .

ـ ترى كيف أصبحت الآن ابنتى أنا ... حنان ؟!

وتدفقت عذوبة الذكريات فانتشلتها من حاضرها عبر ستة عشر عاما ـ وعلى شاطىء آخر ، شاطىء شعبى ، كانت تجلس وبجانبها مدحت وأمامهما طفلتهما حنان فى سلة كبيرة مما تحمل فيها الاطفال الصغار ... كانت فى شهرها الثالث ، جميلة ، يانعة ، كالزهرة المتفتحة ... ولكن شيئا فيها لم يكن طبيعيا : صمتها المطبق وعدم تمييزها لمن حولها من الاشخاص والاشياء ! .. لم تكن تعرف أمها. وهى أول من يتعرف عليه الطفل ! .. ولا أباها ! .. كل الاشخاص حولها سواء ! ..

كانت حنان طفلتها الأولى بعد زواج دام خمس سنوات.زواج أقل مايوصف به أنه حلم كل عذراء . فمدحت زوج توافرت فيه كل مميزات فارس الاحلام. رشيق أنيق عطوف حبيب الى النفس مريح للأعصاب . وهى تعبده من دون الله . وترى فيه زخر أيامها وجنة حياتها .. وحنان . طفلتها المعبودة . لكم هفت نفسها الى الاطفال مدى الخمس سنوات . ولكن مدحت لم يكن يريد رغم حبه الشديد لهم ... لم يكن يريد أن يكبل نفسه بطفل وهو يعبد حياة

الانطلاق· حياة التحرر من كل الالتزامات التى تعـــوقه عن الاستمتاع بمباهج الحرية · والاطفال قيد ، ولو كانوا قيدا من حرير ، ولكنه لم يستطع الصمود أمام الحاحها ·· وجاءت حنان ·

وحمل الهواء اليهـــا صوت حنان · الطفلة المرحة السعيدة وأمها تلعب معها بالكرة على الرمال ، ثم تجرى خلفهـــا فتدركها والطفلة تقفز وضحكاتها تمـلأ الجو ···

لكم هفا قلبها الى هذا الدور من سنى الطفولة العذب لابنتها حنان ، لكنها لم تدركه ··· لم تدركه لأن حنان ابنتها لم تكن كبقيـــة الاطفال ! كانت تأكل وتنمو وتزداد جمالا ويكتسى وجههـــا بحمرة العافية · ومع ذلك لا تتكلم ولا تتحرك ، ولا تناديها بأعذب لفظ حلمت به فى حياتها · لم تقل لهـــا ماما لأن قدرة التمييز كانت تنقصها ، ولم تلفظ كلمة بابا لأن ادراكها كان قاصرا تماما ··· بل كان معدوما ! ·

وأصبحت حنان الغصة التى يشرق بها حلقاهما ! ·· أصبحت نكبة حياتهما من حيث أراداها فرحة وحدتهمـــا ··· لم ينفع معهـــا طب أو دواء · وأجمـع الاطباء أنها ستعيش وتكبر ولكن عقلها سيظل متخلفاً ! ··

ووضعت يديهـــا على عينيها تحجب الذكرى المرعبة وأحست نفسها تنسلخ من حاضرها ؛ وتمتمت بتوسل :

ـ مدحت · أريد طفلا آخر ···أريد طفلا يشعرنى بأمومتى ···

وسمعت صوته أقرب الى البكاء :

ـ كيف ! ؟ كيف يمكن أن تخطـــر ببالك هذه الرغبة القاسية ؟ ·

وأجابته فى ضراعة :

ـ ان حنـــان لا تعرفنى ، وأنا أريد طفلا يعـــرفنى يا مدحت · ويـنـــادينى ويتجاوب معى ···

وتحشرج صـــوته بدموع يحـــاول جهده أن يحتجزها :

ـ ان حنـــان محتاجة لـــكل حبنا ورعايتنا ··· ان حنان عاجزة وأى طفل آخر سيسلبها حبناً وحناننا ···

ـ صاحت فى لهفة :

ـ لا تقل هذا · ستكون حنـــان دائما فى المكان الأول من نفوسنا ، ومهما كان طفلنا الثانى فلن يستطيع أن يحرمهـــا من حناننا ·

ـ هذه محض تخيلات ··· لقد لمست بنفسى كيف يحرم مثلها من الرعاية اذا وفد على الأسرة طفل جديد ···

وقالت فى عتاب :

ـ لسنا نحن يامدحت ممن يتصرفون هذا التصرف الجائر ··

ـ انت واهمة يارجاء · وكلامك محض تخيلات ·· ولن أسمح لك بالخوض فى هذا الموضوع بعد الآن ·

وجثت على ركبتيها وراحت تستعطفه بدموعها :

ـ أرجوك يامدحت ، أتوسل اليك ، لا تحرمنى من اللذة الوحيدة فى الحياة ··· لا تحرمنى من الامومة ···

وصرخ فيها بيأس :

ـ ان كلامـك كخنجـــر يطعننى فى صدرى ·· أليست حنان ابنتك ؟! كيف تقولين اننى حرمتك لـــذة الامومة ؟! أتنكرين عليها بنوتك ؟ ! ·

ـ انها ابنتى يامدحت ولكن أمومتى معطلة بالنسبة لهـا ... ان شعور التجاوب بينى وبينها معدوم ! .. انها لا تعرفنى !!

ـ وهل هذا ذنبهـا ؟ ! أما يكفيك مابها حتى تريدين حرمانها من عطفك لتغدقيه على طفل آخـر فيكبر معهـا احساسها بالاضطهاد من القدر ومنك أيضا ؟!

ودفن رأسه بين يـديه مستندا على ركبتيه فى يأس مر ، وخرج صـوته كالأنين :

ـ رجاء . اعقلى ، والا كانت نتيجة تصرفاتك وبالا علينا .

وقالت فى لجاجة :

ـ ولنفرض أنها استمرت على هـذا الحال ... ألن تفكر ...

ولم يدعها تتم بل صاح وقد تملكه غضب شديد :

ـ نعم لن أفكر فى طفل آخر قبـل أن أراها قادرة على خدمة نفسها وفى غنى عن كل انسان .

وفى صوت هامس قالت :

ـ هل هذا قرارك الأخير ؟

وأجابها بحزم :

ـ نعم . هذا قـرارى الأخير ولن أتراجع عنه مهما حدث ..

واحست بجمر نار يحرق صدرهـا وزفرت بحرقة : ترى كيف أصبحت ياحنان ؟ وشدتهـا الذكرى وهى ترى الشهور تمر وحنان تزيد فى فجيعتها ، نعم :

فجيعتها هى ، فان كان يأسه من عدم تقدمها للشفاء وحزنه على مصيرها يعد فجيعة ، فان ألم حرمانهـا من الامومة وعقارب الغيرة التى تلدغ أحشائها كلما سمعت طفلا ينادى على أمه .. هـذه الأحاسيس كانت تدنو بعقلها شيئا فشيئا نحو النهاية ! .

وبدا عامها الثالث وهى طريحة على ظهرها حتى الحركة لا تستطيعها ، شىء واحد هو الذى تقدمت فيه صـوت كالصراخ تفتح به فمها اذا تلكأوا فى اطعامها ثم تدير نظرها فيما حولهـا وترفع يدها وتضعها فى فمها وتحدث غرغرة .

ووصلت الأزمة برجاء الى منتهـاها ، فاختلت بمـدحت ذات مسـاء وكانت خلواتهما نادرة ، وسالته وهى تحاول أن تدخل على نبرات صوتها شيئا من الليونة والانكسار .

ـ علام عولت يامدحت ؟

ولم يجبها بل رفع عينيه عن الجريدة متسائلا بعينيه :

واحست بشجاعتها تخونها تحت وقع نظراته . فتشـاغلت بوضع صحاف الطعام أمامه على المنضـدة الصغيرة . وخرج صوتها مرتجفا :

ـ ألم تصل الى حل ؟

وأجابها فى دهشة :

ـ حل ؟ لمه ؟

ـ لقد تقدمت الحال بحنان وأظنهـا أحسن كثيرا الآن .

وانتظرت أن يرد عليها ـ بأى كلام ، ولكنه تشبث بالصمت . فأردفت بسرعة وقد احست بشـجاعتها على وشك أن تخونها :

ـ ألم يؤن الأوان بعد ؟

فأجابها ببرود:

ـ أوان ماذا ؟

وغاظها بروده وأمدهـا ببعض القوة وارتفع صوتها قليلا وهى تقول :

أوان انجاب طفل ·

وبنفس البرود القاتل قال :

ــ كلا ·

وأحست لبروده مخالب تنزع قلبها من بين ضلوعها فانفجرت فى يأس :

ــ اذن طلقنى ·

وكأنما نزلت على نافوخه بقضيب من حديد ، فاتسعت عيناه وبرزت ونفرت عروق رأسه ، وجف حلقه ، وخرج من بين شفتيه شبه فحيح :

ــ أطلقك ؟!

ــ نعم لأحقق أمومتى المعطلة من زوج آخر ·

وألجمت صراحتها لسانه فراح ينظر اليها غير مصدق واستدركت هى :

ــ مادمت تبخل على بهذه الرغبة التى تقتلنى ببطء فلن أعيش معك ·· ان حبك وحنانك كله قد تحولا الى ابنتك حنان وليس لى مكان فى نفسك ··لقد كرهتنى يامدحت ·· كرهتنى لدرجة أنك تضن علىّ ببعض السعادة التى تملكها أنت ولن تكلفك شيئا ! ·· قلت لك ألف مرة ان سعادتى فى الامومة وقد حرمتنى منها · فلا أقل من أن أبحث عنها مع آخر ! ·

وكأنما كلماتها هى القشة التى طفحت بكيلّ همومه فصرخ وقد انفجرت ينابيع حقده جميعا :

ــ أيتها المجردة من كل عاطفة ، ياجاحدة ، ياقاسية اليك عنى · اذهبى ·· تزوجى ·· انجبى ·· أما أنا فسأعيش لابنتى · واسعدى أنت بحياتك فليس لك بعد الآن موضع فى بيتى ···

وسقطت يداها من فوق عينيها اللتان غاصتا فى البحر أمامها ، ولم تبك ·· لم تسقط دمعة واحدة من عينيها · كانت أحشاؤها تبكى ···

نعم لقد تزوجت ولكن الله حرمها من الانجاب ·

وأحست بحركة عجلات تمر بالقرب منها فوق الارض المرصوفة فالتفتت بطرف ذابل فاذا بعينيها تصطدمان بشابة جميلة يانعة ، ممتلئة الجسم ، فارعة الطول ، تجلس فوق كرسى ذى عجلات مستندة الرأس على وسادة مثبتة على ظهر الكرسى ، وعيناها لا تطرفان ! ويداها راقدتان فى حجرها فى استسلام ومن خلفها رجل طويل نحيف أسمر اللون أبيض الشعر فى لون الثلج يدفع الكرسى ببطء بينما تسبح عيناه فى الفضاء اللانهائى غير عابىء بما حوله من عجيج الحياة ! ···

وألجم فاها ·· لم تصدق نظرها ·· أصابها ذهول ·· ولم تفق الا والعربة قد اختفت عن ناظريها ، وصاحت فى يأس :

ــ حنان ··· ابنتى ·

وسمعتها حنان هى الاخرى·· الجميلة الصغيرة ، والتفتت اليها وقذفتها بالكرة وهى تصيح فى نشوة ثم جرت رافعة يديها نحو الموج المنحسر تحاول أن تستوقفه فاسرعت اليها بالكرة وقد غشت عينيها الدموع ولكن الصغيرة حدقت فى وجهها المتقلص ثم جرت منها مذعورة وارتمت فى حضن أمها ···

حقل البطيخ

بقلم : محمود البدوى

كانت قرية « العمارنة » مشهورة بحقول البطيخ .. وكانت تزرع أجود انواعه واحلاها على الاطلاق .

وتقع الحقول فى ارض رملية على سيف النيل .

وكانت الارض ملك الحكومة وتؤجرها لأحد الاثرياء بايجار قليل .. ولنفوذه وسطوته استغلها ابشع استغلال واخذ يؤجرها للفلاحين بعشرة أضعاف القدر الذى يدفعه ، وقسمها الى قطع صغيرة ليسهل عليه توزيعها على أكبر عدد منهم بايجار مرتفع .

وكان يسلط عليهم سوط العذاب فاذا تأخر أحدهم عن السداد يوما واحدا حجز على المواشى والمحاصيل .. وفى كل مطلع النهار يرون وجه الصراف ودفاتره واوراقه .

وكان الامل يلوح فى افق حياتهم بعد كل ثلاث سنوات فيسمعون ان الارض ستؤخذ منه وتعطى لغيره ... فيشعرون بقرب الخلاص .. ولكن الزمن كان يخيب آمالهم دائما فتعطى له الارض من جديد بمزاد صورى يعمل فى البندر .

وظللت الحال هكذا حتى يئس الفلاحون .

ولم يتنفسوا الصعداء الا بعد أن قامت الثورة وطرد هذا الثرى من الارض ... ووزعتها الحكومة عليهم فاعطت فدانين لكل أسرة .

وللمحظوظ منهم من وقع نصيبه فى الارض على الساحل .. لانه زرعها بطيخا والبطيخ يأتى للفلاح بدخل طيب .

وكانوا يبكرون فى الزراعة قبل ان يرتفع مستوى الماء فى موسم الفيضان فيأكل الزرع . ويجيدون تخطيط الارض ... فتبدو الحقول المزهرة فى خطوط مستقيمة .. كأنها خطت بالمسطرة على لوح من الورق .

والمشاهد للمزرعة من المارين تحتها فى المراكب والصنادل كان يؤخذ بجمالها ويرى أنها من المزارع النموذجية .

وكانت تمد الاسواق فى منطقة الصعيد بأجود أنواع البطيخ واعذبه حلاوة .

وكانت الكلاب الكبيرة تحرسها ولكل حقل خصه وكلبه .

ووراء هذه الحقول في الارض العالية يقوم بستان كبير من شجر النخيل والنبق والسنط .. وخلف هذا الجسر العمومي ..

ومن الجسر تأتي العربات وتحمل البطيخ الذي يتكوم في طرف من البستان .. كان بمثابة السوق لهؤلاء الفلاحون وفيه يتعاملون مع التجار ...

وفي شهر يونيه من كل عام يبدأ قطف الثمار الناضجة.. فترى الفلاحين في الصباح مبعثرين في الحقول .. وأيديهم تضرب على البطيخ قبل قطعه من العريش فاذا استوى في نظرهم ..

وتحت سمعهم بعد جسه باليد .. قطعوه وكوموه .. وحمله الصبيان على ظهور الحمير والجمال الى الجسر .

وكانت القرية على مبعدة ثلاثة فراسخ من المزرعة ..

وتبدو في موسم البطيخ مهجورة .. لان الحياة كلها تتحول الى جانب النهر ..

***

وكان حقل عبد الغفار يأتي بأجود المحاصيل اطلاقا في هذه المنطقة ..

وكان عبد الغفار يزرع البطيخ والشمام عن خبرة ويقصر زراعته عليهما فاشتهر بهما وأجاد .. وكان ودودا وطيب القلب وأمينا ويتفانى في خدمة الناس.. فأحبه الفلاحون وعهدوا اليه محاسبة التجار وأخذ الثمن منهم وتوزيعه عليهم كل حسب حصته .

وكان له اربعة من الابناء الاشداء أصغرهم في العشرين من عمره وفيهم كل صفاته فساعدوا والدهم في عمله وجعلوا «خصه» أجمل خص في المزرعة .. وبمثابة منتدى للفلاحين جميعا ..

فكانوا يتجمعون حوله في العصارى .. ويتحدثون في شئونهم ومشاكلهم .. وهم يشربون الشاى ويدخنون السجائر أو يفتلون حبال الليف أو يعملون المرابط والشواغل .. للجمال .. استعدادا لعمل الشتاء .

وكانت الطبيعة تجود على المكان بأجمل المناظر الطبيعية .. فالنيل يجرى كاللجين تحت اقدامهم والسماء الزرقاء الصافية فوقهم .. والشمس ترسل شعاعها الاصفر على المزارع .. وعلى صفحة الماء .. فتحول كل شيء الى لون العسجد.. والطيور والعصافير .. تحلق في الجو .. وتغرد ..

والكلاب تتوثب وتتمرغ على الرمال الناعمة .

ويبدو الجميع كأنهم في عيد ... وموسم البطيخ في الواقع عيد الاعياد لهؤلاء المزارعين .. فالنقود تجرى في أيديهم .. ويشترون المواشي والملابس الزاهية .. والمراكيب الجديدة .. والمذارى والفؤوس .. ويصلحون النوارج والمحاريث ...

***

وعلى الرغم من أن القرية آمنة واهلها مشغولون بمعاشهم .. ولكن الفلاح في كل هذه المناطق يحمل السلاح .. فالبندقية السريعة الطلقات حلت محل الهراوة والنبوت .. لانه يسوق مواشيه وحده في الليل .. ويعود بها من السوق .. ويحرس بها الاجران والاقطان ..

***

وفي عصر يوم تجمع حول خص « عبد الغفار » نفر من الفلاحين كعادتهم واخذوا في فنون الاحاديث عن التقاوى

الجديدة .. التي زرع منها عمار فى هذه السنة نصف فدان ... فأتت ببطيخ كبير الحجم ولكنه قليل الحلاوة.

وعن عليان الذى شق بطيخة وتركها فى الشمس .. ثم ذهب لبعض شأنه .. ولما رجع وجد البطيخة باردة كأنها مثلجة وعذبة المذاق جدا .. ولكنه وجد ثعبانا كبيرا يحاول الاقتراب منها .. !

فمثل هذا البطيخ تحبه الثعابين الى درجة شديدة .

واخذ كل واحد من الموجودين يروى رواية عن حب الثعبان للبطيخ وكيف يلعقه بلسانه بلذة وشغف .. حتى تعددت الروايات عن الثعابين وجاوزت المائة ..

وفجأة ظهر شيء جديد فى الأفق شخصت اليه الابصار ... شيء بدا كأنه يسبح فى الجو .. ظهر جواد احمر كان ينطلق فى الطريق الزراعى فى سرعة الريح .. وبدت قوائمه من فرط سرعته كأنها لا تمس الارض .

وكان راكبه منتصبا فوقه فى سكون .. ومرتديا جبة كحلية ولبدة بيضاء.

ويبدو من جلسته على الحصان فارسا من أمهر الفرسان على الخيل ومال به عن الطريق واتجه فى السيف الصغير المفضى الى حقول البطيخ .

وظلت العيون معلقة به حتى اقترب وهو يهدىء من سرعة الجواد ..

ولما اصبح الفارس حذاء الخص عرفوا انه غريب.. ودار دورة بالفرس ثم ترك اللجام وترجل .. ومشى اليهم .. وصافحهم فردا فردا .

ثم اخذ مجلسه بجوار عبد الغفار.. الذى رحب .. وقدم الشاى والسجائر لضيفه .. واخبره الفارس عن المهمة التى جاء من أجلها .. اذ انه يرغب فى مقابلة فلاح يدعى محفوظ له حقل فى هذه المزرعة لمسألة تتعلق بقطعة ارض أخرى وراء شريط السكة الحديد .

وارسل عبد الغفار ابنه عثمان على جحش على التو ليأتى بمحفوظ من البستان ... وظل الجواد فى مكانه وجلده يلمع فى الشمس ..

وكان يحرك رأسه الجميل وينظر الى ناحية النيل .. ثم يعود يرد البصر الى الحقول .

وعيون الفلاحين معلقة به اكثر من نظرها الى الفارس الذى يركبه ..

وازاح الفارس كوفية حريرية بيضاء عن عاتقه ووضعها على الحرام الذى جلس عليه متربعا .. وهو ينفض المكان بعينيه النفاذتين ..

كما ترك بندقية قصيرة فى الجزء الامامى للسرج .

وربض كلبان من كلاب الفلاحين المتوحشة .. امام الجواد كأنهما يحرسانه من العيون المحدقة به ..

وجلس الفارس يتحدث وعيناه على البطيخ الناضج والمزرعة التى تبدو كأحسن المزارع التى شاهدها فى حياته .

***

وبدا الجو رغم اقتراب الاصيل وانحدار الشمس خانقا وشديد الحرارة .. ولكن الفلاحين اعتادوا على مثله وعلى ما هو أشد منه وطأة .

وكانوا يحتمون فى الظل .. أما الذين كانوا لا يزالون فى قلب الحقول الى تلك الساعة فكانوا يكتفون بعصب رءوسهم اتقاء لضربة الشمس الحامية ..

***

وكان عرقهم وتحرك عضــلاتهم مع الفئوس يقيهم كل ما يصيب الانســان من الجو الحار ..

وكانت الحرارة الشديدة قد جعلت المواشى تبترد على شط النيل أوتحتمى من الهجير بظل البستان .

وظلت الكلاب وهى الوحيــدة التى تلهث فى الشمس .

وشق عبد الغفار لضيفه وللجالسين بطيختين كبيرتين ..

واخذوا ياكلون قطع البطيخ بشهية.

وقال « حماد » وهو ينظر للجــواد وكان يحب الخيل ..

ــ هل اشتريت هذا الجواد حديثا ؟

ــ لا ... انه من نتاج فــرس فى بيتى ..

ــ كم هو جميل .. أعربى ؟

ــ اجل .. وعربى أصيل .. وامه اطلق عليها جواد الشيخ عمــران .. وهو اشهر جواد عندنا .. جواد رفض صاحبه أن يبيعه للســباق .. رغــم مغالاتهم له فى الثمن ليغروه على البيع.

ــ ولمــــاذا رفض .. فى امكانه أن يشترى غيره .. ؟

ــ ولا شك انك تعرف ان الجــواد الاصيل نادر الوجود فى هذه الايام .. فالجياد تنقرض .. كما ترى نحن فى عصر الآلة ولم يعد هناك سامر .. ولا دف ترقص على وقعه الخيل .. كمــا كان الحال فى الريف منذ خمسين أو مائة سنة .. لا يوجد الآن الفراغ الذى كان فى الماضى .. والحياة تدور بسرعة ونحن نجرى فيها بأسرع مما كان .. والجواد لطول العشرة يصبح قطعة من جسم صاحبه ..

ــ وجوادك هذا الا ترغب فى بيعه ؟

ــ ما فكرت فى هذا قط ..

ــ حتى ولو أعطيت فيهثمنسيارة.؟

ــ وما نفعى من السيارة ..انهذا الجواد صديقى ورفيق الطريق فهل ابيع رفيقى بسيارة .

انى عندما امسح بيدى على كاهله ..واراه يهتز فرحا احس بأننى اضع كفى على الدنيا بأسرها ..

ــ أترقص به فى الموالد .. ؟

ــ افعل به كل شىء .. كل ما يخطر لك على البال .. واركبه بسرج ومن غير سرج .. وبلجام ومن غير لجام .. وامضى به فى الليل المظلم وفى وضـــح النهار .. وفى النار الموقــدة .. وفى النسيم العابر .. واتخطى به الجداول .. وأعبر القنوات ...

وهو يعرف بمجرد ان اضع جسمى على ظهره ما اطلبه منه .. دون ان احثه على الاسراع او التبختر ..

فهل هذا الجواد يباع .. ؟

ــ ابدا .. ولو بكل ما فى الدنيــا من ذهب ...

وكان الجواد قــد مد راســه نحــو الحشائش .. فنهض الفــارس وأزاح عنه السرج .. واللجام .. وتناول‌من السرج البندقية .. وامسك بها فى يده وجلس مكانه .. وقدم ابن عبد الغفار بعض العلف للجواد .. فأرخى راســه واخذ يأكل ..

واستغرق الجالسون فى الحديث.. حتى مالت الشمس للمغيب ثم تنبهوا على صوت الجواد وهو يصـــهل .. وتلفتوا فوجدوا ثعبانا ضخما يــزحف عليهم ..

ووثب الفلاحــون من مكانهــم ..



وتنـــاول كل منهم فأسا وأحاطـــوا بالثعبان ..

وتقدم عبد الغفار اليه رافعا الفأس .. وحاول ضرب الثعبان فى رأسه .. ولكن الثعبـــان روانه وخابت الضربة واضطرب الجميع .

وزاد الامر خطورة ...

ولما شعر الفارس بخطورة المـوقف وحرجه .. تناول بنـدقيته سريعـــا وأطلق على راس الثعبان فأصابه فى مقتل .

وجر أحد الفلاحين الثعبان بحبـل وألقاه بعيدا عن المكان ..

وعادوا لحديثهم .. كأن لم يحدث شيء .

***

واستمروا فى سمرهم .. حتى مضى جزء من الليل .. ولأن محفوظ كان قد ذهب الى السوق ولم يعد حتى بعد صـلاة العشـــاء .. فقد استبقى عبد الغفار ضيفه الى الصباح .. لينجز المسألة التى جاء من أجلها .

ورضى الفارس أن يبقى وتعشـوا وفرشوا له خارج الخص فى العراء لأن الحرارة كانت لاتزال شديدة .

وناموا جميعا مثله فى العراء ..

وبقيت الكلاب وحدها ساهرة فى المزرعة ..

ولاحت النجوم متألقة فى السماء.. ولكن القمر لم يطلع بعد ..

وفى الصباح استيقظ عبد الغفار قبل ضيفه ودار حول الحقل كعادته .

وعندما رجـع الى الفارس وجـده لايزال نائما .. ووجد على قيد ذراع منه شيئا أفزعه وأجرى الرعشة فى بدنه.. وجد ثعبانا ضخما ميتا .. ولما أمعن فيه البصر عرف أن حوافر الجواد دكته بعنف وخمن أنه أنثى الثعبـــان الذى قتـــله الفارس فى ساعة الغروب .. خرجت الحية الرهيبة لتنتقم .. وكان الجواد فى مكانه يصـــهل .. ولم يكن عبد الغفار يدرى ألدغت هذه الأنثى الجواد قبل أن تموت أم لا .. ولـكنه كان يعـــرف أن الجواد قد تغلب بقوته وذكائه على الشر .. وحتى السموم سيتغلب عليها ..

وكانت نظـرة الجـواد الى صـــاحبه النائم .. تدل على أنه فعل شيئا كبيرا .. من أجله ... فى الظلام ... شيئا لم يحس به انسان ...

من الأدب الألماني

عروس الدب

متولى

للكاتب الألماني : ڤيرنر برجنجرين

ترجمة : محمود إبراهيم الدسوقي

فيرنر جنجرين شاعر ألماني ، وكاتب أقاصيص ، وأساطير ، وقصص ، يريد أن يكشف فيها عن النظام الأبدى للعالم ، وهو عضو فى المجمع الالماني للغة والشعر ، وحائز لجائزة ولهلم رابه • ولد فى سنة ١٨٩٢ فى ريجا على بحر البلطيق ، ودرس فى الجامعات الألمانية ، وحارب فى صفوف الألمان فى الحرب العالمية الأولى ، واشتغل بالصحافة بعد ذلك • فلما كانت الحرب العالمية الثانية فقد وطنه ليتلانده ، ونزح الى التيرول ، ثم هاجر الى سويسره بعد الحرب • وهو يعيش الآن فى زوريخ • وقد رفعه تفوقه فى فن القص ، وحذقه اللغة ، وعمقه الذهنى ، وانسانيته المتسمة بالتقوى ، فوق مستوى عصره ...

لماكان مايزال فى أبرشيةتيليكولشن دبيه ، كانت فتاة لامكان لها فى الوجود — كما كان الناس يقولون — تعيش بين القرويين • كانت أمها بلا زوج ، ثم ماتت وهى فى النفاس • وقيل ان أباها كان جنديا ، جنديا ما ، من السويديين أو الروس أو السكسونيين أوالبولنديين فعلم ذلك عند الله،اذ مر منهم كثيرون يجوسون خلال الديار ، وقد ترك القرويون الطفلة لمصيرها ، لان الوقت كان عصيبا ، وكانوا ذوى معسرة •لكن القسيس دعا اليه كبير القرية فعنفه ، وجرح ضميره المسيحى ، هذا الى عصا الركوب التى كانت ملقاة أمامه علىمكتبه وهكذا بقيت الطفلة فى رعاية القرية ، ففى كل سنة تنتقل من ضيعة الى ضيعة غير التى كانت فيها من قبل وقد آواها الموسرون أول من آووها ، لان الانسان فى أول عهده بالحياة ، لا يصلح لشىء سوى الأكل • لكنه حين يبلغ الرابعة يمكن أن يحتاج اليه فى رعى الماشية ، اذا ما أبطله عائلوه عادة اللعب، والقرويون يفهمون ذلك •

كانت الفتاة تسمى ليزو•فلما بلغت السادسة من عمرها جاءت الى «يورى»

قصير الرجل ، وكانت زوجه تسمى « ماريت » قصيرة الرجل أسوة بزوجها، وان كانت بالذات مديدة الساقين تستطيع الجرى كما يجرى الذئب . هذا الى ما يراه زوجها من أن لها أيضا صوتا كعواء جراء الذئب . وكان هذا رأى ليزو أيضا بعد أن زايلتها عادة الخوف من ضرب هو أقسى مما يمكن أن يبقى لها هذه العادة . لكنها مع ذلك كانت تخشى ماريت قصيرة الرجل .

وكانت ليزو تقبع بين غاب المستنقع تخيك لماريت قصيرة الرجل ، بينما كانت أبقارها ترعى الكلأ . ولم يكن سهلا عليها أن تقسم وقتها ، لانها لا تدرك المفاهيم هنا بعد ، لكنها كانت تعيش خبراتها فحسب كما يعيشها الحيوان . فاذا مضت أطول مما يجب فى جنى التوت ، وحاكت أقل مما ينبغى ، ضربتها ماريت عندما يأتى المساء بمنكاش النار، واذا حاكت أطول مما يجب وأكلت من التوت أقل مما ينبغى بقيت جوعانة، لان قطعة الخبز التى كانت تتزود بها، لم تكن تكفى ، هذا الى أنه كان خبزا عجن بالتبن المخروط ولحاء الشجر المطحون وهو ما كان كبير القرية نفسه يأكل منه ولا يأكل سواه .

وفى يوم الاحد كان عليها أن تحرس البيت وترعى الاطفال ، بينما يتوجه قصير الرجل مع زوجه الى الكنيسة ، فربطت ليزو ذات مرة قدم أصغرهم برجل المائدة كى يعجز الغلام عن الحاق ضرر ، ثم جرت الى البحيرة لانها كانت سمعت أن الغرق فيها لا يستغرق وقتا طويلا ، وأن حور البحيرة يزودن الغرقى بخبز نقى مصنوع من الدقيق . لكنه كان فى البحيرة زورق مما يسير بالمجداف يجلس فيه كاتب سيد القرية المحترم يصطاد السمك . فنادى عليها بالالمانية أولا ثم باللغة الاستونية لانها لم تكن تفهم لغة سادتها ، وحذرها من التجاسر والنزول للاستحمام حتى لا تطفش السمك ، فعادت أدراجها الى البيت وفكت قيد الغلام واستلقت على الارض، وجعلت تعول وتنشب أصابعها وأسنانها فى فروة الخروف العتيقة التى اعتاد القرويون أن يلتحفوها فوق دكة الفرن.

كان هذا قيد فكرها وهى ترعى البقر ، وكانت تفكر أيضا فى أنها اختصت بالكثير من السوء مما لا يصيب سائر من عرفت من الناس . لكنها لم تكن فى العادة تفكر كما يفكر الناس ممن ألفوا منذ الصغر أن يتبادلوا الحديث غالبا عن كل ما يقع من أحداث ، فكان ينتظم تفكيرهم من ثم نظام مألوف ، أما هى فكانت تفكر على أسلوبها لان أحدا لم يخاطبها قط الا فى أن يصدر اليها امرا أو يعنفها بكلمة ، ولانها كانت غالبا وحدها فى الغابة خارجا . وكان تفكيرها يدور أيضا حول أن شيئا كحوت سليمان قفز فى النهر ثم اختفى ثانية ثم عاد فقفز ثم اختفى من جديد . ثم انها أيضا لم تتسن لها خبرات تتجاوز رعى البقر والحياكة وتناول الخبز والتوت وتلقى الضربات . وهكذا لم تكن تختلف كثيرا عن أى حيوان . والحنين الى حال تأمن فيها من الاخطار كان كذلك مما يداخل الحيوان . غير أن ذلك الذى يميزها كانسانة خلقها الله عن الحيوانات ـ ذلك بالذات ـ لم يظهر عليها كما ينبغى ولم يتأكد فى وعيها . ومن ثم كانت تأنس الى الحيوانات أنسا كبيرا من دون أن تتودد الى خروف أو بقرة بطبيعة الحال كما يفعل أطفال سادتها أحيانا ، ولم تكن

تخاف حيوانا ولو كان ذئبا كما كانت تخاف ماريت قصيرة الرجل ٠

وذات يوم بينا هى تحشو فمها على عجل بالتوت حرصا على وقتها أن يفوت، بدا لها كأن احدى البقرات ينتابها شىء من الاضطراب فتبرطع هنا وهنـــاك ٠ فنادتها ليزو بتلك اللغة التى تخـاطب بها الحيوانات من دون أن تتدبر الكلمات والالفاظ أو تكون تعلمتها عن الغـير ، لكن كما تجدها فى نفسها بالبـداهة ٠ وجأرت البقرة وبرطعت متهيبة، وترددت لا تعرف وجهة تتجهها ، وقلدها سائر البقر ، فأرادت ليزو أن تقفز وراءها ، لكنها فكرت فى التريث برهة وجيزة ، لانها لم تكن انتهت بعـــد من ازدراد التوت ٠ وانها لكذلك اذا بها ترى البقر يأبق وتسمع خواره الجازع ، فهبت من قعدتها مذعورة مليئة الفم ، وأحست كما لو كان ظل ثقيل أسود دافىء يتيخ عليها ٠ بلى لقد كان دافئا ، وكان داكنا جدا ٠

وجرت فى الظلمة أشياء كثـيرة من دون أن تستطيع ليزو تبينها بالدقة أو ادراكها ، كذلك لم تستطع أن تقيس فى أية فترات أو بأن تعاقب وقعت لها هذه الاشياء ٠ ويجب أن نقرر أنها لم تكن مكلفة بأن تراجع نفسها كما يفعل سائر الناس ٠ وانزلق شىء رطب عـلى وجهها وكان خشنا فى ملمسه، لكنه بدا لها انها لم تكن تتوجس منه شرا٠ وهب عليها نفس دافىء عرفته فى أفواه البقر، نفس تنبعث منه رائحة الغابة والعشب النضر ٠ ولامستها هنـــاك أغصـــان ووخزتها أشواك ، وأحست تسلخا فى اهابها وجراحا ، وشعرت بدمها يسيل وبضغط عاصر ورخاوة محسنة تخالط أعضاءها سرعان ما تتبدل فى وعيها الماء

وظنت برهة أنها تسمع خريرا اختلط فيها مع العطش والـــزحف على الارض والبلل واطفاء الظمأ٠ وكانت هناك أيف دمدمة ونخير وملامسات شعر مترفقة٠

هذا تقريبا ما خبرته الفتاة اذ ذاك وما بقى قيد ذاكرتها فيما بعد اذا ما جاز لها أن تتكلم عن الذكريات ٠ وكان فى جملة ما وعت الذاكرة جزر وخيـــار وأقراص عسل بل خبز أيضا ٠ وكان من تصوراتها حيـــوان ارتوت من دمه الدافىء ، وتناولت لحمه النيىء ٠

وتلاشت الآلام ، وانحسر كـــذلك الظلام ، لانه كان هناك موضع يسقط منه النور ولو بقدر ضئيل ٠ لكنه كفى مرة لان تتبين ليزو أن بجانبهـــا ترقد كتلة مسترخية تتنفس أو تنفخ ، فلم تعجب لما تبينت بجوارها دبا ، وراقها أن تمسح بيدها على جلده ، وأن تدلكه، وأن تتحدث اليه كما تتحدث الى بقرها٠ وأعادت ذلك وتكرر أيضا كل ما عداه : الاكل والشرب وفراش العشب الوثير بوسائده وأغطيته ، والظلمة الغالبـة ، والضوء المتسلل ، والدمدمة، والهمهمة، والتنفس ، والدفء الطيب المنبعث من الدب كلما التصقت ليزو بجلده ودلكته وكانت تؤثر فى الدعك رقبته حيث كان دغل فروته يحوى بقعة بيضاء تترسل منها خطوط صغيرة على جانبيه ٠

وكانت ليزو شبعانة دفيانة لا يضيرها أن تمر بها فترات وجيزة فى نظرها ، يرعشها فيها البرد أو يتملكها الجوع ، فقد كان لها أن تنام على هواها ، فلا من يرميها بكلمة قاسية ، ولا بها من حاجة الى محاذرة أحد ، أو الهرب منه ، لا وعى عندها لمر الزمن ، لانها كانت تعيش فى بحبوحة ، وترضى رغباتها ، وتســـد حاجاتهـــا ، كالجنين فى بطن أمه ٠

والرغبات والحاجات كانت عندها واحدة ، فاذا ألفت نفسها وحدها عرفت أن الدب القادر سيعود اليها ومعه القوت ، ودفء الجلد والجسم ، وكل وسائل الراحة • وكانت تشكر له هذا بذلك الحب الشاكر للراحة الذى يلصق الكلب بسيده •

وقد أعيى الناس فيما بعد أن يستخلصوا من الفتاة هل الدب حال بينها وبين مبارحة المغارة بحال من الاحوال ، فدحرج على سبيل المثال حجرا سد به المدخل • وهو ما كان الناس يعلمونه من التاريخ عن انسان دب أو دببة بشرية كانت عجائز القرية تحب أن تحكى عنها الحكايات وتعيد بها ذكريات الأجداد• وكان الحديث يعرض رأيا كان أيضا رأى القسيس هو أن الأمر فى اقامة الفتاة لا يتعلق بمغارة دب حقيقية بل قد يكون مخبأ من المخابىء التى كان يعتصم بها القرويون أو الفارون فى الغابات أثناء الحرب الطويلة الأمد ، أو لعله وهدة من تلك الوهاد الصخرية التى ينبع فيها الماء اتخذت ملجأ ثم هجرت فيما بعد • بل لعله كان لهذا المخبأ باب فى الارض ينطبق اذا مس الدب عند مغادرته مغارته بوزنه الثقيل موضعا بعينه وهو لا يعلم هذا ما رأى الناس ، ذلك أنه كان يبدو لهم مما لا يقبل التصديق أن تقيم الفتاة ليزو عند الدب بمحض ارادتها • كذلك خطر لهم أن الفتاة تكون قد وقعت على بعض القوت المخبأ المنسى كجبن الضأن واللحم المملح الملفوف فى نسيج الكتان المدهون بالقار حفظا له من الدود وصونا من الفساد• ذلك أنه لم يكن من المعقول أن يحمل الدب الى الفتاة الزاد كما تحمل أمهات الحيوان الى صغارها القوت ، غير أن أحد القرويين واسمه«أولو» ذكر القوم بالدب الذى جاء الى الفرن فى الغسق ورمى النساء برعب عظيم • وكان أولو يملك بندقية ـ اذ قيل انه ذبح مرة جعديا هاربا من حملة البنادق ـ فأطلقها على الدب الذى خلف وراءه أثرا من دمه فوق الكلأ •

وذات مرة،وقد عاد الدب يهر ويئن، لحظت ليزو أن بكتفه بللا من سائل دفىء ، لكنها فى نفس الوقت وجدت رغيفا ملقى على الارض كان أيضا ساخنا فلعقت ليزو السائل الدافىء من جلده ، وقضمت فى خلال ذلك فى الرغيف الساخن • ولما كان السائل لا ينقطع ، والدب يئن أنينا متواصلا مزقت ليزو قطعة من أثمالها وضمدت جراح الدب عند الكتف • وقد يكون خبز القرية الساخن ذكرها بجرح رأته يضمد فى القرية • ولبث الدب فى المغارة فترة أطول مما اعتاد ، فلما خرج أخيرا ثم عاد كانت الضمادة قد زالت عن كتفه أثناء عودته • بيد أن الجرح كف عن النزيف •

وبدا ذات مرة للفتاة كأن غيبة الدب قد طالت أكثر من المألوف ، وقاست ذلك باشتداد وطأة الجوع عليها ، بعد أن استهلكت كل ما كان لديها من القوت • واشتدت المسغبة ، وساورها فى نفس الوقت خوف بهيم من أى شىء يمكن أن يغير نظام الاشياء • وبلغ منها أن خيلت اليها قلة الحيلة ، وخيل اليها الضيق ، أنها ترى فى الغاب عش الغراب والتوت ، بل أيضا ضيعة قصير الرجل بأرغفتها المعهودة •

وبغتة تعرضت الفتاة لضوء أليم • ذلك أن الشمس طلعت فى الخارج نافذة من خلال شجر السندر وأغصانه الجرداء

التى تقطر بالماء ، والتمع الثلج الذائب حتى اضطرها الى أن تغمض عينيها ،لكنها أحست فى نفس الوقت أن ساقيهـــا تخذلانها ، فجعلت تجر نفسها خـــلال الغابة العديمه القوت ، من جـــذع الى جذع ، وقد دميت قدماها وآلم بهاعذاب شديد ، وجاءت الى المستنقع وكان يتعذر عليها اجتيازه ، وكانت قطع الجليـــد تنكسر تحت وطئها ، وماء الثلج يغرغر، ودجاج الغابة العابر يصيح • وفيما خلا ذلك كان كـــل شيء هادئا ، فكان فى وسعها أن تصرخ وتصيح ما شاء لهـــا الصياح •

والتمست العودة فعزت عليها العودة، وأقبل الغسق ، وهبط الظلام ، فقبعت عند كتلة من الحجر فى هدأة الريح ، وانتزعت من الارض الزلقة عشبا لتدفىء قدميها ودلكت أطرافها بالثلج لتقاوم التجمد • وتقضى الليل فى هذا البؤس، لكنها فى الصباح البـــاكر سمعت دق أجراس فتعجبت كثـيرا ثم لم تلبث أن تبينت قرع أجراس كنيســة القرية ، فنهضت وأرادت المسير على هدى الصوت لكنه لما كانت قواها قد خارت ، وكان عليها أن تدور من طرق أخرى حول مياه الربيع الذائبة وماء المستنقع، احتاجت الى وقت طويل مضن للخروج من الغابة وبلوغ الكنيسة • وكان الخان قبـــالة الكنيسة فكانت مركبات القرويين واقفة صفا طويلا ، مشدودة الى مربط العربات، فتبينت حصان آل قصير الرجل ــ ذلك الحصان الهرم ، فامتطتـــه وتسللت الى دريس العربة وغابت فيه عن الرشد •

واستيقظت على هز وصراخ ، فرأت وجوها تحملق فيها وكانت أكثر من أن تحصى • وكانت ماريت أيضا بينهـــم فذكرها مرآها بمنـــكاش النار • لكنها ألمت بصوت مرتفع عميق حسر له الناس رؤوسهم ، ثم لم تسمع الفتاة بعـــد ذلك ولم تر شيئا أمدا طويلا • وتذكر القسيس الطفلة اليتيمة فآلمه أنه لم يهتم بليزو فى السنوات الماضية • لكنه كيف كان يسعه الاهتمام بها ؟ فقد كان شيخا، وكان زملاؤه فى هالنبرج قد شـــنقهم القوزاق ، ورئيس دير ماندا قد أخـــذه جنرال رهينة ، ولم يعد أحد يسمع به• فكان لزاما على القسيس أن يؤدى عنهم واجباتهم ، ويقطع فى سبيل ذلك أميالا مربعة لا تعد •

وأدخل القسيس آلان ليزو الى داره ، ومددها على زكيبة من القش ، وأحـــكم فوقها الغطاء ، ثم جعل زوجته بعد ذلك تغسلها وتغلى لهـــا ما تشربه • ودهنت امرأة القسيس قدميها بمرهم وربطتهما• وكان عليها اطعامها ، لكنها أطعمتها كما تطعم طفلا صغيرا لانها لم يكن لديها فى أول الامر مطهى تحتفظ به ، وخشيت زوجة القسيس أن تموت الفتاة كما يموت أرنب صغير •

واســـتردت ليزو مع الوقت قواها ، وجعلت تأكل كما يأكل سائر البشر ، وارتدت من الشيـــاب ما يرتدى هؤلاء ، وجعلت تجيب على ما تســـأل كما يجيب سائر الناس ، وتعلمت أن تسمى الاشياء بأسمائها وكانت تجهل ذلك من قبل • وقال الناس انه قد هبطت عليها السعادة من السماء ، وانها انتقلت من مغـــارة الدب الى دار القسيس ، وان القسيس سيعنى بأن تتزوج فى حينه من رجـــل صالح ويســـاعد على جهازها ، وكان آخرون لا يصدقون الفتاة ويزعمون أنها لحقت ببعض النور أو اختلطت ببعض

الجنود العائثين فى الارض فسادا. لكن الجميع كانوا يلاحقونها بالسؤال، وكان الاطفال يصيحون وراءها : عروس الدب! عروس الدب !

***

وفى أواخر الخريف ذات مساء خرجت ليزو من حظيرة الماشية وأرادت أن تحمل ماء من بئر الفناء • وكان سيد القرية المحترم قد جاء راكبا يرتدى سترة الصيد المرقعة ، فرأته يخرج من باب البيت مع القسيس فى الضوء الخابى فناداها القسيس وكلفها بأن تقص على السيد المحترم ماكان من مقامها فى مغارة الدب • وكان السيد أثناء ذلك يهز رأسه ويضحك وكأنه يهر ويقول : «كذا، كذا • » أو « من يعلم ! » ثم ناول القسيس فى الختام قطعة نحاسية من النقود على أن يدخرها للفتاة • وعلى كل فهو ـ على حد قوله ـ لم يسمع بأن دبا فى ذلك الحين رمى فى أرضه بالرصاص، لانه ـ كما قال ـ كان ما يزال فى الناحية جنود جوابون يحملون البنادق، ولا يحفلون بحق الصيد ، فليس من سبيل الى التحرى الدقيق ، ثم أشار الى نجم فى السماء الداكنة الزرقة فوق سطح آل كليتون بالذات يضحك فى سخرية : « هذا هو الدب الاكبر ، انظرى اليه ! فلعلك نزلت عليه ضيفة ، فاذاكبرت بما فيه الكفاية فقد تستطيعين أن تدلكى له زوره ! »

ولم تفهم ليزو ما يقول ، وانحرف السيد المحترم راكبا يتبعه القسيس بنظرة وقال لليزو : « ليصادف الانسان دبة ثكول ولا جاهل فى حماقته » كما جاء فى «أمثال» التوراة فى الاصحاح السابع عشر ـ الآية الثانية عشرة • وحين تأتين للتثبيت فسوف أزودك بهذا المثل » •

وجعل القسيس يعلم الفتاة الدين • فسمعت منه عن كريم قادر وعن واهب للدفء والقوت عليها أن تحمده، وتتفانى فى خدمته ، فكان يخيل اليها أحيانا أن القسيس يعنى بذلك نفسه ويعنى امرأته القصيرة الضامرة • وأحيانا يبدو لها أنه يعنى به شخصا آخر لا تعرفه • وهكذا انتهت الى أن تقصر تفكيرها على الدب الذى منحها كل شىء ولم يتقاضاها فى مقابله عملا ما ، على أنها كان لابد أن تخرج الى الفناء وترعى أيضا بقرات القسيس وكانت ستا • لكنه يقال انها كانت قبل الحرب أربعا وثمانين ، وهنا استعادت كل الالفاظ التى كانت تخاطب بها الدب وزادت عليها مجموعة من عبارات الرجاء علمها القسيس اياها • ومع ذلك لم يشأ الدب أن يعود • ومهما يكن من تلقاه أو تقابله فانه كان يذكرها بأسئلته ومباسطاته بالدب • كان يورى القصير الرجل يقول لها : « طاب يومك ياعروس الدب الصغيرة • أبلغى عريسك عنى السلام ! » وكانت ماريت قصيرة الرجل تقول لها وهى تصيح وراءها : أتراك ذاهبة عما قريب الى مغارة الدب تتسكعين عنده ؟ » وليس شك فى أن ماريت لم تعد تجرؤ أن تمس الفتاة منذ أقامت فى بيت القسيس • واذا حل بالقسيس ضيف دعيت ليزو الى الحجرة الكبيرة ليسألها الضيف وتجيب • وهنا كانت تقف بالباب فتؤمر بصرامة أن تقترب وتفتح فاها • لكنه ما الذى كان ينبغى أن تقول • لقد طالما أبدأت وأعادت ، حتى لقد بدا لها أنها تصبح بكل كلمة تلفظها أكثر رداءة مما كانت وأبعد عن

الصدق مما هي سواء ضحك السامعون غير مصدقين أو قال صياد هرم من صيادي الدببة : ان مثل هذا يقع لكنه نادر الوقوع وقد كان يدخل في روع ليزا انها كانت تعيش في حال لا خير فيها بل الشر والا لما أمكن أن يبدو لها عهد الدب السعيد رديئا لا يقبـل التصديق • وكانت في ذلك أيضـا أسئلة كثيرة لم تدركهـا فامسـكت من ثم عن الكلام وكان أن لحظت أن سامعيها غير راضين •

وفي العام الثاني لاقامتها عند القسيس جاء سيد غريب فامرت ليزو أن تغسل له يديه ورجليه ثم كلفت بعـد ذلك أن تتوجـه الى الحجـرة الكبرى ليروها ويسالوها • ثم تحدث القسيس وضيفه باللغة الالمانية فلاحظت ان الحديث يدور حـولها فآلمهـا ذلك وأحست ضيقا لا يحتمل • فلما عادت الى الفنـاء كان سائس عربة الغريب يقف مع الخيـل ، رجلا أشيب الشعر ، يدخن غليونا ، فكان لابد أن تجيبه هو الآخر عن أسئلته فجعل يسمع لها من دون اكتراث ، ثم بصق على الارض وقال :

« لقد قابلنا أمس نحن أيضا دبا أنا وسيدي • كان هذا في بركنكروج فمر بعض النور يقودون دبا من سلسلة الى سوق شفارتسنبرج السنوية • وكان دبا هائلا قالوا انهم لقوا عنـاء كبيرا في ترويضه لانه كان قد تجـاوز السن • وكانت على كتفه ندبة جرح وفي رقبتـه بقعة بيضاء ، وليس هـذا بشائع بين الدببة » •

فسـألت ليزو : « وأين تقـع شفارتسنبرج ؟ »

قال السائس : « هناك • سيرى رأسا ثم عرجي عن يمين فاسرهون والطـريق من هناك مطروق » •

ولما خرجت ليزو من دفء الحظيرة التي ينتشر فيها البخار الى الفناء كانت صور النجوم في فصـل الخريف تعلو الدور القائمة هائلة تتلألأ ، وكان لكلب الضيعة شخير وهو شبه نائم ، فارعشها البرد ، وضمت الى صدرها بعض رغيف صرته في قطعة من القماش كأنمـا أملت ان تدفئهـا • ورفعت بصرها فرأت فوق شجر التفاح في الحديقة لمعان نجم الدب ثابتا لا يتحرك فتطلعت اليه دهشـة ، وخطر لها ما تفوه به السيد المحترم من تلك الكلمات وما أدلى به القسيس عن المسيحيـة من أقوال وما وعظ به يوم الاحد عن السماء •

فلما عرجت عنـد فاسرهوف تذكرت « أولو » فغضبت إذ اعتاد أن يقول لها وهو يطرف بعينيه : « أجل لقـد كويت جلد حبيبك كيـة صميمة » • وعند طلوع الشمس فرت بين المراعي وجعلت تتناول من خبزها • وجاءت مركبة تستقلها قروية عجوز قاسية الملامح ولما كانت من قرية غريبة فقد سالت ليزو ان كانت تريد أن تصحبها فلما انقضت ساعة على ركوبها قالت العجوز : « من لم يتعلم بعـد أن يفتح فمه حين يسال فليسر على قدميه اهبطي أيتها الطفلة ! »

وفي المساء بلغت ليزو بركنكروج ، وتسللت الى الضيعة ، وكان في فنائها مركبة محلولة مما يستقل السادة ، فقضت الليل بداخلهـا ، وحلمت بالدفء الذي كان يواتيها من الجسـم القوي وعند العصر وصلت الى شفارتسنبرج فداخلها خوف كثير من أن تلقى أحـدا من أهل

قريتها • وقد رأت يورى قصير الرجل • لكن هـذا كان يرقد تحت مركبتـه ويستهلك نشوته نوما • وكان فى الخان ضجيج وعزف ، وعلى أخونة البيع أشياء طيبة زاهية لم تلتفت اليها ليزو وكان أمام الكنيسة طبل يقرع ، والنـاس يتحدثون عن النور وعن الدب • فجرت ليزو الى هناك تحدوها تلك الثقة وذلك التأكد الكامل الذى كانت تنتظر فيه عودة الدب فى حياتها السـابقة وهى شبه نائمة • وشقت طريقها بين الناس فاذا رجل رث الملابس أسود الشعر يقرع الطبل ويصفر أيضـا • وخرج آخر من خلف المركبة يحمل سـوطا فى يده اليسرى ويسحب باليمنى سلسـلة ، فوقف وشد السلسلة وطرقع بالسوط ، فعلا من زاوية المركبة نفح أنفاس دفىء لها قلب ليزو • وعاد النـورى يطرقع بالسوط ، ويجذب السلسلة • وهنـا جعل الدب يخب الى الدائرة ويطأ برجليه وطئا باطشا ، فوكزه الرجل فى جنبه فشب كارها ، وبرطم ، وجعـل يدور كئيبا ، بليدا ، لا يحسن أداء ، وضحك الواقفون • ولم تكن ليزو قد رأت قبل الآن دبا أسيرا مهانا ، لـكنها لم تفكر الا فى أنه حسبها أن تجد فينتقل بسحر ساحر الى أرض الدببـة حيث الرخاء ورغد العيش وكل كفاء • وحملقت فى الدب الغليظ والكمامة على فمه ، والندبة فى كتفه ، والسلسلة الثقيلة فى طوقه ، وقدكسا الطوق بعض تلك البقعة البيضاء فنادته بتلك الالفاظ القـديمة مبهورة الانفاس ، فأخذ الدب يستدير ببطء ذات اليمين وذات الشمال يتخطى بعينيـه الكدرتين هذا الغفير من النـاس الذين يرمونه بالخوف •

ودفع ليزو فى جنبها رجل هرم قال لها : « هل احتسيت خمرا أيتها الفتاة الحمقاء ! »

وعوى فى نفس الوقت من بعيد صوت جرو الذئب من ماريت الغاضبة قصيرة الرجل وهى تقول : « هيه ، يا عروس الدب ! انتظرى فقط ، فساعيـدك الى القسيس ! »

وسرت فى النظارة حركة ، وسـكت الطبل ، والتفت الـكثيرون الى ليزو ، وكف الدب عن التحرك ، وبدا كما لـو كان يبغى الاستلقاء • لكنه حدج مروضه بنظرة مرتاعة كأنما يريد أن يستوثق من أن هذا لا يجر عليه عقابا • وأخـيرا استسلم للقياد وهو متثاقل •

وصرخت ليزو صرخة عاتية ، ووثبت الى رقبته ، وضغطت رأسـها على فروته الدافئة ومدت يدها الى البقعة البيضـاء فى رقبته ، فاختلج الدب اختلاجة عبر بها عن غضبه وذعره ورغبته فى دفعها عن نفسه معا • ثم دمدم دمدمة حانقة ولطم ليزو بمخلبه الايسر على ظهرها ، وهوى فى نفس اللحظة تقريبا بالأيمن على طاسة دماغها ، فزمجـر القرويون ورفعوا الهراوات والفؤوس والمنـاجل المشتراة حديثا ، ودوت صرخات النوريات وأطلقت رصاصات • ولم يستغرق هذا سوى ثوان ، ثم ارتمت الكتلة السوداء السمراء بلا حراك كأنها فروة دب متجمدة

تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر

(١٨٧٠ — ١٩٣٨)

تأليف : الدكتور عبد المحسن طه بدر

عرضه وتحليل : الدكتور عبد الحميد يونس

من أهم ما دعى اليه الجامعيون ، واستجاب له المجلس الأعلى للآداب والفنون ، أن تذاع فى الناس الدراسات والأبحاث التى ينهض بها الشباب الجامعى ، ويحرز بوساطتها اجازة علمية • ولقد كان الشرط الذى فرضه القانون فيما مضى ، وأوجبه على كل من يتقدم ببحث علمى تجيزه لجنة الفحص فى الجامعة ، أن يطبع أولا لكى يسهم المتخصصون فى تقييمه والحكم عليه خارج الجامعة ، ولكى يكون متداولا بين الباحثين فى البيئات العلمية المختلفة • واليوم تعود هذه السنة الى الظهور ، وتطالعنا المطبعة ببعض الدراسات الجامعية ، وهذا الكتاب الذى نقدمه الى القراء ، عبارة عن رسالة تقدم بها صاحبها لنيل اجازة الدكتوراه فى الآداب من جامعة القاهرة • وعلى الرغم من اشتراكى فى مناقشتها ، فاننى لا أجد حرجا من عرضها وتحليلها •

ولقد حدد الدكتور عبد المحسن طه بدر موضوعه قبل أن يشرع فيه ، فجعله يبدأ بالثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، وينتهى بالعام السابق على نشوب الحرب العالمية الثانية • وهذا التاريخ يستغرق أحداثا كبيرة من الناحيتين الوطنية والعالمية ، فقد شهد ثورتى عام ١٨٨١ ، وعام ١٩١٩ ، وشهد الحرب العالمية الاولى • أما المكان فقصره على الوطن المصرى لسببين ، أولهما ، ارتباطه به ، وقدرته على تقصى العوامل والتطورات فيه ، وثانيهما ، رأيه فى أن القطر المصرى هو الذى شهد نشأة الرواية الفنية ، مع الاعتراف بفضل المهاجرين السوريين واللبنانيين الذين عاشوا فى مصر ، والذين أسهموا بنصيب موفور فى ترجمة الرواية وتاليفها •

واصطنع المؤلف فى بحثه منهجا مزدوجا هو : منهج التاريخ الذى يرصد النشأة والسياق ، ويسجل التغييرات ، ومنهج النقد الذى يلتمس مقومات البناء الفنى فى الرواية العربية الحديثة ، فهو يقول ممهدا لبحثه : « استقر رأيى فى النهاية على اختيار منهج يجمع بين المنهج التاريخى والمنهج النقدى ، لأنى ما دمت أومن بالتطور فلا يمكننى أن أغفل تأثير الزمن فى تطور الرواية ، ولما كان هذا التطور لا يظهر الا منعكسا على موضوع الرواية والاسلوب الذى اتبعه مؤلفها فى كتابتها ، كان لابد للباحث من قياس هذا التطور على ضوء المقاييس النقدية ، ولذلك حاولت فى تقسيم البحث ، وفى طريقة معالجته • الجمع بين هذين العنصرين ووجدت أن

الجمع بينهما لا يتعارض مع واقع تطور الرواية العربية في مصر الا في حالات نادرة حاولت تبريرها » ٠

حاجة الدراسة الادبية الى الاحصاء :

ولا بد للنظر الموضوعي الى نوع أدبي قائم برأسه كالرواية من الاعتماد على الاحصاء التحليلي ، وأحب أن أقرر بهذه المناسبة ، أن مؤرخي الأدب ونقاده قلما يحفلون بالاحصاء وما يمكن أن يؤدي اليه من نتائج ، ودارس الانسانيات بصفة عامة ، والآداب بصفة خاصة ، يجد مادته ومصنفه على الاســاس الذي يريده في المكتبات والجامعات الأوربية والامريكية ، ولقد بلغ من عناية الغربيين بالاحصاء والتصنيف ، أنهم يصدرون في كل سنة ــ مثلا ــ احصائية تستوعب الروايات التي ظهرت فيها ، وتصنفها على أساس جنس المؤلف ، ذكرا كان أو أنثى ، وعلى أساس الابطال الرئيسيين والثانويين من حيث الجنس والعمر والمهنة والطبقة ، بل وصورة الجسم وملامح النفس ، وعلى أساس الحدث في اعتماده على السببية ، أو خروجه على المعقول ، أو انقطاع حلقاته أو قيامه بالمصادفة أو المفاجأة ٠ أما البـاحث العربي ، فانه يواجه في جمع مادته صعابا جمة ٠ ولقد حرص الدكتور عبد المحسن ، أن يتعرف على جميع الروايات التي صدرت في مصر بين عامي ١٨٧٠ ، ١٩٣٨ ، فلم يجد أمامه فهارس دار الكتب ، وهي على الرغم من ترتيبها وتصنيفها على الاساس النوعي ، فان المصطلح الادبي في فهارسها غير مستقر الى الآن ، بحيث لا تفرق بين الرواية باعتبارها القصة الطويلة فحسب ، وبين الاقصوصة وبين المسرحية ، وتجمع كل سرد أو اداء قصصي جماهيري في باب واحد ، كما أن الاكتفاء بما يذكر على غلاف الكتاب كثيرا ما يوقع في الخطأ ، وبخاصة في الترجمة والتمصير والاقتباس ، واستكمل المؤلف مادته من قائمة الروايات التي قدمها بروكلمان في الجزء الثالث من ملحق كتابه عن « تاريخ الآدب العربية » ومن القـائمة التي أوردها المستشرق هنري بيرس عن الروايات التي ظهـرت في اللغـة العربية الى سنة ١٩٣٦ في مجلة « حوليات معهد الدراسات الشرقية » التي تصدرها جامعة الجزائر ، الى جانب بعض المحاولات الجامعية التي تعرضت بالبحث للمترجمات الادبية ٠

ووضع المؤلف بين يدي الباحثين من بعده فهرسا جامعـا للروايات العربيـة المؤلفة والمترجمة التي طبعت في مصر ابان الفترة التي عرض لها بالدراسة ، وهذا البيان في ذاته ، جهد مشكور له قد يغني الاجيال عن الاحصاء وقصاراهم أن يكملوا ما يكشف البحث عن النقص فيه ، ولـكنه اكتفى بذكر أسـماء المؤلفين والمترجمين وعناوين الروايات وسنوات الطبع ، ولو أنه فصل البيان بذكر لمحة وصفيةللموضوع ، لأضاء معالم الطريق لمن يأتي بعده ٠

ومع أنه قسم بيانه على الأسـاس الفني ، ففصـل بين الروايات التعليميـة ، وروايات التسلية والترفيه ، والروايات الفنية ، فانه أسقط بعض الحلقات ، ولعله لم يحصل عليها لسبب من الاسباب ٠٠ من ذلك ــ على سبيل المثـال ــ جهد ابراهيم رمزي الذي عرف بريادته للادب المسرحي ، في الرواية التاريخية ، فلقد أصدر عام

١٩٣٦ « باب القمر » ليبدأ بها معالجة التاريخ الاسلامي معالجة قصصية ، وذكر في مقدمها أنها ثمرة توجيه من الامام محمد عبده عندما لقيه في السودان عام ١٩٠٥ ، وانها استجابة لالحاح الشيخ عبد العزيز جاويش على سلوك هذا الميدان عندما عمل معه في وزارة المعارف عام ١٩٢٥ • وهذه الرواية تناقض في منهجها روايات تاريخ الاسلام التى ألفها جورجي زيدان ، وتعبر من الحكم على تذبذب المثقفين بين رابطة اسلامية وقومية عربية ، ووطنية مصرية • ويعتقد كاتب هذه السطور ، أن الفهارس التى اعتمد عليها ليست جامعة للروايات الفنية وغير الفنية ، لأن قانون ابداع الكتب لم يكن مرعيا بين المؤلفين في الاجيال السابقة ، وليس المهم استيعاب كل ما صدر ، ولكن المهم استيعاب جميع الاتجاهات التى تلقى الاضواء على المذاهب الفنية ومراحل التطور ••

التفسير الاجتماعي لتطور الرواية :

ولما كانت الرواية الفنية ظاهرة أدبية ذات مضمون انساني ، فمن الطبيعي أن تلتمس الظروف التى أعانت على نشأتها وتطورها وازدهارها ، وقد سبق الغرب الى **الكشف عن هذه العلاقة الوثيقة بين الرواية الفنية ، والمحيط الاجتماعي الذى تنجم** فيه ، وأفاد المؤلف من الدراسات الغربية في رصد النشأة والتطور للرواية العربية **الحديثة ، وهى دراسات لا تكتفى بالوصف ، ولا تقف عند السطح ، ولكنها تتعمق** ما وراء هذا النوع الأدبي من انعكاسات على القالب الروائي ، وتصوير الشخصية ، وطبيعة الاحداث ، ويقول الدكتور بدر « •• ومع التسليم بقدم النشاط الروائى **والقصصى ، نرى بعض الباحثين يفرقون بين ما ينتج عن هذا النشاط في العصر القبلى والاقطاعي وبينه في العصر الحديث** ، أي منذ القرن الثامن عشر ، ذلك الحديث المتأثر بالقديم في بعض مظاهره ، والمختلف معه في مظاهر أخرى كثيرة ، حتى أوشك بذلك أن يكون جنسا أدبيا مستقلا منفصلا عن مثيله في العصر الاقطاعي ، واصطلح الباحثون على وصف هذا الانتاج بالروائى الفنى ، ليفرقوا بينه وبين الانتاج الروائى غير الفنى الذى سبقه •• »

وبعد أن فصل الكلام عن النظام الاجتماعي القبلي والزراعي ، وبعد أن بين **ملامح المجتمع الاقطاعي الذى بلغ ذروته في الملكيات المطلقة في أوربا** ، أشار الى نزعة هذا النظام ، الى تجميد الاوضاع ، والعزوف عن التجربة العلمية ، والتحفظ في العلاقات الاجتماعية ، وما كان لهذا كله من أثر على الأدب في تصوير الانسان باعتباره نموذجا أو مثالا ، وفى الاعتصام بكمال التوازن في السلوك وفى القول ، ومن وقوف الفكر الانسانى عند المجردوالعام والمطلق ، وارتباط الارادة بقوى خارج **نطاقها** ، وانقطاع السياق بالمصادفة والمفاجأة ، وبالتسليم التام للقدر ، وهكذا كانت « الرومانس » هى النمط القصصى الذى يصور هذا النظام الاجتماعى أكمل تصوير ••

ولما تداعى الاقطاع ، وظهرت الطبقة الوسطى ، تحول السرد القصصى من عالم

الوهم الى عالم الواقع ، والفارق بين هذين العالمين هو المعيـار الرئيسى للتفريق بين الرواية الفنية وغير الفنية ، وهو تفريق ينسحب بالضرورة على البنـاء الروائى فى الحدث والعقدة والشخصية ، وتتسم الاولى بالحتمية والسببية ، وتهتم بالروابط التى تجمع أحداثهـا ، أما الرواية الفنية ، فحلقـات غير متماسكـة تكاد تتحرك بلا محور رئيسى ، وتؤثر العجيب والغريب من الشخوص والاحداث والصور ، وتشبع فضول القارئ أو المستمع فحسب ، ولا تصدر عن موقف خاص للمؤلف ، ولا يكاد مبدعها يحس بأن له رأيا خاصا يحتاج الى تجسيم وتشخيص وسياق ورمز •

وفطن الكاتب الى التشابه والاختـلاف بين ظهور الطبقـة الوسطى فى أوربا وظهورها فى مصر ، واستشهد بآراء ثلاثة من الرواد فى الادب القصصى هم « محمود تيمور ويحيى حقى ومحمد حسين هيكل » ويجمل رأيه بهذه العبارة «•• ولكننا نريد أن نشير الى ظاهرتين أثرتا تأثيرا كبيرا فى الظروف التى نشأت فيها الرواية الفنية ، ويوضحان فى الوقت نفسه الخلاف بينهـا وبين الظروف التى أحاطت بنشاة الرواية الغربية ، وتتصل الظاهرة الاولى بالظروف التى أحاطت ظهورالطبقة الوسطى المصرية من ناحية ، أما الظاهرة الثانية فتتمثل فى انقطاع الصلة بين مثقفينا ، وبين تراثنا القديم ، وفى نفس الوقت الذى كانوا يحاولون فيـه الاستقلال بالشـخصية المصرية والتحرر الفردى » •

ومن الملاحظات التى لها وجاهتها ، أن الرواية الفنية فى مصر كانت انسلاخا عن التراث القديم ، وعلى الرغم من تعبيرها عن خصائص الطبقة الوسطى ، فانها لم ترتكز على الصـور القصصية الشـعبية ، فى حين تعـد نقطـة التحول من القصص الاقطاعى الى الرواية الفنية فى أوربا ، شعبية خالصة ، تمثل قصصا شبيهة بحكايات الشطار التى زخر بها أدبنا الشعبى ، والتى نجدها فى ألف ليلة وليلة والظاهر بيبرس وعلى الزيبق المصرى وما اليها •

واذا كنا نريد أن نركز البحث فى هـذه الصفحات القليلة ، مع الاحتفاظ بمنهجيته ومزاياه ، فان الواجب يقتضينا أن نتجـاوز عن التسيم التفصيلى لانماط الرواية العربية الحديثة ، وأن نقسم العرض فى بابين رئيسيين هما : « ما قبل الرواية الفنية » • ثم « الرواية الفنية » التى واكبت الوجدان القومى أو الوطنى ، وسايرت ظهور الطبقة الوسطى •

ما قبل الرواية الفنية

واضطر الباحث ، وهو يتلمس بداية الطريق الطويل الذى أدى الى تطور الرواية العربية الحديثة ، الى أن يلاحظ خصائص الفكر العربى فى مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر ، ويرجع السبب فى جمود القريحة الأدبية الى استغلال المجتمع على نفسه ، حتى أفاق على وجوب الموازنة بين واقعـه وبين الحضـارة الغربية بحملته الفرنسية على مصر وبعض ثغور الشام ، وهذا الاتصال هو الذى حفز الىظهور الرواية التعليمية فيما صدر عن رفاعة رافع الطهطاوى فى « تخليص الابريز » و « وقائع

تليماك » ولقد كانت هناك رغبة مكبوتة للاصطلاح ، تكتفى بمجرد النقل والموازنة ·
وسارت الرواية التعليمية بعد ذلك لتكون قالبا تصب فيه مختلف المعارف والعلوم ، وكأنها وسائل الايضاح التى يقرب بها المعلمون الظواهر والمعلومات الى أذهان التلاميذ ، وكانت فى سردها أقرب الى المقالة منها الى القصة بالمعنى الصحيح ·

واقتضت الموازنة أول أمرها الى احياء التراث القديم الذى يتجاوز عصور الجمود والضعف ··· يتجاوز الحكم العثمانى والمملوكى الى التاريخ العربى الاسلامى منذ الجاهلية الى العصر العباسى ، وكان الشعر أسبق فى الاعتماد على هذا الاحياء الذى يمثل « الكلاسية الجديدة » من النثر الفنى ، حتى اذا جاء المويلحى ، والاحتلال الانجليزى فى بواكيره ، ارتكز على فن قصصى عربى ، هو المقامة ، ولم يرحل ببطله من مصر الى باريس أو غيرها ، وانما عاد به من العالم الآخر ليوازن بين الماضى القريب وبين الحاضر ، وليواجه صراعا حادا بين طبقتين ، ثم يلجأ الى استقدام عمدة من قلب الريف الى القاهرة ، ثم يخرج ببطله آخر الأمر من الديار المصرية الى فرنسا · ويظل حديث عيسى ابن هشام من صميم أدب المقامات المقيد بالزخرف والاستطراد وايراد المعارف والخطابية ·

وتتحول الرواية التعليمية ، مهما كانت البراعة فى السرد القصصى ، الى الترجمة غير الدقيقة التى استغلت المطبعة ، وظهور الصحافة ، واتساع نطاق القراء ، فكانت رواية التسلية والترفيه ، التى تؤثر الأحداث العجيبة على كل شىء آخر ، وهى من هذه الناحية ، روايات أحداث ، وليست روايات شخصيات ، فللوقائع مكان الصدارة ، والناس فيها تشخيص لا أكثر ولا أقل ··· لا ارادة لهم فى أنفسهم ولا فى محيطهم ، والخروج على المألوف هو القاعدة ، والخير مطلق ، والشر مطلق ، والصفات جامدة ثابتة مجملة لا تكاد تتغير ·

والمؤلف ينتخب الأعلام الذين يستوعبون خصائص كل مرحلة ، والذين تتسم رواياتهم بالمقومات التى تدل على معالم الطريق ، ويعلل ظهور الرواية التاريخية تعليلا اجتماعيا ويبين مافيها من السمات التعليمية ، ومن خصائص التسلية والترفيه ، ومن التأثر بالأنماط والنماذج الاوربية ، وانعكاس هذا كله على البناء الروائى فى تحديد الاطار ، وبسط خلفية الصورة ، مع استحداث بؤرة رومانسية ··· وهكذا ، وهو يلخص رواية التسلية والترفيه ووظيفتها بقوله « ·· لم تحاول رواية التسلية والترفيه أن تواجه الواقع ، ولكنها حاولت الهروب ، اما الى الماضى واما الى بيئات أجنبية ، وهى لا تعتمد على ادراك العلاقات ، ولا تؤمن بالسببية · وانما ينحصر جهدها فى تقديم مجموعة من الأحداث الغريبة العجيبة والمسلية ، والشخصية الانسانية فيها ليست الا أداة لتقديم الغريب والمدهش وغير الواقعى ، وليست مقصودة لذاتها وتظهر فى صورة مثالية موحدة تمثل الخير المطلق أو الشر المطلق ·· » .

الرواية الفنية

وبعد أن بدأت الطبقة الوسطى تخوض معاركها الكثيرة المعقدة ضد الاقطاع غير العربى ، ثم ضد الاحتلال الفرنسى فالانجليزى ، رأينا الدعوة الى الاستقلال تقترن

بفكرات « لبرالية » وافدة فاستغرق الصراع السياسى النشاط القومى الوطنى والطبقى ، وأخذت فكرة « مصر للمصريين » تفتش عن قوام فلسفى لها يقوم على تعقيل الحياة وايثار التطور على الثورة الوطنية والاجتماعية ، ويتكىء على ابراز مقومات الفرد ، ويحدد مسئوليته • ورأى المثقفون ما انتهت اليه الثورة العرابية ، وأحسوا نذر الحرب التى تتداعى اليها قارات لا أمم وشعوب ، فانكمشوا على أنفسهم، واستوعبتهم الرومانسية التى وجدوا فيها ما يشبه التمرد على العام والمطلق ، فى الشخصية وفى السلوك ، وكما كان محمود سامى البارودى رائد الشعر فى حكاية التراث القديم ، فكذلك كان أصحاب الديوان روادا فى الاعتصام بالغنائية التى تحقق الوجود الفردى فى الشعر ، وفى نفس الوقت رأينا الشاب محمد حسين هيكل ، الذى يطلب العلم فى فرنسا ، ويستدعى مشاهد من وطنه ينشىء مايمكن أن يسمى رواية بالمفهوم الفنى ، فيها ما تتسم به الرومانسية من انتخاب مشاهد الطبيعة ، والملاءمة بينها وبين المواقف العاطفية فى الفجر أو الغروب ، ويتأثر « جان جاك روسو » فى أن الانسان خير بطبعه ، وأن الطبيعة جميلة بفطرتها ، ونجد شخصية المؤلف تنعكس فى أحد شخوص الرواية ، أما موضوعها ، فهو تحرير ارادة الفرد ، بالاعتراف بحقه فى الحب ، وكان اختياره لامرأة ريفية هى زينب دليلا يؤكد الفكرة الأساسية ، كما يؤكد رائد الاصلاح الاجتماعى « قاسم أمين » فى دعوته الى تحرير المرأة • ويتفق الدكتور عبد المحسن بدر مع غيره من الباحثين ، فى أن رواية زينب ، يمكن أن تعد المعلم الأول فى سيرة الرواية الفنية •

وتابع الباحث هذه الظاهرة « الغنائية » فى الرواية الفنية ، وهى التى تجعل المؤلف محور السرد أو الوقائع أو العلاقات ، وتكشف عن أزمة عاطفية أو فكرية ، وأطلق على هذا النمط اسم الرواية الذاتية ، وهو نمط يقترب من الاعتراف والمذكرات واليوميات ، وان اصطنع اطارا آخر ، وكان بودنا ، وهو يحمل نماذج الرواية الذاتية، أن يخرج من نطاقها الترجمة الذاتية (أوتو بيوجرافيا) • فقد رأيناه يسلك فى بابها كتاب « الأيام » للدكتور طه حسين • ولعل استعمال الدكتور لضمير الغائب ، واحتفاله بتصوير البيئة ، وسخريته من بعض الشخصيات جعلته يتصور أن الكتاب رواية فنية ، مع أنه فى واقع أمره ترجمة ذاتية ترقى الى مستوى الفن الرفيع ، لأنها تعبر عن موقف مؤلفها من الجامدين والمحافظين ، فى محنة الشعر الجاهلى •

ولقد وازن الدارس بين نماذج أربعة نخرج منها كتاب «الايام» لكى يتبين التطور الذى مرت به الرواية الذاتية من الوصف فى زينب الى ما يشبه التحليل النفسى فى ابراهيم الكاتب ، ثم الى تكامل بين عناصر الرواية فى عودة الروح لتوفيق الحكيم ، ويجمعها كلها حكم واحد ، على الرغم من اختلافها فى التفاصيل ، باختلاف أمزجة مؤلفيها ، وهذا الحكم هو « محاولة التعبير عن حياة الاديب الخاصة فى صورة يظهر فيها الاديب وقد دفعه ألمه الذاتى الى عدم التعاطف مع الواقع ، مما يؤدى الى ضياع ملامح الواقع أو الهجوم عليه أو الغائه » ، وكان من أثر ذلك أيضا فقد الرواية لمحورها ودلالتها فى كثير من الأحيان •••

ويجب الا تنسينا الرواية الذاتية الريادة العظيمة التى قام بها عيسى وشحاته عبيد ومحمود تيمور ، ومحمود طاهر لاشين • وقد حلل المؤلف آثارهم الروائية ، وكشف عن أصالتهم والصعاب اللغوية التى اعترضت طريقهم ، وبخاصة فى التذبذب بين الحوار الفصيح والحوار العامى ، وبين تأثرهم لنماذج أوربية ، واحتفائهم بالطريف أو المعقد أو غير السوى من الشخصيات، ويحضرنا فى هذا المقام رأى «برنارد لويس» فى كتابه « أرض السحرة » من أن هذه الظاهرة تعد امتدادا طبيعيا لفطرة متأصلة فى المصريين من قديم ، اذ حاول أن يقص منهج السرد والتشخيص فى مصر الفرعونية والعربية الى بواكير النهضة الادبية •

مستقبل الرواية العربية :

واذا كان الدكتور عبد المحسن طه بدر ، قد ساير بحثه الموضوعى فى تطور الرواية العربية الحديثة ، فحاول أن يكتشف خيوطها الاولى قبل عام ۱۸۷۰ ، فان اجتماع المادة فى يده والعمل على تقويمها ، ووضعها فى مكانها من التاريخ الأدبى الحديث ، قد جعله يستشرف المستقبل الذى ليس الا امتدادا للسير على نهج مطروق، وهو يقول « ••• وبعد أن هدأ الحماس العاطفى ، أصبح اتجاه كتابنا يعود الى الارتباط بالواقع ومحاولة فهمه •••ولم تخل كثير من المحاولات الروائية التى قدمت فى فترة مابعد الحرب العالمية الثانية ، من محاولات كثيرة تعمد الى تسطيع هذا الواقع ••• والأمل كبير فى تأثر اتجاهنا الروائى بالمرحلة الحاضرة التى تحاول فيها بلادنا أن تعبر عن شخصيتها المستقلة الرائدة فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، متحررة من القيود التى تشدها الى الماضى، معتزة به فى نفس الوقت ومستفيدة منه ، ومتخلصة من عقد النقص التى كنا نشعر بها فى موقفنا من الحضارة الغربية ، والتى تتيح لأدبائنا تقديم انتاج يتميز بطابعه الخاص، ويتخلص من التبعية ، ويجد مكانه بين الآداب العالمية •

ونحن بدورنا نسجل أن مستقبل الدراسات الادبية ، يسير هو الآخر فى طريقه المنهجى الذى يفيد من نتائج مختلف العلوم كالنفس والاجتماع والمأثورات الشعبية ، واذا كنا نجاهد فى سبيل تحطيم الحصار الثقافى ، كما حطمنا من قبل ضروب الحصار الأخرى ، فان هذا البحث جدير بأن يترجم الى نقاد الغرب ، ومؤرخى الآداب فيه ، ولعل هذا العرض هو أكرم تحية من شيخ جامعى الى شاب جامعى على طريق واحد •

الراهبة

متولى

بقلم : صبحى الجبار

وقف ينتظر فى قلق أمام «الكازينو» ، وعيناه معلقتان على المنعطف البعيد عند أول الشـــارع ، ثم يتطلع الى ســـاعة معصـــمة ، فيزداد تقطيبا • يبـدو أن العقارب لا تتحرك • ويرفع الساعة الى أذنه ، فيسمع نبضـاتها تتســـابق مع دقات قلبه • ويعـــود ببصره الى بداية الطريق وهو يفرك كفيه فى عصبية ، بينما عقله يرتب الكلمات على لسانه حتى لا يرتبك أمامها ، وتضيع منه الفرصة التى ظل يسعى لتدبيرها منذ شهور ، والتى استطاع بعدها بجهد عسير أن ينتزع منها وعدا للقاء فى هذا المكان••

وانتفض جســـده المنتشى بقشعريرة لذيذة ، عندما لمحهـــا آخيرا تتهادى من بعيد •• وعندما اقتربت منه ، ومد يده ليصافحها ، أحست بكفه المضطربة منداة بالعرق البـــارد فرفعت اليه نظرها فى تساؤل ، وقالت بابتسامة :

ــ مالك يا أستاذ عزمى •• ؟ ايدك ساقعة زى التلج •• مع انه لسه بدرى على الشتا •

فسحب يده فى رفق كأنما يخشى أن تؤلمها برودة جلده ، وهمس فى ارتبـاك أكثر :

ــ أبدا يامدام نبيلة•• أنا •• الظاهر انى مرتبك شويه •

فابتسمت فى رضا لايخلو من اشفاق، وقالت متغابية :

ــ ومرتبك ليه ياترى ؟

ــ دلوقت حاتعرفى كل حـــاجة •• اتفضلى من هنا •

وأشار لها بانحناءة خفيفة ، فسارت أمامه بين المناضد المتناثرة فى الكازينو ، حتى وصلا الى منضدة بعيدة فى زاوية المكان • وجلست نبيلة تتلفت حولها متصفحة وجوه الرواد خشية أن تجد بينهم من يعرفها • فلما تأكدت أنها فى مامن من أعين المتطفلين والسنتهم انبسطت عضلات وجهها ، وقالت مبتسمة تستعجل الحديث :

ــ خير ان شاالله يا أستاذ عزمى •• ؟

فابتلع ريقـــــه ، وهمس بنبـــرات مرتعشة .

ــ خير باذن الله يافندم •

ونقلت نظرها بين ســـاعتها ومدخل الكازينو ثم قالت :

ــ أنا متأسفة مش حاقدر أقعد معاك كتير .. انت عارف كلام الناس ..

ــ عارف يافندم .

ــ .. وأنا مش متعودة أقابل حــد غريب فى مكان عام .

ــ أنا مقدر ظروفك .. وان شاء الله مش حعطلك كتير .

فابتسمت راضية وقالت مشجعة :

ــ اذن .. ندخل فى الموضوع بدون مقدمات .

وراح يبحث عن الكلمات التى رتبها على طرف لسانه ، فاذا بها قد تبعثرت فى ثنايا خجله . وأخذ يحرك شفتيه فى صمت محاولا سحب الألفاظ من حنجرته ، ولكنهـــا خرجت من فمه مقاطع مبتورة زادت من ارتباكه . وكانت نبيلة ترمقه فى مزيد من الاشفاق ، ثم قالت تساعده على فك عقدة لسانه :

ــ انت عـــارف ظــروفى كـــويس يا أستاذ عزمى ؟

ــ طبعا طبعا .

ــ وعارف انى كنت متجوزة .. ؟

فهتف على الفور بحماس :

ــ طبعا .. وعندك .. ربنا يخلى.. بنتين وولد ..

فرفعت حاجبيهـــا بدهشة ، وقالت ضاحكة .

ــ مدهش .. ! دا انت عارف عنى حاجات كتير ..

ــ كل حاجة يافندم .. كل حاجة ... أنا من زمـــان متتبع أخبـــارك وأحوالك .. من .. من قبل ما يحصل الطلاق ..

ــ وايه سبب اهتمامك بى بالشكل ده .. ؟

فاغتصب ضحكة بلهاء وقال بسذاجة :

ــ مانتى عارفة .. حيكون ايه يعنى غير انى ..

ــ انك ايه .. ؟

فاستدار بجسمه نحوهـــا ، واعتدل فى جلســـته ، وراح يدارى خجله فى محاولة لحبك رباط عنقه حتى كاد يخنق نفسه ، ثم استجمع شجاعته المبعثرة ، وانفكت عقدة لسانه :

ــ بصراحة .. أنا عاوز أطلب ايدك ياست نبيلة .

لم يفاجئها الطلب ، فقد كانت تتوقع شيئا من هذا ، يوم أن طلب منها وعدا باللقاء فى أى مكان تحدده ، يومهـــا تصنعت الغبـــاء ، وحاولت أن تراوغه متســـائلة عن السبب ، فلم يجرؤ على مفاتحتها بمكنون صدره لفرط خجله ، ولما تكرر الحاحه وتوسله ، أشفقت على أعصابه الرقيقة ، فوعدته باللقاء فى هذا المكان المستتر ، بعد أن أيقنت باستحالة اقناعه فى حديث عابر .

كانت تلاحظ ــ بحـــكم زمالتهما فى العمل ــ انه يتودد اليها كثيرا . ويسارع الى خدمتها ، ويتحمل الارهاق ليساعدها فى عملها اذا ما لاحظ أكداس الاوراق متراكمة فوق مكتبها . وأحيانا كانت تضبطه مركزا نظره عليهـــا فى شرود وهيـــام . وسرعان ما يغض بصره فى خجل ، ويدارى اضطرابه فى ترتيب أية أوراق أمـــامه ، ولعـــله كان يزيد بعثرتها .

كانت نبيلة تدرك بغريزة حواء ، أن زميلها عزمي يقاسي كثيرا في هواها ، ولم تكن هي تكرهه ، بل تحمل له قدرا من الاعزاز والعطف والعرفان بالجميل • ولم يكن في شخصه شكلا وموضوعا ما ينفر منه احدى بنات حواء • بل لعل له من الميزات ما يفسح له الطريق الى أى قلب خال •

ولكن •• قلب نبيلة لم يكن خاليا •• بل انها كانت تعيش بلا قلب ، بعد طلاقها من زوجها الذى ملأ كل فراغ قلبها وأخذ مفاتيحه معه •

وتنبهت نبيلة من شرودها ، لترى الشاب محملقا فيها بعيون قلقة جاحظة • فابتسمت في فتور ، وقالت بمرارة بعد أن أطلقت آهة حارة :

ـ •• ياريت كان بايدى يا أستاذ عزمى ••

ـ ازاى ؟

ـ انت عارف قد ايه أنا باحترمك وأقدرك • ولو كنت بافكر في الجواز •• مش ممكن كنت حاختار واحد أحسن منك ••

وأحس بأمله يتسرب من بين أصابعه ، فهتف بجرأة ولهفة :

ـ قصدك عشان الاولاد يعنى • ؟ دول حيكونوا في عينى زى أولادى تمام •• أرجوكي ياست نبيلة •• فكرى كويس قبل ماترفضى •

فتطلعت اليه بنظرة حانية ، وقد هزتها توسلاته الصادقة ، وقالت بتأثر :

ـ يعز على قوى انى أرفض لك طلبا ياعزمى •• لكن ظروفى صعبة ••

وأسعده أن نطقت باسمه مجردا في ود •ولاح له بريق من الامل في محاولتها لرفع الكلفة بينهما ، رغم اعتذارها عن قبول عرضه بلباقة •

فقال في تفاؤل :

ـ كل مشكلة ولها حل ••• وأنا مستعد لكل طلباتك •

ضحكت قائلة :

ـ أنا ماليش طلبات مادية زى مانت فاهم ••

ـ أمال ايه المانع بس ••• ؟

فتشاغلت عن الاجابة باخراج علبة سجاير من حقيبتها ، وثبتت لفافة منها بين شفتيها ، وهى تقول مغيرة دفة الحديث .

ـ طبعا انت مابتدخنش •• ؟

ولم تنتظر اجابته ، واستطردت تقول :

ـ يابختك ••• حاولت أبطلها كتير ماقدرتش •• ماتتصورش قد ايه السيجارة بتسلى اللى عنده هموم كتير••

فهمس برجاء :

ـ بس لو تقوليلى ايه اللى مضايقك••

وراحت تقرب لهب الكبريت من السيجارة ، بينما تتأمل ملامحه الطيبة تكسوها غلالة من القلق والحيرة • فبدا لها كطفل برىء واقع فى مأزق • وأحست بحرارة اللهب تقترب من أصابعها ، فأطفأت الكبريت ، ونفخت من ثغرها سحابة كبيرة من الدخان فى زفرة طويلة ، وقالت :

ـ انت عارف عمرى كام سنة ؟

فأجاب على الفور :

ـ فى نوفمبر الجاى تكملى أربعة وثلاثين •

ـ عجيبة ؟ •• وعرفت منين ؟

ـ ٠٠ من ملف خدمتك ٠٠

ـ طيب٠٠ وأنت بقى عمرك كام ٠٠؟

قال متلعثما :

ـ آه ٠٠ آهو برضه حاجة زى كده ٠٠

ـ لا ياعزمى ٠٠ بلاش كدب ٠٠ انت أصغر من كده بكثير ٠٠

ـ وفيها ايه يعنى ٠٠ ؟ كلها محصلة بعضها ٠

ولمست لهجته الصادقة الحماسية وترا فى قلبها ، فأمالت رأسها الى الوراء فى نشوة الأنثى المرغوبة ٠ وأحست بسنوات عمرها تتضاءل ، وتنكمش الى ماقبل الثلاثين ، وتمنت فى تلك اللحظة لو أن عزمى اعترض حياتها قبل أن تلتقى بزوجها السابق ٠ لوفر عليها كل ماقاسته من عذاب فى حياتها الزوجية٠٠

وتنبهت من أفكارها على رعشة خفيفة فى المنضدة تحت مرفقها ، وفى اللحظة التالية تنبه عزمى الى ساقه المضطربة تنتفض فى عصبية تحت المنضدة ، وضحك الاثنان ٠ ثم عادت تقرأ ساعتها وتهتف فى عجلة :

ـ ياه٠٠ داحنا قعدنا كتير٠٠وافتكر انت دلوقت مقتنع بوجهة نظرى ٠ واستأذن أنا بقى أحسن الاولاد لوحدهم فى البيت ٠

وهمت بالوقوف ، فاستوقفها بتمتمة مستجدية لكنها أكملت نهوضها والقت اليه بنظرة رثاء فى جلسته المنهارة وقالت :

ـ ماتزعلش منى ياعزمى ٠٠ آنا مش حاقدر أسعدك ٠

فهتف وهو يهم واقفا :

ـ مش معقول ٠٠٠

واكملت حديثها دون أن تعلق على اعتراضه :

ـ ٠٠ أنت شاب وقدامك مستقبل كبير ٠٠ وبكرة تلاقى بنت الحلال اللى تسعدك ٠٠ فهز رأسه فى يأس ، وهو يتمتم فى حسرة :

ـ مافتكرش ٠٠

وكانت قد خطت نحو الباب ، فتبعها فى ذلة ، ولما وصلا الى الرصيف ، مدت يدها تصافحه فى ود واعزاز ، وضغطت يده المتخاذلة مواسية مشجعة وقالت :

ـ تأكد يا عزمى انى حافضل أختك وصديقتك الى الأبد ٠٠٠

فارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة ٠ ثم عض شفتيه السفلى فى ضيق كانما يقاوم رغبة فى البكاء ٠ وعاد يلح فى توسل :

ـ لى رجاء أخير ٠٠

ـ تحت أمرك ٠٠

ـ أرجوكى ماتقفليش الباب مرة واحدة ٠٠ سبينى أعيش على الامل ٠٠ أوعدينى انك تفكرى ٠٠ أنا مش مستعجل ٠٠

ولم تجد باسا من تلبية رجائه ، مادام لن يضيرها فى شىء ٠ وابتسمت قائلة :

ـ وهو كذلك ٠٠ أوعدك ياعزمى ٠٠

كانت تود مخلصة أن توفق الى قرار يرضيه ٠ ويرسم البسمة على ملامحه الطيبة ٠ ولكن ماحيلتها والموضوع خارج عن ارادتها ٠٠ انها تأبى على كرامته أن تمنحه جسدها وحده بينما قلبها فى قبضة شخص آخر ٠

وعندما أراحت رأسها على الوسادة آخر الليل لم تستسلم للنوم ، وراحت

تفكر فى حكاية عزمى • راجية أن تجد منها مخرجا لا يجرح كبرياءه • وأخذت ترتب أفكارها وتختار ألفاظا رقيقة تضع فيها رفضها •

وتشعبت آراؤها ، ووجدت نفسها تقارن بين ميزات زوجها السابق وزميلها عزمى ••• فوجدتهما على طرفى نقيض •• عزمى شاب خجول مهذب ، بينما الآخر عجوز جرىء عصبى، سرعان ماينفعل لأتفه الاسباب • وكان عزمى مجدا دؤوبا وان كانت عقليته لا تصل الى نبوغ طليقها الذى كان بوهيميا كسولا مبعثرا فى كل شئونه • أما الميزة الكبرى التى يتصف بها عزمى فهى اخلاصه المتفانى لمن يحب على عكس طليقها العاق الأنانى •••

وراح ذهنها يزن كلا الرجلين فى ميزان العقل ، فاذا بكفة عزمى ترجح عن جدارة ، وسرعان مايتدخل قلبها الذى تفتح على حب الانسان الاول فى حياتها •• ويصر على أن يكون حبها الاخير أيضا •

كان أستاذها فى كلية الآداب ، شعلةمن الذكاء والانطلاق•فنانأصيل•• فى تأملاته الساهمة ، ولفتاته اليقظة ، فى سكناته الشاردة وفى تدفق أفكاره اللماحة ، حتى مظهره كان يوحى بأنه انسان غير عادى، شعره الخفيف الأشعث فوق رأسه الضخم ، وجناته الغائرة ، وأصابعه الرفيعة الطويلة ، وربطة عنقه التى لا تستقر فى مكان واحد •

بهرتها شخصيته الطاغية ، وتمثلت فيه فارس أحلامها • ولم يستعص على ذكائه أن يقتحم أفكارها ، ويدرك ولعها به ، ومن ثم سهل عليه غزو قلبها دون مقاومة تذكر •• الا من حياء حريص تتحسس به طريقها الى رأسه قبل أن يعرض عليها الزواج • لكنه اشترط عليها أن تتفرغ لبيته • فضحت راضية بليسانس الآداب ، ولم تشأ أن تصطدم بانانيته فى أول الطريق • كانت على استعداد أن تمنحه من روحها وشبابها وراحتها حتى توفر السعادة التى تنشدها له •

تفرغت لرعايته والتفانى فى خدمته • كانت تعامله كطفل مدلل ، أو كآنية بلورية ثمينة تخشى عليها من الكسر ، وكانت تحس بسعادة غامرة عندما تجلس بجواره الى المائدة فتقطع له اللحم وتخليه من العظم حتى لا يجد مشقة فى تناوله ، ولا تتورع أحيانا عن اطعامه بيدها عندما ترى شهيته منصرفة عن الطعام الى تفكير عميق • وكانت تحلق له ذقنه بنفسها وهو مضجع فى استرخاء أو بينما يستغرق فى القراءة ، ثم تلبسه ثيابه قطعة بعد أخرى كطفل كسول اعتاد تدليل أمه الحنون ، ثم تركع أمامه فى بساطة لتضع الحذاء فى قدميه بعدما تعيد تلميعه بحركة آلية مهما كان نظيفا •

أما أسعد لحظات حياتها ، فكانت عندما تجلس الى مكتبه ليملى عليها مؤلفاته وكتبه • ثم ثابرت على تعلم الآلة الكاتبة حتى تستطيع أصابعها أن تجارى تفكيره السريع •• وتنسى نفسها معه حتى تتعالى كومة الاعقاب فى منفضة السجاير وتتنبه الى صوته المجهد ، فتقنعه بالذهاب الى مخدعهما ، حيث يتوسد ذراعها فى استرخاء ، وتظل تتأمل ملامحه وهو ينحدر الى الغيبوبة ، فترتخى عضلات وجهه المتوترة ، وتتوارى نظراته المتقدة بالذكاء خلف أجفانه المسدلة ، ثم تنتظم أنفاسه

المشبعة برائحة القهوة والدخان . وأحيانا كانت تقرأ له فى كتاب وهو مسترخ فى سريره حتى ينام . وهنا فقط تشعر بمتاعب النهار المرهق تتجمع على جسدها المكدود ، فتستسلم للنعاس على أن تستيقظ قبله فى الصباح التالى، لتبدأ يوما جديدا مع معبودها الكبير ، وهى أكثر ماتكون نشوة ونشاطا .

وتضاعف ارهاقها بعد أن أنجبت له أبناءه الثلاثة ، ولم تكن تسمح لأحد منهم أن يقتطع جزءا من روتينها اليومى مع رب الأسرة . بل كانت تتغاضى أحيانا عن بعض مطالب أبنائها تاركة اياها للخدم ، لا عن اهمال لشئونهم ، وانما لأنها لا تملك سوى يدين اثنتين فقط ، سخرتهما لخدمة الزوج المتأله أولا وقبل أى انسان .

وكان فارق السن والثقافة بينهما يضفى عليه هالة من الجلال والجبروت ، وتتفاعل شخصيته الجارفة مع قلبها العاشق ، فتكاد تتعبد فى محرابه ، وتستعذب الخضوع لمشيئته وتتقبل تعسفه فى رضا وقناعة ، كما يتقبل العبد المؤمن قسوة القدر . حتى عندما تنبهت لخياناته المتكررة ، وتصرفاته العربيدة خارج البيت ، كانت تتعاضى عن كبريائها ، ولا تتورع عن غسل مناديله الملونة بخيانته فى غفلة من أعين الخدم ، ابقاء على ماتبقى من كرامتها وحرصا على سمعة رب البيت فى حدود مملكته الصغيرة .

وحاولت أن تفهم لماذا هجرها معبودها ، ليرضى غرائزه عند غيرها من بنات حواء . واستنجدت بمعلوماتها فى علم النفس ، لتسبر بها غور هذا الاله الجبار ناكر الجميل . فخطر لها من تحليل تصرفاتهما معاً أنها كانت تمنحه حنان الام وتفانيها وتدليلها وايثارها ، بينما هو ينشد الى جوار هذا عشيقة تروى طبيعته الثائرة . لكنها عندما حاولت أن تطور أمومتها الى تصرفات غانية تثير غرائزه ، اتضح لها أن طبيعته النهمة الانانية لا تقنع بأنثى واحدة .

ولم تشأ أن تهدم جنتها لمجرد فشلها فى ايقاف نزواته . كانت لاتزال ترى فيه عملاقا تتلاشى ارادتها بجانبه ، وكانت تأمل أن يرتوى ظمأه ويقنع بحليلته . أو يدركه ضعف الشيخوخة فيفرض عليه عفة لا ارادية ، فيثوب الى رشده .

ولكنها رضيت بالظلم والظلم لم يرض بها . ففى احدى الليالى الباردة ، جلست تنتظره كعادتها فى الشرفة والصقيع ينفذ الى عظامها . وتتبعت الدقائق تطوى الليل فى بطء شديد .. ومع شعاعات اليوم الجديد لمحت هيكله الشاحب آتيا من بعيد .. فتنهدت فى راحة واطمئنان.

لكن راحتها لم تدم طويلا . فقد أفقدته الخمر سيطرته على لسانه وبدأ يثرثر بعبارات غريبة عن الطلاق والزواج ، وميزت من بين كلماته المخمورة اسم امرأة غيرها مسبوقا بلفظ .. حبيبتى ..

ولعبت برأسها الوساوس ، وراح فضولها يستدرجه الى افشاء مزيد من خباياه نفسه .. وقبل أن يغلبه النوم كانت قد عرفت منه أنه زوج لامرأة أخرى . !

وفى الصباح فوجىء بعينيها الحمراوين تنبئان عن سهد ودموع . وبدأ يسترجع

أحداث الليلة السابقة كحلم قديم ، وأدرك أن الحمر ورطته في الاعترافات.. ولكن الى أى حد ؟ لم تسعفه الذاكرة ، وان كانت عيناها ومسحة الكآبة التى تغلف وجهها تؤكد له أن زوجته عرفت مصيرها معه . فخرجت كلماته تتحسس طريقها فى حرص :

ـ الظاهر انى امبارح تقلت العيار شوية وخرفت فى الكلام

فأجابه صمتها المريب بما أكد ظنونه وعاد يسالها بتوجس :

ـ أنا قلت ايه امبارح يانبيلة ؟

ـ قلت الحقيقة اللى ماقدرتش تقولها بشجاعة وانت فايق ...

كانت لهجتها هادئة تقطر مرارة . فلم يجد مناصا من كشف أوراقه ، فقال بصراحة واستهتار كأنه وجد فرصة يزيح بها كابوسا على صدره :

ـ على كل حال الحقيقة مش ممكن تستخبى على طول .. وأنا فى الواقع ما كانش عندى الجرأة عشان أصارحك بها ..

فتطلعت اليه فى ذله وانكسار ، وقالت متماسكة :

ـ ليه ؟ .. انت عارف انى مش ممكن أقف فى سكة سعادتك

وأخجله ردها ، فاقترب من ورائها ، وأمسك بكتفيها ، وقال محاولا تبرير نزوته :

ـ صدقينى يانبيلة ان اللى حصل ده كان غصب عنى

فسحبت كتفيها من بين يديه فى شىء من العنف . واستدارت نحوه ، وهتفت بحدة وهى تغرس نظراتها فى عينيه :

ـ أظن مفيش داعى تبرر موقفك .. كان لازم اتوقع مصيرى ده من زمان .. من يوم ما اكتشفت خيانتك الأولى .

ـ احنا بشر يا نبيلة .. وماندرش نتحكم فى قلوبنا .

فقالت فى لهجة حاسمة لتبتر الموقف المهين :

ـ .. ودلوقت .. ايه طلباتك ؟

فانحنى يلتقط حذاءه حتى يتفادى نظراتها العاتبة ، وقال وهو يلبس حذاءه لأول مرة وحده :

ـ .. أنا حاولت كتير أشوف حل وسط للمشكلة دى .. لكن ..

ـ بلاش تضايق نفسك عشانى .. واردفت بتهكم مرير :

ـ .. ومن امتى كان لى راى أو حقوق عندك .. ؟

ـ أرجوكى تفهمينى بس ..

ـ أنا فاهماك كويس .. انت زى الطفل المدلل ، كل مايشوف لعبة جميلة يتسبط فيها ، ولازم يغتصبها حتى لو كانت بتاعة غيره .. وبعدين يكسرها ويرميها ..

ـ نبيلة.. ! .. انتى ازاى بتكلمينى باللهجة دى .. ؟

ـ آسفة لأنى تجرأت على الاله اللى باعبده .. لكن برضه احنا بشر .. بس تأكد انك لو فكرت ترجع فى أى وقت حتلاقى الباب مفتوح .

واستدارت فى أنفة وكبرياء ، وخرجت من حجرته مرفوعة الرأس متماسكة الاعصاب . ولم تعد تراه .. فقد غادر البيت الى غير رجعة وان ظلت صلته بأبنائه متقطعة .



ولم تحاول نبيلة أن تقف حائلا بين أطفالهـــا وأبيهم ، حتى لا تحرمهم من رعايته وتوجيهاته ، والفخر بانتسابهم اليه .. حتى اذا ماعـاد اليهم يومـا ، لا يلمسون هوة عميقة تفصلهم عنه .

وبدأت تتفرغ لابنائها ، وترى ملامحهم الموروثة عن أبيهـم تتطور الى نمـــاذج مصغرة من معبودها الكبير .

ثم أرغمتها الحاجة الى مضاعفة جهودها لتحفظ لهم مستوى ماديا مناســـبا .. فاخرجت شهادتها المخزونة ، ونزلت بها الى ميدان العمل . انها تكافح فى صبر ، ونصب عينيها أمل بعيـــد ، وقد يكون قريبا .. أقرب مما تظن .. لكنه على أى حال أملهـــا الاكبر .. الذى تعيش به .. وله ..

وبعد أيام كانت تجلس مع زميلهـــا عزمى فى نفس المكان . كانت قد أعدت له فى ذهنها قائمة باعذار واهية لم تقنع لهفته ، فاضـــطرت أن تخرج له خفايا قلبهـــا ، وأطلعته على تفاصيل حبهـــا الاول .. والاخير .. فقال مشفقا :

ـ وافرضى انه مارجعش .. حتعيشى راهبة كده على طول .. ؟

فهتفت باصرار وحماس :

ـ أيوه ياعزمى .. حافضل أنتظره كل يوم وكل لحظـة لأنى متاكـــدة انه حيرجع ..

ثم استطردت وهى تحدق فى الهواء بعينين ساهمتين ، كأنها تخترق حجب المستقبل بنظراتها المتفائلة :

ـ .. ضرورى حيرجع لما يزهق من حيـــاته الصـــاخبة .. ويحن لرعاية الامومة .. ساعتها حيلاقى دراعى ممدود له .. عشان يرتاح عليه من جديد .

ديك سقراط

متولى

للكاتب ليوبولدو آلاس

ترجمة : كامل عبد المجيد

ليوبولدو آلاس كاتب اسباني ولد في مدينة (زامورا) الا انه قضى معظم حياته في (أوفيدو) حيث شغل كرسي الفلسفة بالجامعة . وليبولدو من أحسن نقاد عصره هذا بالاضافة الى أنه أيضا قصاص وروائي استطاع أن يطور - بنجاح عظيم - فن كتابة القصة القصيرة في بلده

وقصة ((ديك سقراط)) هي احدى قصص مجموعة قصصية نشرت للمؤلف في كتاب يحمل نفس العنوان وصدر في برشاونة عام ١٩٠١

بعد ان أغمض (كريتو) عيني استاذه سقراط واقفل فمه، ترك اتباعه الآخرين ملتفين حول الجثة وخرج من السجن عاقدا العزم على أن ينفذ - في أقرب فرصة - وصية سقراط الاخيرة له . وعلى الرغم من الاحتمال القائل بان سقراط قد ابدى هذه الرغبة على سبيل المزاح ، الا أن كريتو عقد عزمه على تحقيق هذه الرغبة بحذافيرها، لاحتمال آخر ، هو أن يكون سقراط جادا في طلبه.

فحينما كان سقراط يلفظ آخر انفاسه ، رفع دثاره الذي غطى به جسده ليخفي عن تلاميذه منظره الحزين في ألمه وقال آخر كلماته :

« كريتو .. ان في أعناقنا دينا لاسكولابيوس .. فنحن مدينون له بدين .. فلا تنس أن ترد له الدين »

ولم يفه بشيء بعد ذلك .. لأن روحه كانت قد صعدت الى بارئها .

وهكذا أصبح هذا الدين مقدسا في عيني كريتو . لم يشأ ان يناقش او يحلل هذه الرغبة .. ولم يحاول أن يتحقق اذا ما كان سقراط يتكلم على سبيل المزاح او التهكم ، او انها كانت فعلا وصية استاذه الاخيرة .. ألم يكن سقراط دائما يحترم المعتقدات الدينية الشائعة وهي الدين الرسمي للدولة.. هذا على الرغم من اتهامات (انيتوس) و (ميليتوس) . من المؤكد أن سقراط قد خلع على الاساطير شخصية رمزية فلسفية وطابعا ساميا مثاليا (على الرغم من أن كريتو لم يكن يسميها «أساطير» بالطبع) وذلك بفضل تفسيراته الشعرية و (ميليتوس) . من المؤكد أن سقراط يحترم عقيدة اليونانيين ، الديانة الايجابية ، وعقيدة الدولة ... وقد

تجلى ذلك بوضوح في قصة جميلة تضمنها خطاب سقراط الأخير (حيث لاحظ كريتو ان سقراط ـ على الرغم من اسلوبه الخاص فى السؤال والجواب فى مثل هذه الخطب ـ فانه كان ينسى مستمعيه فى بعض الأحيان ويطيل فى حديثه ذى الاسلوب المنمق) .

لقد صور سقراط عجائب العالم الآخر فى تفاصيل «توبوغرافية» كخريطة للارض تتوافق مع التفكير التقليدى اكثر مما تتفق مع المنطق الجاف والفلسفة الصارمة . ولم يذكر سقراط انه لا يؤمن بكل ذلك ، على الرغم من انه لم يستطع ان يؤكد حقيقة ما وصفه فى اقتناع المتعصب العنيد .. ولكن ذلك لا يستوجب العجب ، فعلى الرغم من آراء سقراء الخاصة ، التى شرحها فى دفاعه عن خلود الروح ، فانه اعترف ـ متجاهلا خيالاته وكبرياءه ـ بالامكانية الميتافيزيقية التى تقول ان الأشياء قد لا تطابق الوصف .. فى ايجاز ، لم يخطر ببال كريتو انه يسير فى اتجاه مخالف لمذهب استاذه او سلوكه فى بحثه عن ديك ، لكى يقدمه بأسرع ما يمكن الى اله الطب .

ولم يكد كريتو يبعد مائة خطوة عن السجن الذى كان يرقد فيه سقراط حتى شاهد على قمة سور فناء صغير ، ديكا بديع الريش .. كما لو كانت العناية الالهية قد تدخلت فى الأمر وبعثت بهذا الديك الى هذا المكان بهذه السرعة . كان الديك قد قفز لتوه من احدى الحدائق فوصل الى قمة السور ، وكان على وشك الهبوط الى الطريق .. كان ديكا هاربا .. حرر نفسه من قيد تعس .

تكهن كريتو بوجهة الطائر ، وانتظره حتى يقفز الى الطريق ليستطيع مطاردته واللحاق به ، وذلك بعد ان دخل فى روعه ان هذا الديك بعينه .. ولا ديك غيره .. هو الذى يريده (اسكولابيوس) قربانا . فحين يتقبل الانسان ـ ولو لمرة واحدة ـ أفكارا دينية ـ ومشاعر غير معقولة ، فانه لا يمانع فى الايمان بالخرافات التى يؤمن بها الاطفال ... وبهذه الطريقة فسر كريتو لنفسه مطابقة ظروف لقائه بالديك فى نفس اللحظة التى بدأ فيها البحث عنه .. فسر ذلك على أنه مشيئة الآلهة . ولكن .. كان من الواضح ان الديك لم يكن من رأى كريتو ، لان الديك أخذ يجرى مرفرفا بجناحيه ومقرقرا حينما رأى رجلا يطارده ، مظهرا بذلك الدليل على بالغ ضيقه من المطاردة .

وسرعان ما تعرف الطائر على شخصية مطارده ، **لأنه كثيراً ما رآه** فى حديقة سيده فى نقاش محتدم حول الحب والبلاغة والجمال .. وغيرها ، **بينما ـ أى الديك ـ يمارس اغواءه لمائة** دجاجة فى دقيقة واحدة دون ان يلجأ الى هذه الفلسفة الطويلة .

« حسن !! انا الآن فى ورطة لا أحسد عليها » هكذا بدأ الديك يفكر أثناء استعداده للطيران الذى كان قادرا عليه لو ضمن البعد عن موطن الخطر .

« وهكذا يصر هؤلاء الرجال العقلاء ـ الذين ابغضهم ـ على امتلاكى على الرغم من ان هذا يتعارض مع جميع القوانين الطبيعية التى يعترفون بها .. سيكون من المؤسى حقا ان اقع فى قبضة هذا الشيطان البائس ... هذا المفكر صاحب الافكار المنقولة ـ بعد ان حررت

نفسى من عبودية سيدى الثرثار السابق » .

ثم جرى الديك والفيلسوف فى أعقابه .. وحين كان على وشك الامساك به صفق الديك بجناحيه وطار بنصف قفزة ـ مستعينا فى ذلك بالقوة التى أمده بها الخوف ـ ليقف فوق راس تمثال .. ولم يكن هذا التمثال سوى « بالاس أثينا » .

« أوه ! أيها الديك الوقح » صرخ **الفيلسوف ثائرا فى تعصب وكانه احد** قضاة محاكم التفتيش .

بعد ان أسكت كريتو الاحتجاجات الدينية المتصوفة الزائفة فى ضميره الطبيعى والتى كانت تقول له « لاتسرق الديك » فكر قليلا ثم قال : « انك الآن تستحق الموت لتدنيسك المقدسات .. سوف تكون لى .. وستكون القربان المطلوب » .

ثم وقف كريتو على أطراف أصابعه رافعا رأسه الى أقصى ما يستطيع ثم قفز الى أعلى والى أسفل بطريقة مثيرة للضحك ، ولكن ذلك كله كان عبثا .

عندئذ قال الديك لكريتو فى لغة يونانية جديرة بجورجياس نفسه :

« أيها الفيلسوف المثالى المعقد .. لا تزعج نفسك ، فانك لا تستطيع الطيران الى ارتفاع ما يستطيع الكتكوت ماذا ؟ أتدهش لمقدرتى على الحديث ؟ لماذا ؟ الا تعرفنى ؟؟ انا احد ديوك مخزن غلال جورجياس ، وأنا اعرفك ... ما انت سوى ظل .. نعم .. ظل رجل ميت .. وهذا هو مصير الاتباع الذين يعمرون اكثر من أساتذتهم ، انهم يعيشون كالاشباح ليخيفوا الاطفال .. يقضى الحالم الملهم ويترك خلفه أتباعا مقصوصى الاجنحة .. لا يصنعون من المثال الشعرى والرؤيا السامية الا سببا جديدا للخوف وحزنا جديدا للعالم وخرافة متحجرة » .

ـ « اصمت ايها الديك ... باسم نوعك .. الطبيعة تأمرك أن تسكت »

ـ « انا اتكلم وانت تقرقر حول فكرة .. اسمعنى ! انى اتكلم دون استئذان فكرة نوعى .. ولكن من خلال قدرتى كفرد .. فبواسطة سماعى الكثير عن علم البيان ـ فن الكلام من اجل الكلام ـ تعلمت شيئا من هذه الصناعة » .

ـ «والآن تدفع الثمن لسيدك بهروبك منه وترك منزله وانكارك لسلطانه ؟ »

ـ « ان جورجياس مجنون مثلك ولو أنه اكثر لطفا منك . ان المرء لا يستطيع الحياة مع مثل هذا الانسان فهو يحاول اثبات كل شىء وهذا يفقد الصواب ويسبب الحيرة والارتباك .. ان الانسان الذى يثبت كل شىء فى الحياة يتركها خاوية لا معنى لها .. ان نعرف سبب كل شىء .. ان نعرف (لماذا ؟) كل شىء .. معناه ألا نجد سوى هندسة الأشياء وجوهر لا شىء .. وبذلك نجعل من العالم مجرد معادلة رياضية ... وهذا أيضا معناه ان نترك العالم دون راس او اقدام .. اسمع ... امض فى طريقك لانى استطيع الحديث فى هذا الموضوع سبعين يوما وليلة .. وتذكر انى ديك جورجياس السوفسطائى » .

ـ « لأنك سفسطائى كاذب ، ولتدنيسك المقدسات ، وتحقيقا لمشيئة الاله (زيوس) يجب أن تموت ... فاستسلم » .



ــ « ليس لك .. فلم يولد بعد ذلك المثالى صاحب الافكار المنقولة الذى يستطيع أن يضع يده على.. ولكن لماذا كل ذلك ؟ ماهذه القسوة ؟ لماذا تقفو أثرى وتطاردنى هكذا ؟ »

ــ « لأن سقراط طلب منى فى احتضاره أن أضحى بديك لاسكولابيوس كدليل شكر .. وذلك لأن اسكولابيوس قد منحه الصحة الحقيقية بتحريره اياه ــ بالموت ــ من كل علل الحياة » .

ــ « هل قال سقراط كل هذا ؟ »

ــ « لا ! بل قال لى اننا ندين لاسكولابيوس بديك » .

ــ « وتمنيت انت الباقى ؟ » .

ــ « وما هو المعنى الآخر الذى تحمله هذه الكلمات ؟ »

ــ «معنى أكثر كرما .. معنى لايحوى الدم أو الخطأ .. ان قتلى ارضاء لاله لم يؤمن به سقراط هو بعينه اساءة

الىسقراط ، بل اهانة للآلهة الحقيقيين ان تسبب لى اذى فوق كل مقياس ، لأنى فى الحقيقة حى وبرىء .. كما انه ليس لدينا التصور الكافى لكل الحـزن والألم الذى قد يحويه سر الموت » .

— « ان زيوس وسـقراط يريدانك قربانا » .

— « لاحظ ان سـقراط كان يتحدث بتهكم وسخرية .. سخرية العبقرى الهادئة غير اللاذعة .. لقد كانت روح سقراط العظيمة تستطيع انتلهو وتسلى نفسها — دون خطر — باللعبة السامية الا وهى تخيل توافق العقل والاوهـام الشائعة .. ان سـقراط وكل خالقى حياة روحية جديدة يتحدثون بالرموز، وهم اهل بلاغة ، فبالرغم من معرفتهم للاسرار التى وصـلوا اليهـا فانهم قد احترموا مكنوناتها ولم ينطقوا بها .. وهم حين يتحدثون عنها يلبسونها ثوبا شعريا .. والحب الالهى للمطلق يلجأ الى نفس هذه الوسـيلة لمخاطبة الروح .. ولكن راقبهم حين يتحولون عن هذا الاسلوب العظيم ليعلموا العالم ؟ أى دروس قاسـية وموجزة تكون ؟ كيف تخلو افتراضاتهم الاخلاقية ومثلهم من الصور والخيالات الجوفاء » .

— « يا ديك جورجيـاس ! امسـك لسانك ومت » .

— « ايها التابع المسـكين .. اذهب بعيدا واصمت .. اسكت الى الابد .. كلكم سواء يا اتباع العبقرية ... انكم شهود عميان صم عن المناجاة السامية للضمير ذى المنزلة المرتفعة .. فمنخلال اوهامه وتخيلاتكم تظنون انه بامكانكم ان تخلدوا خلاصـة روحـه بان تحنطوا عقيـدته بالعقـاقير والقواعد ... لكى تحصلوا على صنم .. انكم تصنعونمن جسده جثة محنطة .. مومياء .. انكم تجمدون الفكـرة وتصنعون من الافكار الرقيقة سيفا تريقـون به الدماء ... نعم !! « انكمرمز « للانسانية » الطائفية المسكينة .. فمن آخر كلمـات قديس عاقل تستبيحون لانفسـكم ان تسيلوا دمـاء ديك — كخطوة أولى — اذا كان سقراط قد ولد لكى يؤكد خـرافات قومه ، فانه لم يكن ليموت للسببالذى مـات من أجله ولم يكن ليصبح قديس الفلسـفة .. ان سـقراط لم يؤمن باسكولابيوس ولم يكن يستطيع انيقتل ذبابة .. لا ديكا .. لمجـرد ان يطيب خاطر التافهين » .

— « لسوف ألتزم بكلمات سقراط .. تعال .. الآن » .

وبحث كريتو حـوله عن حجـر ثم صوبه نحو راس الديك .. وقذفه به .. فبدات الدماء تسـيل من عرف الديك ، ثم فقد ديك جورجياس وعيه وسقط على الارض .. واثناء سـقوطه صرخ !

« كو كا .. كو .. كا .. كووك .. »

لا مفر من المصير ... لقد نفـذت مشيئة الحمقى وسـالت دمـاء الديك أسفل الحجر الدامى الذى صنعت منه جبهة تمثال « بالاس أثينا » .

رسائل مكسيم جوركي

بقلم : خيري حماد

ما أكثر ما كتب عن مكسيم جوركي في مختلف لغات العالم ، وما أصدق الذين وصفوه بأنه من أعظم كتاب القصة في القرن العشرين ، والاخير في سلسلة الروائيين العظام ، الذين أنجبتهم روسيا ، والذين احتلوا مكانة لا تضاهى في الأدب العالمي ، من أمثال تولستوى ، وديستويفسكي وترجينيف وبوشكين وتشيكوف •

يقول بعض النقاد ، وهم من الغربيين طبعا ، ان جوركي ، سياسي متصنع ، وأديب مطبوع • وهم في هذا يحاولون ، الحط من قيمة كتاباته الاخيرة ، اى في عهد الثورة ، وعلى اعتبار أن ما وضعه من قصص بعد الثورة ، وحتى وفاته في عام ١٩٣٦، كان من الطراز السياسي الذي يناصر الثورة الشيوعية • لكن هؤلاء النقاد ، لم يستطيعوا قط الطعن في فنه كقصصي موهوب ، وفي عبقريته كاديب مطبوع ، وانما اقروا به كعلم من أعلام القصة في العالم ، وفي القرن العشرين بالذات• وهم يقولون، انه وقد ولد بين المتاعب والشقاء • وحرم من نعمة التعليم والثقافة ، كان يكتب ، لأن الكتابة جزء من طبيعته الموهوبة ، وكانت كتاباته رائعة ، لأن عبقريته في التعبير الأدبي عما يعتمل في صدره من مشاعر وأحاسيس كانت تدفعه الى الابداع والروعة •

ولد مكسيم جوركي ، واسمه الحقيقي ، الكسى مكسيموفيتش بيشكوف في بلدة نجنى نوفجورود ، التي اسمتها الثورة فيما بعد باسمه ، تخليدا لذكراه في السادس والعشرين من مارس عام ١٨٦٨ من أسرة فقيرة عانت شظف العيش ، ومتاعب الفاقة• وفقد والده وهو في نعومة أظفاره ، فحضنته جدته لأمه ، وعهدت به وهو في التاسعة من عمره الى صانع أحذية في البلدة ، ليعلمه مهنته • لكن جوركي كان منذ صباه الباكر ، يتصف بمزاج ثائر قلب ، لا يستكين الى حال ، ولا يرضى بوضع • فراح ينتقل من مهنة الى أخرى ، دون أن يقضي في أى منها الا بعضا من وقت • فعمل مساعدا لاحد المساحين، ومعاونا لطباخ سفينة صغيرة من السفن التي تمخر عباب الفولجا ، وعاملا فيمصنع للبسكويت ، وبائعا جوالا، وفردا في احدى فرق «الكورس»

التى تجوب أنحاء البلاد ٠ وابتسم له الحظ أخيرا فعمل كاتبا عند محام من أبرز المحامين فى محيطه ، فتأثر بالجو الفكرى الذى عاش فيه وارتاح اليه ، وراحت مواهبه الادبية تبرز فى الميدان ، لتثبت اصالتها يوما بعد يوم ، ولتحقق له المكانة الادبية البارزة التى توصل اليها ٠

واستمد جوركى من تجاربه فى هذه المهن المختلفة التى زاولها ، والتى أثرت على حياته ، المادة التى ضمنها قصصه الرائعة ، وكان أبرزها أثرا ، التجارب التى مر بها وهو يعمل على ظهر السفينة النهرية ، أو فى مكتب المحامى ٠ ومن مرارات البؤس التى عاشها فى طفولته وسنى شبابه المبكر ٠ صور جوركى أبطاله فى صورة الثائر الاجتماعى الذى أحس أنه فقد كل صلة له بالعالم ، والذى لا يجد مجالا للتعبير عن سخطه ونقمته الا فى الاحتجاج الصامت ٠

وأصدر جوركى أول قصة له بعنوان « ملكار شودرا » فى عام ١٨٩٢ ، لتعقبها قصص أخرى ، كان لها الفضل فى تثبيت أقدامه ، كاديب ناشىء موهوب ٠ وفى عام ١٩٠٠ أصدر جوركى قصة عاطفية بعنوان « فوما جورديف » ، اتبعها بعدد من القصص التى صور فيها حياة التشرد التى عاناها فى صباه ٠ ولا ريب فى أن عبقريته تجلت فى هذه الناحية ، اذ أنه لم يحقق النجاح المطلوب فى تصويره للطبقات العليا التى كان يفتقر الى التعرف اليها ٠ ولعل أروع الشخصيات التى خلقها تمثل أفرادا يعيشون فى صراع مع مجتمعاتهم ويتمكنون من السمو بأنفسهم على ما يحيط بهم من مظاهر التعفن والفاقة ٠

وخرج من روسيا فى عام ١٩٠٦ ، ليطوف فى أنحاء أوربا وأمريكا ، داعيا الى قضية الحرية فى بلاده التى تعيش فى ظل استبداد القياصرة وبطاناتهم ، واستقر به المقام أخيرا فى كابرى فى ايطاليا ، ليعود فيفارقها ، عائدا الى وطنه قبيل الحرب العالمية الأولى ٠ وأصدر مجلة راح يبشر فيها بالحرية والثورة والجمهورية ٠ وعندما شبت الثورة فى عام ١٩١٧ ، كان من أوائل أعوانها ودعاتها ، وظل على عهده لها الى أن فارقته الحياة فى عام ١٩٣٦ ، فبكى فيه العالم أديبا من أكبر أدبائه ، وقصصيا من أعظم كتاب القصة على الصعيد العالمى ٠

والمكتبة العالمية ، تضم عشرات الكتب من قصص وروايات ومسرحيات وضعها جوركى ، بين عامى ١٨٩٢ و ١٩٢٦ ، وفىمقدمتها بالاضافة الى ما سبق ذكره « ست وعشرون رجلا وفتاة واحدة » و « ثلاثة من الرجال » و « المنبوذ » ، و « مخلوقات كانت من الرجال » و « المتفرد » و « الرفاق » و « الجاسوس » و « الأم » و « الأعماق الدنيا » و « اعتراف » و « طفولتى » و « قصص بلا دين » و « فى العالم » و « ذكريات عن تولستوى » و « ذكريات طفولتى » وغيرها كثيرا ٠

ومعظم أبطال هذه القصص من الطراز الفاشل على الصعيد الاجتماعى ، اذ أنه يصورهم ، عاجزين عن أن يفعلوا فى طريق الاصلاح ، أكثر من مجرد الاقرار بالعجز ، عندما يحاولون الانتقال من مرحلة القول الى العمل ٠ ولكن مهما قيل فى شخصيات هؤلاء الابطال ، فان الحقيقة التى لا يستطيع أحد نكرانها ، هى أن جوركى ، كان بارعا

براعة دستويفسكي، في تصوير الطبقات الاجتماعية « البليدة والجامدة » التي تؤلف العالم السفلي في جميع المدن الكبرى في عصرنا الحديث .

ويقول النقاد ، ان جوركي ، كاتب يصور الطبيعة أكثر من تصويره للواقع - وذلك لأنه يكتب عن الطبيعة ، وعن الناس على النحو الذي أوجدتهم الطبيعة فيه ، دون أن يحاول ادخال أي تزويق على شخصياتهم ، وهو لا يمت بأي حال من الاحوال ، الى مدرسة أولئك الذين يحاولون المبالغة في التأكيد على الجانب المزخرف من الحياة . فلقد صور ، شأنه في ذلك شأن دستويفسكي ، المناظر المرعبة ، والاشخاص الذين يبعثون في النفوس التقزز ، ولكنه وهو يفعل ذلك ، انما كان ينساق وراء الغاية التي يهدف اليها من تصويره هذا ، لا تمشيا مع واقعها .

ويجمع هؤلاء النقاد أيضا على أن على كل من يرغب في فهم الشعب الروسي ، أن يدرس جوركي ، دراسة عميقة . فهو يستطيع أن يفهم منه أمورا . ما كان في وسعه أن يتفهمها عن أي طريق آخر . ويحاول بعضهم مقارنته بالقصصي الانجليزي دانيال ديفو ، لكن الصور الادبية التي رسمها للنماذج الانسانية ولظواهر الطبيعة ومرئياتها ، تبز أية صور من نوعها في عالم الادب ، لا في العصر الحاضر فحسب ، بل في العصور الماضية أيضا . وفي كتاباته يبدو المزاج السلافي بعقليته الميالة الى الخيال ، مقرونة بالنظرة المادية التيوتونية الى الحياة ، في مرئياتها الاقتصادية والاجتماعية .

ولعل الظاهرة المميزة لكتابات جوركي ، هي حبه الصادق العظيم لشعبه وبلاده ، فنحن نلمس فيها التوق الملتهف الى حياة أفضل للمجتمع الروسي . ولاريب في أن مؤلفاته ، تعتبر كما يقول النقاد تاريخا اجتماعيا وسياسيا هاما بالاضافة الى ما فيها من صور العبقرية الادبية الفذة .

ولقد كتب جوركي بالاضافة الى قصصه القصيرة ورواياته الطويلة ومسرحياته عددا ضخما من الرسائل ، يقدره البعض بنحو من عشرين ألف رسالة شخصية ، ناهيك عن عدد كبير آخر من الرسائل التي يعتقد أنها فقدت أو ضاعت . ولم تنشر هذه الرسائل حتى الآن في كتاب أو مجموعة كتب ، وان كان بعضها قد نشر في بعض المجلات الادبية السوفياتية ، وهي التي ننقل منها هذه النبذ التي عربناها في هذا المقال ، لاطلاع القارىء العربي ، على زاوية ما زالت خفية عليه من أدب جوركي .

ففي هذه الرسائل ، التي كتبت في حقب متعددة من حياة الاديب الكبير، تظهر لنا صورة واضحة كل الوضوح ، عن النفوذ الضخم الذي كان له على زملائه من الكتاب والادباء . فهم يسيرون اليه بمشاريعهم الادبية، وكثيرا ماكان القارىء الاول لكتاباتهم والناقد الصريح المحب لها . لكن جوركي لم يكن يكتفي باسداء النصح اليهم ، وانما كان أحيانا ، بالرغم من شهرته الداوية التي ملأت العالم ، يسألهم النصح والمشورة، بعد عرض مشاريعه عليهم . ولا ريب في أن الاخلاص والصراحة اللذين طبعا عرضه لمشاكله الادبية ونواحي فشله ، سمحا له بان يكون صريحا وواضحا في مناقشة كتابات رفاقه وزملائه . ولا ريب أيضا في أن هؤلاء الزملاء كانوا يستمعون الى

تعليقاته ونصائحه ويقرأونها بعقول نيرة متفتحة ، تحملهم على الترحيب بها بوصفها صادرة عن أستاذ يبزهم حكمة وتجربة ، وصديق يمحضهم النصح والمشورة ٠

ونسوق الآن نماذج من هذه الرسائل :

الرسالة الأولى ـ من جوركي الى زوشنيكو ـ بتاريخ ٢٥ مارس ١٩٣٦

عزيزي ميخائيل ميخائيلوفيتش :

قرأت بالأمس كتابك الأزرق ٠ ولا أدري ان كنت فيحاجة الى تقريظي ٠ أو ان كان هذا التقريظ يهمك ٠ ولكن في وسعي أن أوجز رأيي فاقول ، انك أظهرت في هذا الكتاب موهبتك الفذة ، بصورة أوضح وأروع من سائر كتاباتك السابقة ٠

ومن المحتمل أن يحقق هذا الكتاب بما فيه من ابتكار وابتداع ، النجاح الذي يستحقه في البداية ، ولكن عليك الا تقنط من هذا أو تضيق به ٠ فسيطرتك على أسلوب كتابتك ، لا عيب فيها على الاطلاق ، ولكنني أرى في اختيارك لمادتك بعض الخطأ ، أي أن الحقائق التي تستخدمها في كتابتك ليست من النوع المثالي ٠

لا ادري يا ميخائيل ميخائيلو فيتش ان كنت ترى معي ، انك وضعت كتابا في موضوع الألم على نفس الصورة التي وضعت فيها كتابك هذا ، فان هذا الكتاب سيكون في منتهى الروعة ٠ فليس ثمة من انســـان يستطيع الاقدام على السخرية بالألم ، اذ ان هذا الموضوع كان وما يزال ٠ الشغل الشاغل للكثيرين ٠ ولم يسبق للألم ان اثار أي شعور بالتقزز أو الزراية عند أي انسان ٠ ولما كان الدين قد اضفى عليه قداسته بالحديث عن « آلام الرب » فقد عزفت ألحانه على أول كمان في التاريخ ، الا انها الالحان الأولى في حياة الانسان ٠ ولا ريب في ان لهـذه الحقيقة أسبابهـــا الاجتماعية أيضــا ٠

ولكن في الوقت الذي تحارب فيه الجماهير العادية قبضـــته الخانقة ، حتى ولو كانت هذه الحـرب عن طريق انزال الألم بالآخرين ، أو عن طريق الفرار الى الصحراء أو الهروب الى الدير أو الى بلاد قاصية ، فان الادباء من كتاب وشعراء يسجلون طبيعته العـالمية ويوسعونها ويعمقونهـا ، بالرغم من الحقيقة الواقعة ، وهي ان الرب المتــألم نفسه مل الألام ، وراح ينشــد الخلاص من مرارة كأســـها الطـافح ٠

فالألم سبة في الفكر العالمي ، وعلينا ان نكرهه ونعمل علىتحطيمه ، وقد وضع المنشقون من زمرة تروتسكي أغنية يقولون فيها ٠٠

« علم الشيطان آدم

ان امي قد تحمل بي في ظلال الخطيئه والألم » ٠

فالولادات تحدث الآن ، وفى عصرنا هذا ، دون ألم ، بفضل الجهود التى يبذلها العلم لخدمة الانسانية • ولا ريب فى ان كتابا عن الألم قد يستهل بهذا التطابق ثم يشرع فى بيان ان الادباء قد اغرقوا أنفسهم فى الكتابة عن سير قديسى الكنيسة وشهدائها العظام ، ارضاء منهم للرب ، يكون صالحا كل الصلاح ••

ولقد انتقلت فكرة حتمية الالم كوسيلة للخلاص من الكنيسة الى الفن وأضحت الفكرة الاساسية التى تدور حولها روائع الفن وروائع العلم • وسرعان ما تحولت الكلمة من تسجيل الألم الى توزيع الاحسان اللفظى ، حاملة الناس على التظاهر بالالم والتفاخر باحتماله • وراح الكتاب والشعراء ، وقد حملوا المظاهر البائسة ، يستجدون ثناء الناس والشهرة العالمية ، عن طريق التفاخر الهمجى بالدور الذى يمثلونه كناشرى الكلمات العذبة والجميلة •

ولعل من أروع الامور يا عزيزى ميخائيل ، أن يقبل المرء على السخرية بالمتألمين المحترفين ، والهزء بذلك الرجل ، الذى يضم حبيبته الى صدره ، فينخس دبوس فى ملابسها أصبعه فيحس بالألم ، ويسمح لذلك الألم بقتل حبه ، أو بذلك الرجل الذى يغرق نفسه فى الحديث عن مفاتن القفقاس وجمال الطبيعة فيها ، ثم يسافر اليها ، ويصطدم قدمه بحجر كبير تدمى له أصابعه ، فيروح يلعن هذه الاحجار المخيفة البشعة ، أو بأولئك الناس الذين يسمحون لتفاهات حياتهم الحمقاء ومتاعبها ، بأن تحولهم الى معاداة العالم وكراهيته •

فى وسعك أن تفعل ذلك أيها العزيز ، وأن تجيد ما أقول • وانى لأومن أنك خلقت لهذا الطراز من الكتابة الساحرة التى أرى أنك تتقدم نحوها بكثير من الحرص والحذر • وانى لاخشى أنك تبالغ فى هذا الحرص يا عزيزى •

***

الرسالة الثانية من جوركى الى بريشفين – بتاريخ ١١ فبراير ١٩٢٦

تأثرت بالغ التأثر برسالتك يا ميخائيل ميخائيلوفيتش ، وقد تلوتها والسرور البالغ يغمرنى • ولعلك تفهم أننى وقد اعتبرتك منــذ أمد طويل من أكثر الادباء الروس ابتكارا وابداعا ، ومن المتضلعين تضلعا عميقا بروح لغتنا ، أردت منك أن أعرف رأيك فى كتبى ، وان كنت على ثقة ، من انك قد لا تطريها • وانى لأتعشق مواهبك لا سيما وانحياتك الغريبة تفرض احترامك • فأنت تمثل لى تمثيلا أصيلا وعميقا الشخصية الروسية النموذجية الرائعة • وفى وسعك أن تفهم الآن لم أسعدنى تقريظك لقصتى « الناسك » ولكننى أرى أن الكتاب الذى نشرت فيــه ضم بعض القصص الرائعة الاخرى كقصة « عن الحب » وقصة « الشذوذ » •

وقد تذهل يا عزيزى ، أو تظن أنى أسخر أو أكذب عندما أقول ، ان هذا العام أو العام القادم يسجل الذكرى السنوية الخامسة لبدايتى ككاتب ، ومع ذلك فاننى أشعر باننى لم أحسن الكتابة بعد ، واننى ما زلت فى طور التعلم • وها أنا أبعث

اليك بكتاب آخر ، وضعته بعد المجموعة القصصية الاخيرة ، وكلي رجاء أن تقرأه ، فلقد أحببته وأنا أكتبه ولكنه عندما صدر ككتاب ، عجزت عن قراءته ٠٠٠

***

الرسالة الثالثة – من جوركي الى فيدين – بتاريخ ٢٨ يوليو ١٩٢٤

عزيزي فيدين :

شكرا لك على رسالتك الرائعة ، لأنها أهاجت مشاعري بلفظها ومحتواها ٠ فلقد كتبت فيها تقول وأنت تصف العملية المستمرة فى شحذ شخصيات قصتي « الاخوة سيرابيون » بانك تحس بألم شديد ٠ حقا انني سررت غاية السرور من كلماتك هذه، الا انك تفهم ولا شك ما عنيته من ان شحذ هذه الشخصيات يؤلف عملية مستمرة من عمليات نمو الفردية وهو ما أظنك توافقني عليه ٠ حقا انه تطور اجتماعي موات ٠ وستظل حقب المخاض الفكرى العظيمة كما كانت دائما ثمرة النشاط الفكرى الذى يصدر عن بعض الافراد ٠ ولقد مثلت النهضة الاوربية فى عصورها الزاهرة انتصار الفردية ٠ أو تظن أن النظرة الروسية الواقعية العصرية هى بعث جديد ومماثل لهذه الفردية ؟ انى لأظن على أى حال ، ان الحقيقة الماثلة ، هى ان انسانا جديدا ذا وجود ضخم يولد الآن فى روسيا كنتيجة لما عانته من عذاب واضطراب ٠

ولم أكن فى حاجة الى أن تبلغني بأنك تكتب قصة جديدة ٠ فقد سمعت هذا من كافيرين ولونتس ٠ وانى فى لهفة للاطلاع على انتاجك الجديد اذ أنني واثق من عظمته وأهميته ٠

ويبدو لي من رسالتك ، ان كابوس الكتابة قد تسلط عليك ، وانك بت ترى فيها قدرك ومصيرك ٠ وأحس نفس هذا الاحساس من رسائل سلو نيمسنكى وكافيرين لكن قصته « البرميل » فى منتهى التفاهة والسوء ٠ فهو يعلق خياله فى الهواء ، ويكاد يشبه ذرات من الغبار تلمع فى ضوء الشمس ، ولكنها لا تعني شيئا ٠ انك ان قرأتها لن تفهمها ، ولن تتأثر بها ٠ وان كان الادب لا يؤثر فى الانسان فلا يمكن ان يعتبر كاملا، ولايمكن ان يعتبر فنا أو نثرا أو شعرا ٠٠

ولا تصدق يا عزيزي ٠ ما يقال من ان أوربا تسير فى طريق الزوال لأكثر من سبب ٠ وكل ما يحدث فيها هو ان ما لا ضرورة له يسير فى طريق الزوال السريع ٠ لكن أوربا تقرؤه فى الصحف عنها لا يعدو ان يكون النفع الذى يثيره المهيجون السياسيون ، الذين يفتقرون الى النشاط ، ويسيرون سيرا رتيبا فى اعمالهم ٠ أما ما لا تنشره الصحف ، فهو الحياة اليومية التى تعيشها والتى تعكس صورة عن خضم المشاعر والافكار التى تعتمل فيها ٠ وانا أعني بالحياة اليومية ما تعنيه حقا من مجموعات مركبة من المشاعر والافكار ، ومن حب وكراهية متبادلين بين الناس ، ومن احساس بالحيرة تجاه الحياه ، ومن مشاعر الأصحاء بعد ان يصحوا من كوابيس يرونها فى المنام ٠

وقد قرأت كتابين لليونوف ، أولهما « كوفياتكين » وثانيهما « نهاية رجل

متصنع » • وأرى ان أولهما يشبه الى حد كبير قصة « أرميز دنوبى » لزامياتين ، أو قصة « مدينة أوكوروف » • أما الثانية فكأنها من نتاج دستويفسكى فى كل شيء • وقد طلبت الى ليونوف أن يبعث الى بكل ما يكتبه •

وقد تعثر فى تقرير « اكاديمية العلوم » على شيء من الاطراء والتقدير لشخص يسمى ايلكين ، ولسيدة تسمى سموتريتسكايا لأنهما جمعا ٧٩ عينة تتصل بالحياة فى جزر ماليفيزيا وثقافتهـــا • وأنا أعرف هذين الانســــانين فهــو عامل فى مناجم المعادن ، وهى استاذة فى احدى المدارس • وقد فرا من كولشاك ، وارتحلا أربع سنوات ، يكسبان أودهما اثناءها ، هى عن طريق تعليم اللغات ، وهو عن طريق العمل فى التعدين • وقد جمعا فى رحلتهما هذه ، تلك المجموعة الرائعة ، التى حازت تقدير الاكاديمية •

ها هم ابناء عصرنا • انهم يعيشون فى جبال الاطلس وفى نوميديا القديمة والبرازيل وباتاجونيا • وفى وسعهم ان يعيشوا على القمر • انى اقرأ رسـائلهم ، وارى صورهم على نهر الدون وفى كوبان ونجنى رنو فجورود ، فافرح ، ويغمرنى السرور يا لهم من اناس فى منتهى الروعة • حقـــا انهم رائعون • وهم مازالوا نافعين • فهمهم ان ينفعوا ، وان يفيدوا مجتمعهم بطريق أو بآخر •

***

الرسالة الرابعة ــ من جوركى الى فيدين ــ بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٩٣١

لقد تأخرت فى الرد عليك يا عزيزى قسطنطين الكساندروفيتش ، اذ لم أكد أصحو الى نفسى بعد عودتى من موسكو ، وأنال قسطا من الراحة ، وأفتح بريدى •

وقد سرتنى النغمة الشجاعة التى بدت فى رسالتك ، ومعنوياتك العظيمة ، التى لابد وان تساعدك مساعدة جوهرية واساسية فى مكافحة مرضك العضال • أما انا فقد اصبت بذات الرئه ، ثم شفيت واصابتنى النكسة ثلاث مرات ، بالاضافة الى ما اصبت به من نزلات البرد العادية • أما فى هذا الصيف فقد اصبت وانا فى لينينغراد بالانفلونزا وارتفعت حرارتى الى الاربعين • ولعلك تعرف انى تغلبت على هذه الامراض كلها بفضل ارادتى الكبيرة لا بمساعدة الاطباء • حقا انهـــا أمراض مضنية ، فيها العذاب وفيها المداعبة •

وقد اعربت عن اسفى مرات عدة وجهــارا لانك لم تستطع حضــور بعض الجلسات المتعلقة بشئون النشر الادبى • وانى لاعتقد ان مكتبة الشاعر ، « والدليل العالمى » سيصدران بشكل طيب • وقد قررنا أن نصـدر الدليل على نحو مبتكر ، كأن نأخذ الصحف العالمية الرئيسية التى تصدر فى مختلف البلاد فى يوم واحد وليكن السادس من ديسمبر مثلا أو الأول من يناير ، وان ندون احداث ذلك اليوم العامة والسياسية والعلمية ، فى شكل ملخصات ادبية لا تزيد على العشرة آلاف حرف • وانى لارجوك ان تسهم معنا فى هذا العمل • وقد لا تكون مضطرا بالفعل

الى الكتابة في أي موضوع متعلق بذلك اليوم اذ ان هناك مواضيع عامة تصلح لجميع الايام • الا توافقني على ذلك ؟ اذن فلنكتب في أي موضوع من هذا الطراز •

بدأ العمل في اعداد كتاب عن تاريخ الحرب الاهلية ، وهو يسير سيرا لابأس به ، وان كان ابطأ مما أريد • وقد اختاروك محررا أدبيا للمجلد الأول ، للحديث عن ثورة اكتوبر وجبال الاورال •

واقبل العمال على اعداد كتاب « تاريخ المصانع » بكثير من الحماس • وقد سجلنا مائة ومصنعين بينها القديم وبينها الجديد • وتوجه الاسئلة الى العمال القدامى وتسجل اقوالهم والقصص التي يروونها عن الماضي بطريق الاختزال ، بينما يرجع المحررون الى الوثائق القديمة • اننا منهمكون فعلا •

لذا عليك أن تصح • ان ذلك أهميتك في عالمنا الثقافي ، فأنت رجل موهوب ، واسهامك ضروري في جميع هذه المشـــاريع • انني لا أحاول مديحك ، وانما أطلب العون من رفيق له وزنه • هذه هي الحقيقة • وقد تمكنا من اعداد مشـاريع كثيرة لهذا الصيف وعلينا ان نواصل العمل فيها وان نكملها • ان عدد العاملين معنا قليل ، ولذلك فلكل أديب مكانه •

أعانقك عن بعد ، وآمل أن ألقاك في مكان ما في الجنوب هـذا الربيع • أرجو لك الصحة • ويسعدني أن أسمع منك دائما ••

***

هذه نتف من بعض رسائل الاديب الكبير ، التي نشر بعضهـــا لأول مرة في الاتحاد السوفياتي ، والتي ما زال القسم الاكبر منها ينتظر النشر • ولا ريب في ان هذه الرسائل تلقي ضوءا جديدا ، على فكره ، ونظراته العامة في الادب والحياة • وقد تؤدي اذا ما تم نشرها بكاملها ، الى تبين زوايا جديدة من حيـاته وانتاجه ، تساعد على دراسته دراسة أكثر عمقا ، وأوسع آفاقا وشمولا ، وهو ما يرحب به دارسو الادب وعشاق فن جوركي •

قدريو

متولى

بقلم

عبد المعطى المسيرى

أتم دراسته الجامعية ، وعاد الى مدينته «طنطا» ظافرا باجازة الحقوق ، ثم التحق بمكتب احد كبار المحامين ، وشرع يمضى فترة التمرين بجد ونشاط .

وبينما كان أبوه الشيخ يعالج مشكلة العثور على مكان مناسب ، ويفرغ من ذلك لياخذ فى تهيئة الاثاث اللازم لمكتب ابنه الحبيب.. بينماكان الوالد الشيخ يسعى فى اهتمام ونشوة ليمهد لولده شق طريقه ، كان القدر الساخر ينسج فى اكفان الشاب ويغزل فى ثوب آخر لحياة أبيه العجوز !

••• وسرنا فى جنازة الابن والأسى يحز فى نفوسنا لا لفقد هذه الزهرة اليانعة فحسب ، ولكن لهذا الحزن الصادق العميق ، وهذا الوجوم القاتل الذى الح على الوالد المسكين حتى حال بينه وبين مواصلة السير مع المشيعين الى المقبرة ، فقد سقط فى منتصف الطريق فحمله بعض اقاربه ومعارفه . وعادوا به الى منزله وهو اقرب الى الموت منه الى الحياة ، الامر الذى اذهل الناس وجعل للمصيبة وقعا أليما فى نفوسهم .

.. ودارت عجلة الزمن فطوت عامين كنت خلالهما مقيما بالقاهرة لا ازور «طنطا» الا لماما لقضاء بعض الشئون .. وفى زيارتى الاخيرة لما ذهبت الى عيادة صديقى الدكتور سامى صحبة قريب مريض ، وفيما نحن جالسون ننتظر دورنا اذ بى التقى فجأة بالشيخ الثاكل ترافقه شابة فى ميعة الصبا يخرجان من حجرة الكشف ، ويبارحان العيادة ، ولكنى انكرته !! اننى اعرف الشيخ عبد المتعال الصاوى ذلك الرجل الذى كافح طويلا ليتيح لولده الحصول على اجازة الحقوق ، والذى استنفد فى هذا السبيل قواه .. اعرف ذلك الشيخ المتهدم الذى ماتزال صورة سقوطه مغشيا عليه أثناء سير الجنازة مرتسمة فى ذهنى ، والذى كنت اقدر ان ايامه معدودة ، وأن القدر قد قال فيه كلمته ، اما هذا الرجل الذى أراه الآن يفيض حياة وحركة ، هذا الرجل الذى يرتدى ذلك الثوب القطنى الزاهى ، والرداء اللامع الفاخر ، ويبالغ فى التأنق ممسكا باحدى يديه عصا ، لاليتوكأ عليها ، وانما ليتحدى ويمعن فى ابراز رجولته .. انه

ليخيل الى ان الحياة قد رجعت به عشرين عاما ، كأنها قد انقصت من عمره اعوام ابنه ، وعوضته حيوية الابن وصباه !! ثم من تكون هذه السيدة التى تصحبه !؟

وهكذا قدر لى ان اذهل مرتين : مرة يوم وفاة ولده ، والاخرى عند رؤيته على هذا النحو .

... لمأستطع كبتمايجول بخاطرى فاثرت موضوع الشيخ مع صديقى الدكتور سامى ، وصديقى هذا هو الطبيب الذى كان يعود الشاب فى الايام الثلاثة التى قضاها مريضا قبل وفاته ، ثم هو الى ذلك على اتصال وثيقبالشيخ فلما استفسرت منه طفق يحدثنى بتؤدة وبساطة قال :

ياصاحبى ، ان هناك قدرة الهية تصوغ مصائرنا ، وتكيفها رغما عن ارادتنا وهذه القدرة العجيبة تمس برحمتها مايعترض سبيلنا بفنون وأساليب مختلفة ، منها السلوان ، والنسيان ، وقلة المبالاة .. انها لاتأخذ الا وتعطى ، ولاتمنع الا وتمنح وان ماأذهلك عند رؤيتك لهذا الشيخالثاكل، هو بعينه الذى زادنىإيمانابالله وعجيب صنعه ، لقد كنت بادىء الامر اركن الى حكم الناس فى أن معين حياته قد نضب فقد عدته اثر سقوطه فوجدت الصدمة عنيفة قوية لامناص من قضائها عليه اذا لم يحدث شىءغير مالوف ، أريدان اقول اذا لم تتدخل قوة خفية فى الامر ، وقد تدخلت .. وسأحكى لك بايجاز شيئا من مراحل حياته .

كان أحمد الابن الوحيد الذى أبقى عليه الموت من أولاد الشيخ عبد المتعال اذ كانت المنية تتخطف أبناءه وهم فىطور الطفولة ، وكان الشيخ يلاقى الفجيعة اثر الفجيعة بصبر وايمان ، وكان أحمد «آخر المنقود» كما كان يحلو للشيخ أن ينعته ، فأمه لم تنجب بعده أطفالا ومن ثم كرس الشيخ حياته للابن قانعا به ، سائلا الله أن يبارك له فيه .

وهكذا نشأ أحمد وترعرع بينأحضان ابوين قدروعهما الموتكثيرا فكانايسرفان فىالعنايةبه ، والحنوعليه .. لايضيرهما أن يجوعا ما دام قد شبع ، ولا أن يظمأ مادام قد روى ، اذا انتابته وعكةبسيطة امسك الابوان قلبيهما من الذعر والهلع فاذا عادت اليهصحته ، عاد لهماالاشراق والسرور .

وراحت الايام تمضى والفتى يتنقلفى مراحل الدراسة ، فلما فرغ من التعليم الثانوى ، التحق بالجامعة ليكمل تعليمه حتى اذا آن للشيخ أن يتنفس ويجنى ثمار غرسه اذ بالموت ــ عدوه القديم ــ يطرق بابه ليفجعه فى أمله الوحيد !

ولست فى حاجة الى القول بانى كنت اعود الشيخ أثناء مرضه بعد موتولده ولكن الذى اريد ان اقوله اننى قدلمست انه يسترد عافيته بسرعة مطردة ، وان اساريره وحركاته كانتا تطفحان بمعانى ذلك القول اليائس : من شاء بعدك فليمت ــ فعليك كنت أحاذر .

وكانت نظراتهتفيض بالتحدى ، وكان يردد على الدوام ملوحا بقبضة يده : لست أخشى شيئا فلينزل بى القدر مايشاء !!

وهكذا استطعت أن المح ان الشيخ قد آثر الاحتجاج على القدر بالتحدى ، أنْ



الخـوف المكبوت فى قلبه قـد تلاشى ، والحذر الذى كان يزعجه قد فارقه ، انه كان يخاف ويخشى من الاقدار على ولده ، ومادام احمد قد مات فليس ثمة عزيز يخشى فقـده ، ويتوقى الحيـاة والاحداث من أجله ، انه كان لاينظر الى الحياة بعينيه ، وانما بعينى ابنـه .. كان اذا بليت ملابسه لايشعر بذلك مادام احمد يبدو متأنقا وجيهـا بين زملائه ، وكان اذا قتر على نفسـه يجد لذة فى هـذا التقتير الذى سيحفظ التـوازن لرغد ابنه .. وكانت أم أحمد رغم تغضن جبينها ، وعبث السنين بجمالها ، وعدم استعدادها للحمل أثيرة لديه ، عزيزة عليه تبـدو له وضـاحة الجبين ، مبـاركة ميمونة لانها أسعدته بأحمد .. وهـكذا كان الشيخ لايرى الحياة الا من جانب واحد : جانب هـذا الابن الذى وهبـه نفسه واحاسيسه ، فلما اختار الله الفتى الى جواره انهار ذلك الستر الذى كان يحجب عن الرجل العالم جميعا فلا يراه الا من خـلاله ومن ثم اسـتهان بالامور

وراح يحتج على الحياة بتغيير كل ماتعود عليه .. بدا يجوع فلا يلتفت هل شبع ولده ؟ وانما يشعر بالجوع فيأكل ، وينظر الى ملابسه فلايفكر هل لبس أحمد ، بل يمضي على الفور فيبتاع أفخر القماش .. فاما أم أحمد فقد بدت لعينيه على حقيقتها فاذا بها ليست أكثر من عجوز قبيح بلا جمال ، ولا ولد فيتزوج بأخرى ـ تلك التى رأيتها معه ـ ينشد عندها المتعة والولد .

وهكذا ياصاحبى بدا لك الشيخ وكأنه ليس هو ، لقد انقضى عمر ابنه الشاب دون أن يشعر الوالد ، ولذلك فقد رجع الشيخ القهقرى واستأنف حياته من جديد ، وبدأ يتلقى الحياة غير حافل بأحداثها .. وماذا بقى لديه حتى يحفل أو يخشى ؟! لقد كانت ضربة القدر قوية فاصلة ، وأمثال هذه الضربة تكون بمثابة نقطة التحول فى حياة المرء اذ يتلقاها ويحتج عليها بأحد أمرين : فاما أن تصعقه وتقضى عليه ، واما أن تخلق منه انسانا جديدا .. وقد اختار له الله الطريقة الثانية .

وسكت محدثى هنيهة فسألته :

ولكن اذا كانت القدرة الالهية قد تدخلت على هذا النحو فى حياة الاب فاستطاع أن يسلو وان يضطرب فى الحياة من جديد فيتجاوب معها هكذا ، فليس من شك انها قد قست على الام ، الام التى فقدت ولدها .. وزوجها .

فتبسم الطبيب وقال :

كلا ياصاحبى ، اننى كنت على وشك أن أحدثك حديثها ، انها احسن حالا من الاب .. لقد فقدت ولدها بادىء الامر فزعزت المصيبة كيانها ، فلما أردفتها المقادير بزواج الشيخ ذهب عقلها ، انها الآن تعيش بعقل طفل . ولو قيض اليك أن تراها وهى تلعب بالدمى تارة ، وبالكرة أخرى ، لأثار ذلك دهشتك أكثر مما أثارتها رؤية الشيخ .

فقلت : أتريد أن تقول انها جنت ؟!

فأجاب : لست أنا الذى يريد أن يقول ، ولكنها جنت حقيقة ..!

قلت : وبعد هذا تتحدث عن عدل الاقدار ورحمتها ؟! أين العدل والرحمة فى امرأة فقدت ولدها ورجلها .. وعقلها ؟!

فربت صديقى الطبيب على كتفى وقال :

أو ليس من الرحمة أن يسلب منها هذا العقل الذى يفكر ويشعر بمصيبة موت الولد ، وهجر الزوج ، ثم توهب عوضا عنه عقلا آخر يرتد بها الى الطفولة حيث لا زوج ، ولا ولد ، فتلعب بالدمى والكرة ؟!

ثم حدق فى وجهى وقال :

اننى كطبيب لو استطعت أن استرجع لها صحة عقلها لما فعلت ، ذلك لانها الآن تقضى بقية أيامها موفورة الراحة والسعادة .

القصة فى الأدب الانجليزى

٦ عصر التجارب القصة فى القرن العشرين

١ التكنيك السينمائى والقصة ٢ موسقة القصة الحديثة

بقلم : د. طه محمود طه

يعتمد الانسان فى الابقاء على حضارته وفى الاحتفاظ بتراثه على التسجيل اما عن طريق التعبير اللفظى أو عن طريق البناء والنصب التذكارى والتماثيل أو عن طريق الرسم والتصوير • وفى العصور الحديثة تمكن الانسان من ادخال تعديلات كثيرة على هذه الطرق فى حفظ تراثه وأصبحت الصورة الفوتوغرافية والرسم وتسجيل الصوت والحركة من أهم وسائل الاحتفاظ بالتجارب القديمة وبالذكريات الماضية • وتطورت هذه الوسائل حتى أصبحت سجلا دقيقا يسجل الانسان **فيه ماضيه ، سجلا** يمكن الرجوع اليه عند الحاجة ومقارنته بالحاضر الذى يعيش فيه • وكان للعلم الحديث أثره الكبير فى تطوير وتحسين هذه الوسائل ومنها الكاميرا والفونوغراف والسينما وجهاز التسجيل الحديث •

وفى بداية الأمر كان الاهتمام بهذه المخترعات مجرد تسلية ومتعة ، ولكن سرعان ما أثرت هذه الوسائل على حياتنا اليومية وعلى نظرتنا للكون وللعالم من حولنا • وقد ساعدت الصورة الفوتوغرافية الانسان – لانها أداة موضوعية محايدة فى الملاحظة والتسجيل – على مقارنة الملاحظات والنتائج بعضها ببعض وأخذت رويدا رويدا تحل محل العين المجردة فى الملاحظة الدقيقة ، لأن العين لا يمكنها التذكر أو الاحتفاظ بما تشاهده لفترة طويلة • فالكاميرا لها القدرة على تجميد الزمان والمكان والامساك بلحظات عابرة فى تاريخ البشرية وحياة الفرد والجماعات ومشاهدة ما لا يمكن مشاهدته « الآن » وتسجيل مناظر فى أماكن نائية يصعب الوصول اليها كالقمر مثلا • وهكذا تمكن الكاميرا الانسان من استعراض ما قد فات وتذكر تجاربه الماضية • فالتاريخ لايعيد نفسه والشىء الوحيد الذى يمكن انقاذه من براثن الزمان هو مايسجله المؤرخ والأديب أو ما تسجله الكاميرا أثناء هذا التطور السريع •

وللصورة الفوتوغرافية محاسنها كما أن لها عيوبها ومضارها من الناحية الفنية ، فالصورة تعزل ما تصوره وتسجله عن باقى الحوادث المعاصرة له ، وبهذا تسلب الحادثة أو الموضوع أو التجربة معناها الحقيقى بوضعها فى اطار معين ، وفى الوقت نفسه تسمح بادراك الروابط المكانية دون الروابط الزمانية والتى قد يصعب ادراكها فيما بعد ويؤدى هذا الى نوع من الخلط كان شائعا فى العصور

الوسطى • ولهذا نجد أنه عندما ندخل الاطار أو التحديد فى اعتبارنا يذهب المعنى أو الدرس ولا يصبح مرتبطا ارتباطا عضويا بما حوله • ولهذا تنحصر فائدة الكاميرا أو الصورة الفوتوغرافية فى كونها مذكرة أو مفكرة أو تسجيلا مكانيا لما يصعب علينا تذكره أو رؤيته • وفى عالم متغير وفى سيولة وحركة دائمة أصبحت الكاميرا أو الصورة المسجلة خير وسـيلة للتغلب على الاضمحلال والتآكل والتقدم فى السن ، وتنحصر فائدتها لا عن طريق الاصلاح أو التحديد بل عن طريق الاحتفاظ بالصور المختلفة كما كانت عليه فى ذلك الوقت ـ صور الاشخاص والمبانى والاماكن والمدن والمناظر الطبيعية • وهكذا تضيف الصورة الى « الذاكرة الجمعية » فى تاريخ البشرية وتصبح جزءا هاما من تراث الانسان الحضارى •

وجاءت السينما أو « الصور المتحركة » فى أواخر القرن التاسع عشر وعملت على ابراز تلاحق الصور الفوتوغرافية وبهذا اضافت عنصر الزمان الى المكان ، وأصبح من الممكن تصوير الحوادث والمناظر والتطور فى تتابع « زمكانى » • وتطورت الصورة وزادت فائدتها واتسعت امكانياتها ، وأصبح من الممكن التحكم فى الأبعاد الزمانية بطريقة العرض البطىء أو العرض السريع • وقبل ظهور الفيـلم السينمائى كان تسجيل الحوادث وتسلسلها يعتمد على مقتطفات زمانية ومكانية يمكن عرضـها بواسطة الفانوس السحرى وبعد ظهور التكنيك السينمائى أصبح من السهل سلسلة الحوادث وعرضها فى تتابع زمنى منظم وتمكنت السينما من عرض سـيولة الزمان بطريقة التتـابع والجريان بدلا من عرض صور منفصلة زمانيا ومكانيا • وهنـا نرى الرابطة بين ما أسماه برجسون بالسيولة أو الوقت السيكولوجى والزمان الميكانيكى (راجع البحث الرابع فى « القصة » عن القصة فى القرن العشرين) • ومن ناحية الموضوع ، يظهر أثر السينما ، فى بادىء الأمر ، فى اهتمام الاديب والفنان بتسجيل الحركة الخارجية والسلوك والوصف الطبيعى بدلا من التحليل النفسى لشخوصه ، فهذا النوع من الانتاج الأدبى فى القصة ، وخاصة فى القرن التاسع عشر ، يشبه الى حد كبير ما تقوم بتسجيله الصورة الفوتوغرافية •

ويظهر التكنيك السينمائى فى الشعر الغربى الحديث وفى القصة بشـكل واضح فيما يختص بعاملى الزمان والمكان • ويقول جويس فى قصته الاخيرة «فينيجانز ويك» ان العالم عالم حقيقى ولكنه عالم تتلاحق فيه الصور خلف بعضها بطـريقة تشبه جذب الشريط المصور من على « بكرة » ، وهكذا يصبح العالم The reel world وتشبه طريقة العرض فى قصته « عوليس » طريقة العرض السينمائية ـ لقطة قريبة تتبعها لقطة عادية أو لقطة عادية أو قريبة يتبعها نوع من الارتداد الى الماضى البعيد أو الى مكان ناء • وبعد قراءة القصة كلها يخيل الينا أنهـا صورة كبيرة جمعنا أجزاءها المبعثرة بشق الأنفس أو فيلم سينمائى تتبعنا حوادثه الطويلة المعقدة •

وربما لا نقدر الأثر الكبير الذى تركته هذه الفنون السينمائية فى فن القصة ، ولكن مما لا شك فيه أن القصة الحديثة قد تأثرت بالفن السينمائى كما تأثرت السينما بالتجارب العـديدة فى الفن القصصى • ففى العصر الحـديث أوحت الصـورة

الفوتوغرافية للاديب بأن يسجل السلوك والتطور ويراعى الدقة فى الملاحظة وتسجيل النتائج وهذا ما نراه فى القصص الواقعية والطبيعية ٠

ويتضح لنا الاهتمام بالحركة اذا ما تذكرنا الافلام السينمائية القديمة بحركتها الدائمة الخارجية والعنف والسباق والمطاردة كما فى أفلام شارلى شابلن والافلام الكوميدية القديمة وأفلام المغامرات والفروسية ورعاة البقر والحروب ٠ وبدأ الفن السينمائى يطور نفسه وأخذ يبتعد عن الحركة الدرامية وأصبح فنا قائما بذاته لا يعتمد كثيرا على الحركة الخارجية وانما يعتمد على تحليل الدوافع وتصيد اللحظات الهامة فى حياة الشخوص ٠ وتقابل عاملا الذاتية والواقعية ـ التتابع الزمانى الميكانيكى مع سيولة الزمان الذاتى السيكولوجى ٠ وأخذت طريقة العرض فى الفيلم السينمائى تتارجح ، كالسرد فى القصة تماما ، بين الماضى بتجاربه وذكرياته وصوره والحاضر مع الاحتفاظ بواقعيتها ٠ واختفت الابطال و « الحدوتة » الى حد ما من القصة ومن الفيلم السينمائى ، واعتمد الفيلم على التتابع الجغرافى أو التاريخى وتمكنت السينما كالقصة تماما من استغلال نظريات اينشتين وبرجسون استغلالا فنيا فيما يختص بمشكلتى الزمان والمكان (راجع « العلم الحديث والقصة » فى العدد الرابع من القصة)

وقبل ظهور السينما الناطقة فيما بين عام ١٩٢٧ وعام ١٩٢٨ كان الفيلم يعتمد على الحركة الدرامية السريعة بدلا من الحوار ، أما بعد ظهور الصوت فى الافلام أخذت السينما تعتمد على القصة والحوار ٠ وكان الاعتماد فى بادىء الامر على «اللقطة» لا على المنظر ولكن سرعان ما تغلبت السينما على القيود المسرحية فى الاخراج وبتطور الفن السينمائى أصبح من الممكن تصوير أفكار الشخوص واحساساتهم بطرق مختلفة منها الرمزية ٠ وتفوق الفيلم السينمائى على المسرحية لانه يمكننا من ادراك ما يخفى بين السطور ويجعل لرد الفعل السيكولوجى فى الشخوص أثره الكبير ٠ وتلعب الكاميرا دورا هاما فى الاخراج السينمائى لان لها القدرة على التحرك بسرعات مختلفة وفى اتجاهات عديدة ٠ وعن طريق العرض السينمائى تمكن الانسان لأول مرة من أن يعيش فى الماضى لا عن طريق القراءة أو التذكر أو عن طريق صور فوتوغرافية أو لوحات زيتية بل عن طريق العيش فى الماضى نفسه وسط مشاهد متعددة تصور له الماضى بأشكاله والوانه وأصواته المختلفة ٠

وللسينما القدرة على تصوير احساساتنا وأفكارنا عن العالم الذى نعيش فيه ، وتكشف كذلك عن النظرة الجديدة للزمان والمكان ٠ وعن طريق سيطرتها على الزمان والمكان وضغطهما ، وعن طريق تصوير التغير المستمر فى الحوادث ، ولقدرتها على ابراز تداخل الحوادث والعواطف والمواقف ، ولقدرتها على عرض القريب والبعيد فى وقت واحد وعرض التجارب الذاتية والهلوسة والتشويه فى حاسة البصر والسمع والالوان ، تصبح السينما ، لكل هذه الاسباب مجتمعة ، الفن الوحيد الذى يستطيع أن يعطينا فكرة عن العصر الذى نعيش فيه بكل ما فيه من متناقضات ٠ وقد جمعت السينما بين طريقة العرض والاستماع واستغلت الصورة المرئية والموسيقى أحسن

استغلال • وقد كتب هكسلى قصته « الغوريلا والجوهر » على غرار فيلم سينمائى نرى فيه مناظر متلاحقة ونسمع صوت المعلق على الحوادث وكأننا نشــــاهد فيلما سينمائيا •

وكل هــذه الفنون تشترك فى شىء واحد : عنصر التجريب ونتيجته الحتميــة التى بعــدت به كل البعد عما هو تقليــدى ومتعارف عليــه • فالانطباعية والطبيعية اهتمتا بالبيئة والرمزية والتعبيرية اهتمتا بالفرد• ولكن الاتجاه العام فى أدب النصف الاول من القرن العشرين هو الذى ينحو نحو تأكيد الشعور بعزلة الفنان عن قرائه • ولهذا يحاول الأديب أن يبقى على المسافة التى تفصل بينه وبين القارىء بخلق بديل له أو « معلق » أو « راو » أو «محدث» • وباختصار استطاع القصصى أن يصل الى العنصر الدرامى الذى كان يتفوق به عليه كاتب المسرحية • ومكن وجود المعلق فى القصة الأديب من أن يعالج موضوعات شتى دون أن يظهر هو على مسرح الحوادث • وتمكن عن طريق استعمال المعلق أن يحرك حوادث القصة الى الامام والى الخلف ويغير المناظر والمواقف من جانب غير شخصى • ويصبح المعلق مثل الــكورس فى الدراما الاغريقية ، يمثل العالم بأجمعه وينظم الصور التى يجب على القارىء أن يراها ويضيف تعليقه على مانشاهده وأصبح له أكثر من عينين وأخذ يرى المشاهد والمواقف من جوانب عديدة وفى لحظات زمنيــة مختلفة ، وقد استغل اليوت هــذا التــكنيك فى « الارض الخراب » وخاصة فى الجزء الثالث منها ، وعن طريق المعلق أصبح الأديب فى حل من ابراز العقدة أو مواجهة اللحظات الحرجة فى قصته • فالمنظر أو الموقف الدرامى يمكن التغلب عليه بسرده لا بتقديمه • ومن جراء هذا تلاشى الموقف العاطفى الذى كنا نراه فى القصــة الفكتورية والذى كان يتسمح بالميلودراما ، وأمــكن لقصاص القرن العشرين أن يسرده عن طريق المعلق • ونرى فى « الى الفنار » شىء من هذا القبيــل عندما تجنبت فيرجينيا وولف وصف موت مِسز رامزاى وحدثتنا عن وفاتها فى عبارة مقتضبة فى منتصف القصة •

ويتحكم القصصى الحديث فى تيار الوعى فى القصة بطرق سينمائية ، ودراسة أثر الفن السينمائى فى تكنيك القصة وأثر تكنيك القصة فى الفن السينمائى تعطينا مادة غزيرة للبحث • وفى هــذا المجــال الضيق سنشير الى وجه واحد فقط للتشابه وهو المونتاج • وللسينما فنون أخرى وهى اللقطة المزدوجة والعرض البطىء والسريع وذوبان المنظر والقطع واللقطات القريبة والبانورامية والرجوع الى الوراء فى الزمان أو الارتداد أو ما يطلق عليه Fgosh-Backs • والمونتاج بالمعنى السينمائى يشير الى مجموعة من الحيل التى تستعمل لكى تظهر لنا توارد الخواطر والأفــكار وارتباطها بعضها ببعض كتوارد المناظر المختلفة بسرعة الواحد تلو الآخر أو عرض صورة فوق صورة أخرى أو احاطة صورة رئيسية بصور أخرى تمت لها بصلة ويظهر ذلك فى أفلام الاخبار المصورة فى السينما ونراه الآن على شاشة التلفزيون • والطرق الثانوية الاخرى هى لمساعدة المونتاج وتستخدم للتغلب على امكانيات شاشة العرض المحدودة والتى تعرض المنظر فى بعدين فقط • وبعضها يهتم بتسلسل الحوادث والآخــر ،

مثل الحركة البطيئة واللقطة القريبة Cgos-up يهتم بالتفصيلات الدقيقة للحركة أو الملامح أو المميزات وهو ما يطلق عليه « التوسيع اللانهائي للحظة ما » .

وما استعمال أساليب الفن السينمائي في القصة الا محاولة للتغلب على التقيد بالأبعاد الزمانية والمكانية . ونرى جويس وفيرجينيا وولف مثلا يستعملان هذا التكنيك السينمائي لكي يتخلصا من تحكم الزمان والمكان في عملية الخلق الفنية وفي سيولة تيار الوعي الذي لا يسير بمقتضى زمن ميكانيكي منظم . وتمكن القصاص من التحرك بقصته زمنيا الى الامام والى الخلف وتمكن من خلط الماضي بالحاضر وما يتخيله في المستقبل . ويقول « دافيد داتشيس » في كتاب له عن فرجينيا وولف أن هناك طريقتين للعرض : الاولى هي أن يظل الفرد ثابتا في مكان واحد بينما تحرك وعيه في اطار زمني عريض وتكون النتيجة مونتاجا زمانيا أو عرض صور وأفكار زمن آخر فوق صور وأفكار الحاضر . والثانية هي أن يظل الزمان ثابتا بينما تتغير المكان وينتج عن هذا مونتاجا مكانيا . وأهم وظيفة لهذه الحيل السينمائية وعلى الأخص المونتاج هي التعبير عن الحركة وطبيعة الفكر المزدوجة . وساعدت هذه الطريقة الأدباء على تصوير الازدواج في الطبيعة الانسانية ـ حياة الانسان الذاتية الفكرية متمثلة في تيار الوعي الذي يسيل من لحظة لاخرى وحياته في العالم الطبيعي وحركاته وسكناته . ونظرة واحدة الى قصة فيرجينيا وولف « مسز دالواي » ستوضح لنا كيفية استعمال المونتاج في القصة . وطريقة فيرجينيا وولف في الفصل الاول هي طريقة المونولوج الداخلي ، ويبقى القارىء داخل وعي مسز دالواي يستعرض معها هذا السيل الجارف من الافكار والخواطر والاحساسات التي يجلبها العقل من أركان عديدة في أبعاد زمانية مختلفة . ونسبح في هذا التيار داخل رأسها في العشرين صفحة الاولى ولكن عدد الخواطر والصور مع هذا عظيم وفيها تنويع مذهل من حيث المكان والزمان معا . واذا قمنا بتلخيص بضع صفحات من هذه الافتتاحية ظهر لنا أثر المونتاج واضحا هذا الى جانب بعض الحيل السينمائية الاخرى التي توضح ما أطلق عليه « المونتاج الزماني » :

نرى « كلاريسا » تفكر في الاستعدادات لحفلة ستقيمها في القريب العاجل في أول جملة في القصة ، ثم فجأة تفكر في اللحظة الحاضرة وتعلق على صفاء الجو في هذا الصباح ثم تعود بذاكرتها الى الماضي ، منذ عشرين عاما ، وتفكر في الايام الجميلة التي قضتها في « بورتون » وهنا تستعمل تكنيك تداعي المعاني لان صفاء الجو « اليوم » يذكرها بالايام الجميلة التي قضتها في « بورتون » وفي الوقت نفسه يوحي الينا هذا التكنيك بطريقة الارتداد . وتستمر كلاريسا في العيش في الماضي ولكنها تركز فكرها على يوم معين بالذات وتتذكر محادثتها مع « بيتر والش » بكل تفاصيلها الدقيقة ويوحي هذا بتكنيك السينما في « اللقطة القريبة » أو الصورة المجهرية الدقيقة ، ويتبع هذا تخيلها لزيارة « بيتر والش » في القريب العاجل لمدينة لندن وهنا نلجأ الى المنظر المزدوج Mvltiple-view ونترك وعي كلاريسا لبضعة أسطر لندخل وعي شخص آخر يراقبها وهي تعبر الطريق وهو « سكروب برفيس »، جارها في حي وستمنستر . ثم نعود الى تيار الوعي عند كلاريسا ، بعد أن نعرف

عن طريق جارها أن سـنها يزيد على الخمسين عاما ، ونجدها تتـأمل ، في الوقت الحاضر ، حبها لوستمنستر ويتبع ذلك نوع من السرحان وتبدأ الافكار في الذبول Fade-ovt وتختفى رويدا رويدا وتبـدأ فـكرة أخرى في الظهور ، حوار حدث بالأمس وكان موضوعه انتهاء الحرب وهـذه الفكرة بدورها تذوب من وعيها ونبدأ في الاستمتاع معها بجو لندن الذي تتمتع به « الآن » . وهنـا تلجأ فيرجينيا وولف الى طريقة القطع وتترك المنـظر القـديم لتقدم لنـا محادثة قصيرة بين كلاريسا و « هيوويتبريد » الذي تقابله في الطريق . وعن طريق اللقطة القريبة نعرف جانبا من هذا الحوار ثم يذوب هذا الحوار ويبدأ وعي كلاريسا في السيولة مرة أخرى ويطفو على سطح تياره صور لعائلة « ويتبريد » ويأخذ الزمان في التذبذب بين الماضي البعيد الى « الآنية » أو اللحظة الحاضرة الى المستقبل القريب ومنه الى الماضي البعيد . وتتخيل كلاريسا ولا زال وعيها في الماضي البعيد هـذا ، « بيتر والش » و « هيو ويتبريد » في « بورتون » ويتغير هـذا المنظر بطريق القطع السريع ويتجه وعيها الى تأمل صفاء الجو في ذلك الصباح . ثم يذوب المنظر وتطفو خواطرها وأفكارها عن « بيتر » في الماضي وكيف أنها وقعت في غرامه ولـكنه تزوج واحدة أخرى . وتصل كلاريسا الى أبواب الحديقة وتتدفق الافكار غزيرة في وعيها .

وكل ما أشرنا اليه حتى الآن يقع في العشر صفحات الاولى من القصة وارجو أن تكون فكرة المونتاج الزماني قد اتضحت من هذا المثال . والنوع الثاني من المونتاج ، وهو المونتاج المكاني الذي يتوقف فيه عنصر الزمان ويتحرك فيه عنصر المكان ، يظهر بوضوح في قصة « عوليس » لجيمس جويس في الفصل العاشر . ويتألف هـذا الفصل من ١٨ منظرا في أنحاء متفرقة في مدينة دبلن . ويحرص جويس في طريقة عرضه لهذه المناظر على اعطاء القارئ « مفاتيح » وأشارات معينة توحي له بان بعض الحوادث والمناظر تحدث في وقت واحد . والوقت المحدد لهذا الفصل بأجزائه العديدة هو ساعة واحدة تبدأ في الساعة الثالثة بعد الظهر وتنتهي في الساعة الرابعة .

ولكي يعطي جويس القارئ الاحساس بالزمان في فصل يصعب تتبع الزمان فيه ، يلجأ الى حيلة بارعة وهي استعمال اشارات لفظية تظهر وتختفي في بعض المناظر وتشير الى ارتباط المناظر المكانية العديدة بعضها ببعض ارتباطا عضـويا ـ وان لم تتضح هذه الروابط من القراءة الاولى . ولولا هذه الاشارات العابرة لبدت هذه المناظر وكأن لا رابطة بينها . وقد أطلق أحد النقاد على هذا الفصل « المتاهة » وهو أحسن نموذج لما يعرف بالمونتاج المكاني وطريقة العرض الرئيسية فيه هي طريقة قطع المناظر والمواقف وتغيرها بسرعة من مكان لآخر مع بقاء الزمان ثابتا الى حد ما .

***

٢ ـ موسقة القصة : The Musicalization of Ficion

ولم تكتف القصة بامتصاص نتائج علم النفس التحليلي والعلم الحديث والتكنيك السينمائي بل حاولت أن تقلد الموسيقى في سرعة تأثيرها وفي قدرتها على نقـل

احساسات مختلفة فى وقت واحد الى السامع • فالموسيقى تفعل بسهولة وبسرعة فائقتين ما لا تستطيع الألفاظ أن تفعله الا بعناء ومشقة أو ما لا يمكن فعله اطلاقا • والموسيقى أيضا القدرة على تصوير الحياة بما فيها من متناقضات •

ويقول « والتر باتر » : « ان كل الفنون تحاول أن تسمو الى مرتبة الموسيقى » **ولا يتم هذا « الا عن طريق الاخلاص الصادق للمزج بين الموضوع والشكل عن طريق العناية بشكل الجمل وصوتها حتى يمكن لهذا الايحاء الموسيقى السحرى ان يلقى بضوئه ولو للحظات عابرة على سطح الكلمات ، تلك الكلمات البالية التى استهلكت وشوهت بمرور عصور من الاستعمال المهمل »** • وقد اهتم الشعراء الرمزيون فى فرنسا بالألفاظ لما لها من سحر موسيقى ولكنهم ، كما يقول هكسلى ، اخضعوا المعنى للصوت ونتج عن هذا غموضا وتعقيدا •

ويقول و • ت • ستيس فى كتابه « الزمان والأزلية » « يشعر الانسان أحيانا وهو يستمع الى **قطعة موسيقية انه على وشك الانطلاق من سجن الحياة والحواس ان لم يكن من العالم بأسره • فهناك شعور خفى بأن ما تريد تحقيقه والوصول اليه قد أصبح قريبا جدا وأن** الحائط أو الحاجز الذى يحد الكون على وشك **الانهيار والتصدع من لحظة لاخرى ، وبهذا** تصبح **روح الانسان حرة** فى الاندماج **مع اللامنتهى • ولكن هذا لا يحدث لانه من** المحال تحقيقه **أو التحدث عنه** أو التفكير فيه • **ولا يسع الانسان الا أن يرجع مرة أخرى** الى تيار **الزمان والمتغير** ويصبح **الهدف المراد الوصول اليه مجرد احساس غريب** نشعر به **لفترة قصيرة ثم نفقده »** •

وهكذا نرى أن الموسيقى تساعد الانسان والاديب على التغلب على الزمان ولو لفترات قصيرة • واذا كان الموت شيئا لا يمكننا التغلب عليه أو نسيانه ، والعيش فى الزمان الذى لا يتوقف عن الحركة شيئا لا يمكننا الهروب منه ، واذا كان الاديب لا يجد المخرج من هذا المأزق ، كما بينا فى بحث سابق ، فى السفر أو الترحال ، فان الأديب يحاول أن يقهر الزمان الذى يشده الى الشيخوخة أو الموت بشتى الطرق • وفى الموسيقى ، كما فى التجربة الصوفية أو لحظات التجلى ، يستطيع الانسان أن يسيطر على الزمان ولو لفترات قصيرة ويعيش فى عالم شبه روحانى • ولكنه اذا حاول نقل هذا الاحساس الى آخرين عجز القلم عن وصفها • فالموسيقى تحدثنا عن العالم الذى نعيش فيه ولكن بطريقة موسيقية لا دخل للمفردات فيها واذا حاولنا نقل هذه الأحاسيس أو ترجمتها الى ألفاظ أصبح هذا ضربا من ضروب المستحيل • ولهذا يلجأ العريف أحيانا الى الصمت لأنه عندما يعجز اللسان عن التعبير يصبح الصمت الوسيلة الوحيدة ، وقد يحدث الاندماج • واذا أراد الأديب أن يهرب من المتغير ومن تيار الحياة الجارف المستمر لا بد أن يكون لديه القدرة على أن يرفع رأسه فوق هذا النهر من التجارب • فالاحاسيس والمشاعر المختلفة يصعب توصيلها فى كلمات لأنه من العسير على الأديب أن يعبر عن فكرتين أو أكثر فى وقت واحد كما فى الموسيقى • وهذا يرجع الى طبيعة اللغة التى نستعملها ونكتبها فى

كلمات والكلمات فى أسطر الواحد تلو الآخر • أما فى الموسيقى فيمكن التعبير عن فكرتين أو أكثر فى وقت واحد بطريقة توافق الالحان أو تقابلها أو تتابعها ، فى هذا الشأن يمكن القول بأن اللوحة الزيتية أو الصورة لها القدرة على نقل الاحساس بها دفعة واحدة بطريقة الجشتالت ، ولهذا نجد بعض المنــاظر أو التجارب فى القصص توصف بطريقة الرسم والتصوير لفاعلية هذه الطريقة فى نقل وتوصيل الاحاسيس دفعة واحدة ويكفى أن نشير الى قصص د • هـ • لورنس وهكسلى وجويس •

وقد أدرك القصـاص الحديث أهمية الموسـيقى فى التركيب القصصى وأعطته الموسيقى القدرة على السيطرة على مادته التى قد تبـدو لأول وهلة وكأنهـا كومة من الأخلاط العجيبة المتنافرة المتناقضة • ولكن ما أن تبسط القصة نفسها أمام القارىء حتى تتزاوج المتناقضات وتتوافق الأفكار وبانتهـائه من قراءة القصة سيخيل اليـه أنه كان يستمتع بسيمفونية كاملة بحركاتهـا المختلفة وستبدو مواقف الاعجـاب والسخرية ، والحياة والموت ، والمآسى والكوميديا وكأنها جميعا جزء لا يتجزأ من السيمفونية كوحدة متكاملة •

ومن الفن الموسيقى فى القصة نرى توارد الخواطر والافكار وظهورها واختفائها ومن تتابع الألحان نرى التغير فى الأمزجة والشخوص ووجهات النظر ، ومن تقابل الالحان نرى الأديب يعـرض لنا الشىء الواحد من وجهـات نظر مختلفة ومن زوايا مختلفة •

وفى هذا يقول هكسلى فى قصته « تقابل الألحان »
وعنوانها يوحى بتركيبها الموسيقى :

« موسيقة النثر القصصى • لا بطريقة الرمزيين باخضاع المعنى للصوت ••• ولكن على نطاق أوسع ، فى تركيب القصة • تأمل موسيقى بتهوفن • التغيرات فى الأمزجة والانتقالات الفجائية ••• (وقار يتبعه مزاح ••• وكوميديا تشير فجاة الى المآسى فى حركة « الاسكرزو » وأكثر ما يثير الاهتمام هو التغير فى اللحن ، وليس هذا من نغم الى نغم ، بل من مزاج الى مزاج • فتقدم الينا فـكرة ، ثم تتطور وتغير شكلها وتشوه حتى تصبح مختلفة عن الفـكرة الأولى ولو أنهـا لا تزال كمـا هى الى حد ما ••• ضع هـذا فى قصة • كيف ؟ الانتقالات الفجائيـة سهلة للغـاية • كل ما تتطلبه هو عدد كاف من الشخوص وحبكات متوازية تقـابل الواحدة الأخرى • فبينما يقتل « جونز » زوجته نرى « سميث » يدفع بعربة الأطفال فى الحديقة • حاول أن تتعاقب الافكار • هذا يثير الاهتمام ، ولكن الالحان والتغيرات أصعب • فالقصاص يلحن عن طريق ازدواج المواقف والشخوص وخلطهـا • فهو يعطينـا صور شخوص عديدة تقع فى الغرام ، أو تموت ، أو تصلى ، بطرق مختلفة _ شخوص متشابهة تحل نفس المشكلة • أو بالعكس ، شخوص متشابهة تجابه مواقف مختلفة • وبهذه الطريقة يمكنك أن تلحن عن طريق الأوجه المختلفة لفكرتك ، وتكتب عن التغيرات لاى عدد من الأمزجة • وطريقة أخرى : يستطيع القصاص أن ينظر الى الأشياء بعين الأزل وينتقى ببساطة حوادث قصتـه فى أطوارها المختلفة _ العاطفيـة ، العلمية ، الاقتصـادية ،

الدينية ، الميتافيزيقية ، الخ • وينتقل من واحدة لأخرى ــ من الناحية الجمالية للأشياء مثلا الى الناحية الفيزيوكيميائية ، من الناحية الدينية الى الناحية الفسيولوجية أو المالية • ولكن ربما كان فى هذا نوع من السيطرة الاستبدادية لقدرة الكاتب » •

وبالإضافة الى فائدة الموسيقى فى التركيب القصصى فاننا نجد لها فائدة أخرى من ناحية الموضوع • فالموســيقى تعبر عن الخير الكامن فى النفس البشرية وفى الكون ــ فالموسيقى تتغلب على الزمان وسيولته بطريقتهــا الخاصة وتحاول أن تصل الى وحدة الكون • ففى الموسيقى نحول الزمان الى مكان ثم نقضى عليه ولو للحظات عابرة • فالموسيقى يفرض على النغمات المختلفة نظاما ويضفى على الافكار المتناقضة معنى ويجعل من الاصوات المختلفة وحدة • فالقطعة الموسيقية أو السيمفونية تمثل الفوضى والتناقض والســيولة والتغير الى جــانب النظــام والتوافق والتكامل • فالسيمفونية عالم صغير يرمز الى الكون العظيم • فما نراه فى العالم من خير وشر ومتناقضات يشبه الى حد كبير النغمات المختلفة فى قطعة موسيقية • ولا يجب علينا أن نقول أن لهذه النغمة أهميتها ونقلل من أهمية نغمات أخرى ، فالسيمفونية هى مجموعة النغمات ، والنغمات كلها هى السيمفونية • ولكل نغمة أهميتها طالما هى جزء لا يتجزأ من السيمفونية كوحدة متكاملة • وليست السيمفونية مجموعة من النغمات فحسب بل هى مجموعة من النغمات فى نظام معين وكل نغمة لها مغزاها فى اطار السيمفونية وبدون السيمفونية تفقد حياتها ووجودها ومعناها • وهكذا الحياة ، ليس فيها شيء حلو أو مر ، شيء قبيح أو مليح ، ولكنها الحياة • والانسان الذى يستطيع أن يتذوق الموسيقى فى استطاعته أن يتغلب على المتغير ، وعندئذ يرى العالم ، لا ككومة من الأخلاط العجيبة ، بل كوحدة لكل جزء فيها أهميته • فاى نغمة فى لحن سيمفونى لا معنى لها بمفردها • والنغمة جزء من الميلودى ولابد أن نسمعها لوقت كاف حتى نستطيع أن ندرك ماهيتها • وربما تكون الحال فى الحياة هكذا ، فأى تجربة ربما لا تعنى شيئا اذا نظرنا اليها فى معزل عما يدور حولها ، ولكن اذا نظرنا اليها بعد وقت طويل ولمدة طويلة فسيظهر لنا اتجاهها ومغزاها • ونجد هنا رابطة قوية بين أثر العلم الحديث والموسيقى فى القصة • فقد قلنا فى البحث الرابع أنه من المستحيل أن نعرف شيئا عن تصرف ذرة بمفردها زلابد لنا من ملاحظة عدد كبير منها لمعرفة اتجاهها وهدفها • ولهذا فاى تجربة فردية فى الحياة ما هى الا نغمة واحدة فى سيمفونية كونية عظيمة لاتزال تبسط نفسها •

وفى قراءتنا للقصة الحديثة لابد لنا من اعتبارها كعمل فنى متكامل حتى ولو كانت تزخر بما يطلق عليه « اللامعقول » ولابد أن يكون لدينا القدرة على استيعاب أشياء كثيرة على مستويات مختلفة وفى وقت واحد •

وفى ختام هذه السلسلة من الابحاث عن القصة فى الأدب الانجليزى يجب أن نقول ان من أهم أسباب الغموض فى القصة الحديثة هو موقف الكتاب من القارىء • فالغموض فى القصة الحديثة ليس مقصودا لذات الغموض وانما جاء ، كما حاولنا أن

بين ، نتيجة لعوامل عدة أهمها أن الكاتب ينشد القارىء الذى يبذل فى فهمه بعض ما بذله هو فى الخلق والابداع ، يريد القارىء الذى يتفرغ له ويتعمق مراميه كما صبر هو فى تامل تجاربه واقتناص معانيه • وهذا الغموض الذى يصطنعه أو التعسير ــ ان صح هذا التعبير ــ انما هو بمثابة سياج يحمى به الكاتب نفسه من القارىء العبدى ، من القارىء الذى يتصفح أو يفتح الراديو والكتاب معا • فالكاتب يعمد الى أن ينفر مثل هذا القارىء تنفيرا والى ابعاده عنه ابعادا اذ أنه يرى فى مثل هذا القارىء خطرا كبيرا على الأديب • والكاتب الجاد الذى يأنس بأن له رسالة يسعى لابلاغها يصون نفسه من العابثين ويحرص على ألا يقربه سوى الجادين مثله • ولا نبالغ اذا قلنا ان كثيرا من هؤلاء الكتاب ، فى مقاييسهم للنجاح ، لا يعتدون بالكثرة العددية مثل ما يحرصون على القلة التى تفهم رسالتهم على الوجه الصحيح ويكفى أن نقول ان كاتبا مثل جيمس جويس ينفق سبعة أعوام متصلة فى كتابه « عوليس » وسبعة عشر أخر فى قصته الاخيرة « فينيجانز ويك » ويعيش طيلة حياته على الكفاف ، كاتب لم تستهوه الشهرة ولم تجتذبه الاعداد •

ومن أهم أسباب الغموض فى القصة هو موقف الكاتب من اللغة نفسها وهو يشبه الى حد كبير موقفهم من القارىء العادى ، بمعنى أنهم أصبحوا لا يطمئنون الى اللغة العادية مثلما فقدوا الثقة فى القارىء العادى • فاللغة العادية فى نظرهم تعانى من الفضفضة أحيانا والكلل أحيانا أخرى والابتذال دائما فاصبحت بذلك غير قادرة على الوفاء بمعانيهم وعلى نقل الجدة والطرافة التى تتصف بهما نظرتهم للحياة • ولذلك كثيرا مانجد الكاتب من هؤلاء يجنح نحو تحميل الألفاظ واللغة فوق مايعرف القارىء العادى من مدلولاتها • وكثيرا ماتنوء الألفاظ بحملها هذا الجديد فتنفجر وتتفتت الى كائنات جديدة أو تلتئم باشتات من الفاظ أخرى وتكون معها ألفاظا جديدة لها مدلولات جديدة ، ويصـادفنا هذا بشـكل ملحوظ فى قصص جيمس جويس •

وقد بالغ فى بعضهم فى التعمية وأغرقوا فى الغموض الى حد جعل أكثر القراء عالة على تفسيرات النقاد وتخريجاتهم • ونحن بهذه الابحاث لا ندافع عن هذا الاسلوب فى التفكير أو التعبير وانما هى ظاهرة أدبية من ظواهر القرن العشرين تستحق الدراسة والتسجيل شأنها فى ذلك شأن الظواهر العلمية والحضارية التى تجد فى حياة الغرب ونحرص على تتبعها وتفهمها •

باطل الأباطيل

قصة

بقلم : محمد حسن عبدالله

للمـرة العشرين كتبت التلميذات فى كراساتهن، « قابلت الطفل وهو باكى » وللمرة العشرين أيضا ، وضعت نوال خطا أحمر تحت كلمة (باكى) وشطبت الياء ، ووضعت كسرتين تحت الكاف !! وأطلقت نفسا حبيسا مجهدا ، يمتزج فيـه الضيق من اللغـة ، التى تحـذف وتضيف دون منطق معقول ، بالضيق من الطالبات الـلاتى تكرر منهن هـذا الخطأ بعينه ، وما تظنه الا سيتكرر فيما بقى من الكراسات ٠٠ والتل لم يختل بعد ، على الرغم من أنها أخذت منه حتى تصلبت أصابعهـا على القلم ، ورقصت الـكلمات أمام عينيها ٠ وعضت شفتها بشىء من الندم ، وهى تنحو على نفسها باللوم، فلو أنها اختارت موضوعا آخر، لما تحتم أن تذكر التلميذات هذه الكلمة اللعينة ، ويتكرر منهن الخطأ فيها !! حقا ٠٠ يجب أن تتمتع المدرسـة بنوع من الحـدس قوى ، فتتخيـل ما سـتكتب تلميذاتهـا فى الموضوع قبل أن تعلنـه ذكاء الذكيات ، وغباء الغبيات ،وسخافة عقولهن٠٠ويجب أن تضع فى اعتبارها بعض التراكيب اللغوية التىمن المحتمل أن تعترض طـريق التلميذات أثنـاء التفكير !

« ولكن ٠٠ هل كان أمامى غير هـذا الموضوع ؟ حضرة المفتش ٠٠ العجـوز الطـويل الاعجف ٠٠ مثـل سـيمافور غمرة ، مصمم على أن تكون موضوعات التعبير مستقاة ٠٠ هكذا ٠٠ مستقاة ! من البيئـة ٠ وبعـد غـد ٠٠ العيـد ، والموضوع : قصـة يتيم يوم العيد ؟! مبسـوط يا حضرة المفتش ؟! موضوع فسيح يرمح فيه الخيال ، وتنفس فيه المراهقات عن أحزانهن ٠٠ بيئة ايه يا حضرةالزناتى خليفة؟! أين هى البيئة؟! اننا هنا فى مساكن المدرسات لا نرى الا القمر فى السماء، « وعم أبو جاسم » حارس البناية على الارض ، ويمر اليوم بعد اليوم ، والاسبوع بعد الاسبوع ، ولا تمتد أعيننا ولا آذاننا الى أكثر مما امتدت اليه حين هبطنا من الطائرة ! » .

وعادت نوال تنظر الى تل الكراسات أمامها ، وهى تقيسه بنظراتها ، وتقسمه على أيام عطلة العيد ، وتحلم بأن تستقبل أيام المدرسة ، بعد انتهاء العطلة ، وليس عندهاشغل بايت !! وحاولت أن تجعل نصيب يوم العيد من الكراسات أقل من أنصبة الأيام الاخرى ، حتى تشعر بشىء من الفراغ ٠٠ بأن هذا اليوم غير كل

الأيام ٠٠ لكن : هل هو هنا غير كل الأيام ؟! وخفق قلبها لأيامها السالفة في وطنها ، قد مر عليها خمسة أشهر كأنها دهر طويل ، انها لا تكاد تصدق أنها سترى شارعهم مرة أخرى ٠٠ كم تخشى عليه أن يضيع من ذاكرتها ، لذلك تفكر فيه كل يوم ، وتتذكره عنـــد الغروب خاصة ، وقد اكتسحته الشمس بأشعتها المصفاة ، وانتشر فيه الصبيان والاطفال يلغطـــون ويمرحـــون كأنهم سرب من العصـــافير ٠٠ هؤلاء يتقـاذفون الكرة الشراب ، التي أصابتها مرارا في كتفها عند عودتها من الكلية في ذلك الوقت ، وأولئـــك يخططـــون أرض الشـــارع بالاحجار ، ويتقاذفون بأرجلهم الزاحفة كسرة من البلاط !! لقد كان هذا المنظر النابض يختفي يوم العيد ، لم تكن تدري هل يذهب سرب العصـــافير الى أماكن أخرى يلهو بها يوم العيد ، أم انها هي ٠٠ نوال ، التي كانت تشغل عن التسلي بهم ؟! لكنها تذكر جيدا ، يوم آخر عيد قضته في الوطن ، تذكره لحظة ٠ لقـــد جاء حسني ابن خالتهـا ليهنئهم بالعيد ، في الظاهر ، وليجلس بقربها ســـاعات في واقع الامر ٠ جاء تسبقه ضحكته المرحة ، وهو يهنيء اخواتهـــا الصـــغيرات متمنيا لهن أمنيـات احمر وجهها هي عند سماعها، حتى اذا وضعت يديها بين يديه ، سكنت ضحكته ، وانعقد لسانه ، كأنما انقطع التيـــار الكهربي فجأة عن مذياع في مقهى ٠ لكن إبتسامة واسعة ظلت تكسو وجهه ، ولم يقل لها أكثر من الكلمة التقليدية المحفوظة «كل سنة وانت طيبة يانوال » ٠

وحدقت نـــوال في أذرع المروحة المبسوطة في سماء الغرفة ، والنسمة المتسللة من النافذة الزجاجية المفتوحة تحركهـا في بطء رتيب ، جاءها صوت « أبو جاسم » عند باب المساكن ينادي كلبه ، ويعبث بأصابعه في مفتاح مذياعه الترانزســـتور ، فتختلط الأصـــوات والأنغام ٠ ثم أطبق السكون مرة أخرى، والتقت عيناها بالظـــلام عبر النافذة ، فعاد صوت حسني ، الهادي الخجول في تلك اللحظة ، يتردد صداه : كل سنة وانت طيبه يانوال ٠ وتمثلت لها أمها ، وهي تدخل عليهمـــا عائدة من المطبخ ، تفوح من ثيابها رائحة الشـــواء ، وقد تهللت لرؤية حسني واقبلت عليـــه ، فترك يد نوال ، والتفت الى خالته مهنئا، فبادرته وهي تقبله في خده : خذ بنت خالتك ، لتهنيء أختي بالعيد ٠ كان هذا ايذانا لنـــوال بأن تخرج مـــع حسني منفردين لأول مرة ٠ ولقد خرج معها ، وسارا في الشارع يلفهما الصمت ٠٠ كانت الشمس الصفاه تكتسحه بأشعتها، ولم يكن سرب العصافير موجودا ، ولقد تمنت أن يوجدوا ، وأن تصيبها الكرة في جسمها ، حتى تجد هي ، أو يجد حسني ما يقـــوله ، لكنها ـ ببراعة ـ استفادت من عدم وجودهم ، فقالت ، وصوتها لا يطاوعها : ياسلام !! الشارع من غير أطفال ، هاديء ونظيف ، صالح لأداء مهمتـــه ٠ هنا اســـترد حسني شيطنته ، وقال بسرعة لا يـــكاد يتبين معها مرمى كلامه : كأننا لن نضيف الى أطفـــال شارعنا عددا آخر !!؟ وفتحت نوال حقيبتها ، وأخرجت منديلا مسحت به طرف أنفهـــا ، وأهدابهـــا ، ووضع حسني يديه في جيبي سترته ، وغرقا في الصمت من جديد ، لم ينقذهما منه الا صعودهما الى الاتوبيس ، وقد أتاح

له ذلك أن يمس خصرها برفق وهو يحميها من ضغط الزحام !! لبيئة !! البيئة هناك حيث الزحام ياحضرة سيمافور غمره الرسمى ، حيث يحس القلب خفق القلب • ليس أمامى هنا الا: وحيد أبويه كان يستحم على الشاطىء وكاد يغرق لولا أن أنقذه شاب قوى شكره الوالدان شكرا جما •• صورى هذا الحادث بقلمك • أو : استمعت الى قصة من المذياع وأعجبتك لخصيها بقلمك ، أو على الاكثر : الأم مدرسة اذا أعددتها !! أم يريد حضرة الزناتى خليفة أن أعطى التلميذات مواضيع من بيئة مسكن المدرسات ؟! ان الامر على هذه الصورة يبدو أكثر معقولية ، فهى البيئة الوحيدة التى امتزج بها •• وأدركها ما أروع ذلك حقا : صورى بقلمك معركة كلامية بين سعاد مدرسة التربية الفنية ، وفاطمة مدرسة الحساب، سببها ضياع ملحق مجلة حواء!! تحدثى عن العقد النفسية التى تتمتع بها الاستاذه سلوى نتيجة لوجود ثلاثة أمتار من الجوبير الابيض فى حقيبة السفر ، ستصنعها فستان زفاف عقب عودتها • وصمتت أفكارها لحظة ، ثم عادت وقد سرت قشعريرة خفيفة فى جسمها «صورى قصة حب مع ايقاف التنفيذ» !! نعم •• هذا أجود ، انه من حياة مدرسة المادة ذاتها ، كيف أتطفل على مدرسات المواد الاخرى ؟!

وانصفق باب بعيد ، فى آخر الممر الممتد أمام الغرف المتجاورة ، فكأنما انصفق على صفحة من الافكار ، وقلب صفحه جديدة ، فتنبهت نوال للقلم الاحمر مايزال فى يدها ، واحدى الكراسات بين يديها ، وعن يمينها تل أشبعته شطبا وتصويبا . وأشبعها ملل وارهاقا ، وتل آخر ماتحسبه سينتهى الا وقد أجهز على ما فيها من القدرة •• فعادت تطلق نفسا حبيسا وهى تزفر : لا فائدة •• لا مفر !! وجرت عيناها على عنوان الموضوع ، فعرفت فيه خط تلميذتها « غنيمة » •• اليمامة الصحراوية الوديعة ، فأحست بارتياح شديد وهى تذكر وجه «غنيمة» الاسمر المستطيل قليلا ، وعينيها السوداوين الواسعتين ، وشعرها الفاحم الذىجدلته فى ضفيرة واحدة ، ممتدة الى أردافها اللطيفة ، الحديثة الوجود •• كم تتمنى لنفسها مثل هذا الشعر ، ومثل هاتين العينين • كم قرأت من الشعر العربى عن عيون المها ، لكنها كانت تعتبر هذا الشعر أيام الكلية ضمن المقرر ، يحفظ، ثم ينسى •• وظلت تجهل عيون المها الى أن رأت غنيمة ، فالتمست العذر للشعراء ، وحاولت أن تذكر شيئا من شعرهم • وعاد الى مخيلتها وجه تلميذتها ، وتصورتها غزالا صغيرا نافرا، يتواثب من حولها ، وله هاتان العينان • وذكرت اليوم الاول الذى ارتفعت فيه غنيمة من تلميذة عادية ، الى صديقة أثيرة عندها • جاءتها فى غرفة المدرسات ، وكانت وحيدة ، وقالت لها : اننى أحب الانفراد بنفسى ، وأبكى ، وأخشى من تأثير ذلك على المذاكرة ، وأنا أحبك ، وأحب أن تأخذى بيدى •

كانت هذه أول كلمة توجه اليها كانسانة ، وليس كمدرسة ، منذ وصلت هذه المدرسة ، فتطلعت الى وجه تلميذتها ، فرأت عيون المها ، ورقة الغزل ، فأمسكت بيدها فى رفق وتحبب وهى تقول : لا تساعدى نفسك على



الوحـــدة ، اختلطى باسرتك أكثر ، وذاكرى بصوت مرتفع ٠٠ أنا وقعت فى نفس المشكل عنـدما كنت فى سنك ، كنت أبكى كل يوم وأنا أتصيد أغنيات فريد الاطرش من أية اذاعة ٠

قالت المها : وأنا ٠٠ بس مع حليم !!

قالت نوال : لا فـــرق ٠٠ كلهـم يبـــكون ٠٠ فى الاغانى ٠٠ لكنهم فى الواقع يملكون قلوبا من حديد ٠٠ لى ابن خاله ٠٠ خطبنى بعد ما تخرجت ٠٠ أنا جئت هنـــا من أجله ٠٠ من أجل تكوين بيت له مستوى ٠٠ هنا أشياء ليست عندنا ٠٠ أول أسبوع ٠٠ كل يوم رســـالة ٠٠ وثانى اســـبوع ٠٠ رسالتين ٠٠ وبعد أسبوعين ٠٠ رسالة ، ومر شهر الآن لا أعرف عنه شـــيئا ٠٠ وطبعا ٠٠ الشارع مزروع بالألغام !!

قالت المها فزعة ، وقد زادت عيناها الجميلتان اتساعا : ألغام !!؟

ـ نعم ٠٠ ألغام آدمية ٠٠ والبعيد عن العين ٠٠ بعيد عن القلب !!

واكتشفت نوال ، انها ثرثرت مـــع تلميذتها أكثر مما تسمح به ظروفها ٠ فتوقفت فجأة ، وتنهدت ، دون أن ترضى التطلع الواضح على قسمات «غنيمة» ، لكنها منذ ذلك اليوم ، صارت صديقة لها ٠٠ انها لا تمارس حق الشكوى الا معها ، فلو انها شكت حسنى الى زميلة من المدرسات لتحول الامر الى اشـــاعة ومـذلة ٠ لكن غنيمة ٠٠ بيئة ثانية ، بيئة مختلفة ٠ وجذب نظرتها الشاردة شريط طويل من المصـــابيح الصفراء المضيئة ، يمتـــد مع الطريق الدائرى الذى ينتهى عند المطار ٠٠ ما كان أجمل النور الاصفر حين يكون تشكيلا بديعا مع النور الابيض ، ما كان أجمله حين رأته من شباك الطائرة وهى تحوم فوق العاصـــمة ليلة قدمت الى هنا ، وكم كانت آمالها زاهية، واحساسها بالمغامرة يجعل للحظات حياتها مذاقا حادا لذيذا٠

لكنها الآن ، والعيد على الابواب ، تراجع ميزانية الأيام الفائتة ، فتجد الخسائر فادحة ٠٠ في الارواح ، كما تقول نشرات الاخبار عادة حين تنشب حرب !! الذين هناك ينسون ، والذين هنا لا يذكرون ٠ وعادت تتمتم : « لا فائدة ٠٠ لا مفر » ٠

ونقرت بكعب القلم الاحمر بضع مرات كأنها تدفع خواطرها نحو التأهب مرة أخرى للعمل ، وجرت نظرتها بين السطور ، وما لبثت أن شعرت بارتياح عميق وهي ترى غنيمة قد اجتازت لحظة الخطر بسلام ، فقد قابلت الطفل وهو باك !! ووضعت كسرتين تحت الكاف لتؤكد لصديقتها أنها تذكر القاعدة ، ولم تكتبها صحيحة بالصدفة ٠ واحست نوال بالزهو ، ووضعت تحت الكلمة علامة صح ، لتؤكد لتلميذتها أيضا انها فطنت لذكائها ، وانها قدرته ٠ ومضت تقرأ الموضوع ، وهي تتذوق كل لفظ فيه ، وتحاول أن تجد فيه ظلا للذكاء والرقة ، يرضى رأيها في صاحبته ٠

وما كادت تنتهي من كراس غنيمة حتى عاودها احساس الملل والضيق ، وهي تمد يدها الى الكراسة التي بعدها، فالقت نظرة على ساعتها التائهة بين أكوام الكراسات ، فوجدت الوقت قد تجاوز نصف الليل ، فتمطت وهي جالسة حتى اصفرت الغرفة في عينيها ودارت ، ثم صفت واستقرت ، فقامت تتأهب للنوم ٠

وتمددت نوال في سريرها ، لكنها قبل أن تطفىء النور ، سمعت صوتا .قبل أن تطفىء النور سمعت صوتا يأتي نحو غرفتها من بعيد ، عرفت فيه صوت سلوى ، ولم تمض لحظات حتى سمعت طرقها على الباب ، فاوشكت أن تقول : ادخلي ياعقد نفسية ٠ لكنها كظمت غيظها ، ودخلت سلوى وفي يدها بطاقة مرسوم عليها باقة من الزهر ، هشت لها نوال ، واعتدلت في سريرها وهي تمد يدها لتاخذها ، قائلة : مأما ٠٠ حبيبتي !!

قالت سلوى بشيء من الجمود ٠ سلامة عقلك ياماما أنت ٠٠ معايدة ماما وصلتك البارح !! فانطفأت الفرحة قليلا ، لكن نظرة نزقة عبرت بعينيها لحظة ٠٠ تنبهت لها سلوى ، فعادت تقول ، وهي تبعد البطاقة عن يد نوال : كلا ٠٠ وليست من حسني !!

فكبا نور وجهها قليلا ، وهنا مدت سلوى يدها بالبطاقة وهي تقول : بريد محلي !! قالت نوال بدهشة خفيفة وهي تفتح البطاقة : بريد محلي ؟! ومن الذي سيذكرنا هنا ؟! قالت سلوى بسخرية: ريم على القاع بين البان والعلم ٠٠ التلميذة البايخة التي افسدتها بالتدليل ٠٠ انها معي من الظهر ، وقد فكرت مرارا في تمزيقها !!

فخطفت نوال البطاقة من زميلتها ، توقيعها تحت الاسطر القليلة، وانصرفت سلوى ، وعادت نوال تقرأ البطاقة ، وهي تحس على نحو غامض بمعنى من معاني العيد يتسرب الى نفسها : « أستاذتي العزيزة ٠٠ من تلميذتك المخلصة ، تقبلي أجمل التهاني بالعيد ، والسنة القادمة تكوني تد حققت كل أحلامك ٠ غنيمة » ٠ واعتدلت نوال قليلا ، ومدت ذراعها ، فجذبت القلم الاحمر من فوق المكتب ، ووضعت خطا تحت كلمة (تكوني) وكتبت فوقها (تكونين) ، ثم ألقت بنفسها في السرير تبحث عن النوم ٠

أعمق من الحب

بقلم : هنري بربوس
ترجمة : توفيق حنا

٢٥ سبتمبر ١٨٩٣

حبيبى لويس

وهكذا انتهى حبنا .. ولن يرى احدنا الآخر بعد اليوم .. ثق بهذا ثقتى انا به .. ماكنت تريد هذا بل كنت تريد انت تقبل كل شىء لنبقى معا ، ولكن كان يجب ان نفترق حتى تبنى حياتك من جديد ... ولست آسفة اذ قاومت ، فى اصرار ، هذه الاشياء جميعا ... انت ... انا .. نحن .. حين كنت تبكى وما اكثر ما بكيت وانت تدفن راسك فى فراشنا، ثم وانت ترفع وجهك مرتين ..وجهك المضىء فى ظلام الليل ، وحين لم أعد ارى دموعك وانما كنت أحسها تدمى يدى ..

نحن نتالم الآن الما شديدا هائلا.. وان هذا ليبدو لى وكانه كابوس .. وربما استغرق المرء أياما ليست بالقليلة لكى يعتقد شيئا كهذا .. وربما ظل المرء حزينا متألما شهورا ليست بالقليلة .. ولكن بعد هذه الشهور وتلك الايام .. يأتى دور النقاهة . وعندئذ ، وعندئذ فقط أبدأ الكتابة اليك مادمنا قد قررنا أن أكتب اليك بين الحين والآخر وعزمنا على ذلك عزما اكيدا وان هذه الرابطةالتى تربطنى بك ولا تربطك بى ــ اذ انك لن تعرف عنوانى .. ابدا ــ هذه الرابطة ستكون الشىء الوحيد الذى لايجعل وداعنا اليما مؤثرا .

اقبلك قبلة أخيرة .. اقبلك بكل مافى كيانى من رقة وعذوبة .. اقبلك من بعد شاسع ، هادىء ، ملائكى !

٢٥ سبتمبر ١٨٩٤

حبيبى لويس

أعود اليك لأحدثك كما وعدت .. ها قد مضى عام منذ ان افترقنا ... انى أعرف جيدا انك لم تنسنى ، فما زلنا متآلفين متحدين حتى انى لأعجز عن مقاومة الالم والحزن اللذين يتماكانى ساعة أفكر وساعة أذكر ..

على ان هذه الشهور المديدة لم تذهب هباء .. فهى قد اسدلت ستارا من الأسف الحزين على الماضى الذى

ولى .. انه مجرد ستار لا أكثر .. هى اشياء صغيرة بهتت واختفت مع تفصيلات كثيرة .. نعم .. اننا نقرر هذا حين تبعث احدى هاته الاشياء بمحض المصادفة والاتفاق ... لقد حاولت ان اذكر ماارتسم على وجهك من تعبيرات حين رايتك اول مرة ، ولكنى لم اتمكن تماما من استعادتها . فحاول انت ان تذكر نظرتى الاولى .. ستعرف تماما كيف ينمحى كل شىء فى الوجود .

ذات يوم ، ابتسمت .. علام ؟ ولمن؟ ابتسمت ، ولكن لم أبتسم لواحد بعينه ولا لشىء بعينه . انه شعاع مضىء لاح لى وأنا فى الطريق سائرة ، فدفعنى الى الابتسام برغم شفتى . لقد حاولت منذ وقت طويل ابتسم قليلا . ولكن اتضح لى انها محاولة من العسير اعادتها . الا انى ابتسمت يوما .. كما قلت لك .. ابتسمت برغمى .. وانى لاريدك ان تذكر هذا الماضى الذى أسعدنا او تنظر فى المستقبل ثم ترفع الراس وتبتسم

١٧ ديسمبر ١٨٩٩

ها أنذا من جديد بالقرب منك .. يا حبيبى لويس .. الست كالحلم فى ظهورى حين يسرنى الظهور ! ولكن اظهر دائما فى اللحظة المناسبة..وسط الظلام والفراغ .. وأذهب واجىء بالقرب منك ، لكن احدا لن يستطيع ان يلومنى .. ألست اذن حلما من الاحلام ؟

انا ليس بى من التعاسة شىء .. لقد استعدت شجاعتى بفضل هذه الاصبحة الجديدة وهذه الفصول الجديدة وهذه الشمس تنشر الثقة والصداقة .. وحتى هذا الضوء الخافت الذى يملأ النهار يلوح لعينى ممتعا جميلا .

رقصت مرة .. ضحكت كثيرا .. كنت أعد .. أول الامر .. المراتالتى كنت اضحك فيها .. ولكن زادت المرات حتى عجزت عن عدها

وبالأمس شاهدت عند المغيب حفلا .. كان الجمع يمتد ويمتد .. كحديقة جميلة ناضرة .. ورأيتنى سعيدة وسط هذا الجمع الباسم المرح السعيد

انى اكتب اليك لا حدثك عن هذا كله ولا نهى اليك اننى اعتنقت من اجلك دينا جديدا هو « الحنان » . لقد كنا نتكلم عنه فيما مضى دون ان ندرى عنه شيئا ذا بال ..

فلنصل معا متى نعتقد ونؤمن بهذا الدين ... فلنصل من اعماق قلوبنا ..

٦ يوليو ١٩٠٤

الاعوام تمر ... أحد عشر عاما ! لقد رحلت انا الى بعيد ... ولقد عدت .. وسارحل مرة اخرى .

ولا شك انه قد اصبح لك منزل يا لويس يا من تقدم به العمر .. منزل يضم عائلة .. وان حياتك أصبحت – من اجل هذه العائلة – على جانب كبير من الاهمية .

كيف انت الآن ؟.. اننى أراك بعين الخيال .. ممتلىء الوجه ، عريض المنكبين ، قد وخط راسك المشيب .. الا انى واثقة من إن وجهك ما زال – كعهدى به – يضىء لحظة الابتسام .. اليس كذلك يالويس يامن تقدم



العمر به ..! أما انا فلن أصف لك كيف تحولت الى عجوز شمطاء .. نعم عجوز .. ان النساء يهرمن بسرعة.. أسرع من الرجال . ولو قد قدر أن اكون بجانبك الآن لتبديت بالنسبة لك كأم .. كان يؤكد ذلك ، المظهر الذى اضفته الشيخوخة على وجهى ، كما كان يعلنه ما يملأ عينى وأنا أنظر اليك

انك ترى كم كنا محقين فى أن يترك أحدنا الآخر هكذا .. مادام قد عاد الهدوء ، وما دمت — وقد أمسكت بهذا الخطاب فى يدك قبل أن تفضه — قد

عرفت خطى بعد شيء من التفكير ...

٢٥ سبتمبر ١٨٩٣

حبيبي لويس

ها عشرون عاما تمضي على فراقنا .. ها عشرون عاما تمضي وانا في التراب .. وان عشت حتى تقرا هذا الخطاب الذى أرسلته لك تلك الايدى الامينة النقيه التى أرسلت لك ، خلال هذه الاعوام الطوال ، الخطابات الاخرى فسوف تكون قد سلوتني وحينئذ تغفر لي ان تتلت نفسى غداة فراقنا اذ لم أعرف كيف احتمل الحياة بدونك .

انه امس .. أمس حين افترقنا.. أنظر جيدا الى التاريخ الذى لابد وانك لم تتمكن من قراءته جيدا على رأس هذا الخطاب .. انه بالامس .. في غرفتنا .. حين كنت تبكي وراسك مدفون في الفراش .. غارقا في ضعفك وفى الك ، وكنت اراك خلالهما طفلا كبيرا . انه بالامس .. والليل مسدل استاره على الكون .. ونحن بالقرب من تلك النافذة التى كانت تطل على الفناء نصف مفتوحة .. حين انحدرت دموعك فى غزارة على يدى .. انه بالامس .. حين كنت تصرخ .. وحين لم اقل انا شيئا .. واقد كلفني موقفي هذا كل مابى من قوة .. واليوم .. كتبت على مائدتنا .. وسط اشيائنا جميعا .. وسط هذا الاطار الرائع الذى كان يضمنا .. كتبت الخطابات الاربعة التى استلمتها فى فترات متباعدة ، وانتهيت من هذا الخطاب الذى به انتهى كل شيء . وهذا المساء .. سأعد كل شيء حتى تصلك هذه الخطابات في مواعيدها وسأعد كل شيء حتى لايرانى أحد ثانية ..

ثم .. أختفى من الحياة .. ومن العبث ان أقص عليك كيف سيكون اختفائى . ان الحديث في هذه الاشياء الاليمة ربما يحز في نفسك حتى بعد هذه الاعوام الطوال .

المهم بالنسبة لى ، هو انى افلحت فى ان افصلك عنى دون جراح أو آلام .. وانما في حرص وفى حيطة وفى حنو وفى رقة . اننى اريد ان اعيش حتى أرعاك وليس هناك مجهود يذكر وما يبذله الانسان عند افتراقه عمن يحب .. انك برهافة حسك لا تحتمل هذا المجهود . سوف امثل هكذا بالقرب منك مرات قليلة متباعدة . وسأنطفىء شيئا فشيئا أمام عينيك دون ان أؤلم قلبك الرقيق وحين أعلن لك الحقيقة ، أكون قد كسبت وقتا كافيا حتى لاتفهم فتحس وتتألم . يا الهى ! انى أحس ياحبيبي لويس مايعنيه موتى . ان في هذا الحديث السامى معجزة رائعة .. حديث « اليوم » حيث نتحدث هذا الحديث الخافت الهامس من هذا البعد البعيد .. أتحدث وتصغى .. انا ولم أعد الا انت .. وأنت ولا تذكر من كنت أنا .. وحيث كلمة « الآن » تختلف اختلافا جد عظيم لمن كتبها ولمن يقراها

والآن خلال هذا الامتداد العظيم من الزمان .. خلال الابدية .. ولو ان هذا يكاد يبدو عقيما .. اقبلك قبلة صادقة ، ثم .. اقف .. إذ لا أجرؤ – خوف أن يكون الحزن مابرح يرهقنى فأؤلمك اذ ذاك – لا أجرؤ أن أعترف لك بكل مايمكن أن يوحى به الحب الكبير من جنون وما يوحى به الحنان الذى هو اكبر واعمق .

العود الأخضر

متولي

سعيد صبحي الصفالي

انطلقت الاصوات تعوى كصفير قطار والكتل السوداء تميل فى كل اتجاه • وتطوح بالايدى يمينا وشمالا • بينما لمعت الوجوه بانهـــا الدموع التى كانت تحفر طريقهـــا فوق الخدود المحمرة من اللطم والبكاء •

وصحا (سيد) من نومه فزعا • ينظر حوله مذعورا • وقلبه يدق فى عنف • ماذا حدث ؟ •• لا شىء • أبوه مات !!•

وهذا هو اليوم الثانى بعد وفاته • ولم تهدأ النار فى البيت بعد • ولاينتظر أن تخبو جذوتها أو تخمد • وان خمدت فبعد أن تترك آثارا رهيبة •

وفرك (سيد) عينيه فى بطء • وقام من السرير النحاس متخـــاذلا ، وألقى بنفسه فوق الكنبة المتداعية ، وما زالت آثار النعاس عالقة بأجفانه •

لقد نام كالقتيل بعد ليلة مرعبة • بدأت بتشييع الجنازة • وانتهت مـــع انصراف آخر المعزين الذين تجمعوا فى المســـاء فى صالة البيت • يســـمعون القرآن ، ويرشفون القهوة ، ويترحمون على أبيه •

وأبوه موظف بسيط • كان يعمل فى وزارة الصحة بالابتدائية القديمة• ورغم ضآلة مرتبه • اســـــتطاع أن يوفر لهم حياة مستورة تكفيهم مذلة سؤال اللئيم والكريم على السواء •

وها هو الموت يخطفه من بينهم فجاة• تاركا وراءه أسرة صغيرة ، وادعة لاتدرى من أمر نفسها شيئا •

وأمه المسكينة • لقد أنهكها الحزن بين يوم وليلة • وأحال شبابها الى حفر وتجاعيد تملأ صفحة وجهها المكروب •

كم كان يشعر بالحرج أمس •• وهو يحس بالمعزين من الرجال والنســـاء • يسلطون عليه أنظارهم • ويرقبونه فى كل خطوة • ومصمصات الشفاه تطقطق فى أذنيه •

ان بعض قريباته من النساء لميكتفين بهذا • فاحتضنه وقبلنه فى وجنتيه ، ودموعهن تغرق وجهه وتشعره بالبلل •

كيف استحضرن كل هذه الكمية من الدموع الى مآقيهن ؟ •

ومن أين لهن بتلك القدرة على البكاء المتواصل دون تعب ؟ •

وأين كان هؤلاء جميعاً قبل أن يموت والده ؟ •

لم يكن يعرف أن عائلة أبيه بمثل هذا الكبر الا أمس ••

صحيح انه سمع والده يتحدث عنها كثيرا •• لكنه لم يتحدث عن كل هذا العدد •• عدد ضخم من الرجال والنساء • كانوا يعزونه فى والده وكل منهم يذكر له أنه قريبه •• ولا يدرى كيف •

وجاءت عليه لحظة من لحظات الامس•• شعر فيها بالخجل من نفسه • فقد خالجه شعور بالارتياح ـ رغم حرجه ـ لاهتمام كل هؤلاء الناس به ، واستقطابه لكل هذا العطف بغض النظر عن زيفه أو صدقه •

ونهض (سيد) يجرجر قدميه ، وذهب ليغتسل والعواء يملأ عليه البيت كآبة وحزنا •

وعندما عاد • ارتدى ملابسه على مهل • وغادر البيت فى سكون ، وسار فى الطريق ، يتفحص وجوه الناس ، وهو يشعر بأنه عاد الى عالمه القديم • عالم ما قبل وفاة والده •

الناس يسيرون • وجوههم خالية من أى تعبير وعم (حسين) البقال جالس أمام دكانه يضحك بمناسبة وبلا مناسبة ليستعرض أسنانه الذهبية • و (حامد) صاحب محل الخردوات • منهمك فى مغازلة (فهيمه) الخياطة ، ويتبادل النكات البذيئة معها •

لا أثر للمأساة • لا أحد يحس بمشكلته وكلهم يعيشون حياتهم •• حياة كل يوم، بلا أدنى تغيير • لايعكرها الا مأساة كمأساته • لكن الى حين •

هذه هى سنة الحياة • فهو أيضا سيتخلص من الاحساس بمأساته هذه بعد حين • ليعيش فى مأساة جديدة • قد تكون مرتبطة بمأساته الحالية، لكنها تختلف عنها •

هو الآن مهدد بالفصل من المدرسة ـ أو على الاصح ـ مهدد بترك الدراسة طواعية ، والتخلى عن جميع أحلامه التى راودته ••

الجامعة •• الهندسة •• العمل الكبير • وعن المستقبل • كل هذا سيتخلى عنه الآن • فليس من المعقول أن يستمر فى الدراسة وقد أصبح العائل الوحيد لاسرته • ومعاش أبيه لن يكفيهم ولن يحصلوا عليه الا بشق الانفس • وموت يا حمار !!

هو لا يدرى ما الذى يمكن أن يعمله بعد أن يترك الدراسة • فهو من الصف الثانى الثانوى • ولم يحصل الا على الاعدادية وهى ـ كما يعرف ـ لاتوفر لصاحبها عملا بالمعنى المفهوم • فضلا عن **صغر سنه الذى يعتبر فى حد ذاته** مشكلة •

ولكن •• هل قدر له أن يواجه كل شىء بمفرده ؟! ان هذا هو ما يخشاه ويخافه •

لقد رأى زملاء له فى الحارة • يصبحون رجالا قبل الاوان •• وتنحنى أعوادهم الخضراء تحت أكوام المسئولية المبكرة •• كان بعضهم ينقصف •

والبعض الآخر كتب عليه أن يعيش محنيا باقى حياته ·

هـل جاء دوره ليصبح رجـلا فى السادسة عشرة · يحمل مسئولية نفسه وعائلته ؟

انه فى موقف أكبر منه·· وامكانياته وتجاربه الضئيلة أعجز من أن تقدم له شيئا ·

وكل هـؤلاء الاقارب من الرجـال والنساء · سيفرون عند الجد · عندما تنتهى صـدمة الحزن المؤقتة ويتلاشى الانفعال الزائف ويتبخر · هو يعرف هذا تمام المعرفة · فقد رآه من خـلال مآسى أصدقاء الحارة الذين ابتلوا بمثل ما ابتلى به ·

رآهم يواجهون العاصفة بمفردهم · حيارى ·· لايدرون أى طريق يسلكون· يمدون أيديهم الى فراغ · ولا يرون الا ضباب يخفى عنهم كوارث المستقبل · وان كانوا يدركونهـا بأحاسيسهم التى شحذتها الصدمة · هل قدر له أن يقف مثل هذا الموقف ؟ · وهل يحتمل هذه الصدمة ؟·· شىء محير · والعجيب أن التفكير فيه يزيده حيرة شديدة ومفاجئة، لقد أصبح بالامس فقط · معقد آمـال الاسرة بعد أن ذهب عائلهـا الاكبر · وعليه تتوقف حياة هذه الانفس المعذبة، التى هدتها الفجيعة ·

لم يترك أبوه شـيئا · ولا حتى ثمن الكفن · ولولا سوار ذهبى كان فى يد أمه · ورث ثمنه فى غفلة من الزمن · لما قدر لوالده أن يدفن أو يلمس جسده كفن · والجنيهات القليلة التى تبقت من ثمن السوار ·· ذهبت أشتاتا ، وذهبت فى لوازم الموت · وكان الدنيا تأبى الا أن تجردهم من كل شىء حتى يقفوا أمامها عزل من كل احتمالات المقاومة ·· موت وخراب ديار ·

وتذكر (حسن) و (عبد العزيز) وزملاءه فى المدرسة · لقد دخلوا جميعا القسم العلمى ·· ليلتحقوا بعـد ذلك بكلية الهندسة سويا ·· هكذا كانوا يأملون · وعلى ذلك صمموا · وها هو الآن مضطر



الى التخلف ، فامامه ظروف غير طبيعية تسد عليه الطريق ، وتقف حائلا بينه وبين أحلامه ، وأصبح مقدرا له أن يعيش عودا أخضر محنيا ، هذا ان لم يتيبس وينقصف قبل الاوان ، وأحس بالثورة .. الثورة على كل شيء .. على الفقر .. على القدر وسوء الحظ .. لماذا يموت أبوه الطيب الفقير ؟ .. وتموت معه أحلامه وآماله ، ولماذا أبوه بالذات ؟ ألم يكن فى وسع القدر أن ينتظر .. ينتظر ولو قليلا ..

وماذا يعيد كل هذا الآن ، لقد وقع الامر ، وعليه أن يكيف نفسه ويهيئها للظروف الجديدة التى أحاطت به دون أن يكون له دخل فى ذلك ،

وتعب من المشى ، وأحس برغبة ملحة فى الجلوس .. أن يفترش الارض ويريح أقدامه المتعبة .

لقد سار بالامس كثيرا .. دار على بيوت الاقارب يحمل اليهم نبأ وفاة والده .. لكم كانت كريهة هذه المهمة البغيضة ، لقد شاهد ألوانا من النفاق والحزن الملفق لم يكن يتوقع أن يراها ، ومع ذلك فقد كان عليه أن يستمر فى هذه المهمة حتى النهاية .. وبعدها .. جرى الى الحانوتى ، ثم سار فى الجنازة ، يحوطه المشيعون ، يطيبون خاطره ، ويواسونه فى مصابه الاليم .

كان يعلم أنهم لا يتكلمون الصدق ، هى فقط تادية واجب تمرسوا عليها وخبروها . أما مأساته ، فلم تكن تهمهم من شيء ، انها مأساته هو فقط ، ولا تخص أحدا سواه ، وعليه أن يواجهها بمفرده دون أن يعتمد على أقرب الاقارب فكلهم منافقون ، يسرفون فى الكلام .. الكلام فقط .. أما أى شيء آخر فهم لا يعبأون به .. ولا يهمهم .. حتى ولو كان عذاب أسرة وشقاء رجل صغير ، يواجه العاصفة ، أعزل من كل مساعدة ..

واستدار عائدا الى البيت .. فلم يكن يعرف أين يذهب ..

كان الوقت ظهرا ، والشمس تطل من بين السحب البيضاء لتعود وتختفى وراءها ، وشعر بالارهاق والتعب ، وأحس برجليه تعجزان عن حمله ، فسار الى البيت وهو لا يدرى ان كانت قدماه تتحركان أم ان الارض هى التى تسير به .

ودخل شقتهم الصغيرة ، فوجد أمه متكومة على حصير فى احدى الغرف التى أخليت لاستقبال المعزيات ، وقد راحت فى ما يشبه الغيبوبة ، وبجانبها احدى الجارات العجائز ، متكئة على الحائط فى وهن وقد اسبلت أجفانها .

أما أخته الصغرى ، فجلست ورأسها مرفوع ، وعينيها تحدق فى الفراغ ، والذهول يشكل تقاطيع وجهها الطاهر البرىء ، وكان عقلها ما زال عاجزا عن استيعاب ما حدث .

لقد مات أبونا ياجمالات ، وعلينا من اليوم أن نعد أنفسنا لحياة جديدة ، قد لا تعرفين ماهى .. ولكننى أعرف ، وهذا ما يعذبنى ..

ودون أن يحس به أحد .. اتجه الى غرفة النوم ، وخلع ملابسه فى هدوء ، وألقى بنفسه على الفراش وهو يتنهد بعمق .. ولم يلبث أن راح فى سبات عميق

المشكلة


متولى

حسن محسب

وقف « رجب » مذهولا ٠٠ وحاول أن يكذب أذنيه ٠ ٠حاول أن يقول لنفسه ان كل ما سـمعه غير صحيح ٠٠ لكن زميله عبد الرحيم طوى الرسالة ٠ ٠ بعد أن فرغ من قراءتها له ٠٠ وأعادها اليه قائلا :

ـ ولا يهمك يارجب ٠٠ شدة وتزول!

وأحس رجب بالالم يتزايد فى أعماقه ٠٠ ويملأ حلقه بالمرارة ٠٠ فأحنى رأسه ٠٠ ومشى فى الطرقة الطويلة ، ويده تطبق على خطاب زوجته ٠

ظل رجب فترة مستسلما لقدميه تقودانه فى ممرات المصنع الكبير ، غير شاعر بزملائه الذين يمرون به مهرولين فى صخب ، مشغولين باعمالهم فى قسم التشطيبات ٠

والماكينات من حوله تدق فى عنف ، وكأنها تطحن رأسه ، ولكنه ما لبث أن رفع يده ، ونظرالى رسالة زوجته وهمس فى حيرة :

ـ شىء غريب ٠٠ غريب ياناس والله !

وتوقف قليلا ٠٠ وهرش رأسه مفكرا ٠٠ ثم ضرب ياقة « الأفرول » الازرق على قفاه فى عنف ٠٠ وخبط قدمه فى بلاط الممر ٠٠ وواصل سيره وهو يضغط الرسالة بين أصابعه التى صبغها الشحم ٠

وعاد يحدث نفسه :

ـ أبى يعاملنى وكأنى ما زلت طفلا ٠٠ وأمى أيضا ٠٠

وتحسس رجب شاربه بأصابعه المضطربة واضاف :

ـ رغم اننى رجل ٠٠ اعمل وأعرق ٠٠ مثل زملائى ! ٠٠٠

وتوقف قليلا ، وأسند رأسه الى الجدار الذى تهزه دقات الآلات الصاخبة، وأخذ يرقب زملاءه المنهمكين فى عملهم ، وقد سود الشحم وجوههم وسواعدهم ٠

ولمح زميله عبد الرحيم ٠٠ الذى قرأ له الرسالة منذ لحظات ٠٠ لمحه يسرع بما يحمله من قسم الخراطة الى قسم التشطيب وراق له ان يرقب عينا زميله وهما تبرقان فى رضا ٠٠ وحدث نفسه:

ـ عبد الرحيم ٠ ٠ مثلى تماما ٠ ٠

يعمل مثلى . . ويأخذ أجرا كأجرى . . لكنه رجل له قيمته فى بيته . . والده يحترمه . . وأمه تحب زوجته . . لقد رأيت هذا بنفسى .

وعاد رجب يسير فى الممر الطويل ، وهو حائر ، محاصر بالألم . . ورسالة زوجته مازالت فى قبضته .

وصرخ فيه رئيسه عندما دخـــل القسم :

ـ أين كنت ؟ . . اسمع . . اذا لم تكف عن عبثك واهمالك لعملك فسأكتب تقريرا ليريحونى منك ، وبصعوبة قال رجب فى ذعر :

ياريس أنا . . .

فقاطعه :

ـ العمل عمل ياحبيبى . . والا . . وربنا أتسبب لك فى مجلس تحقيق . . وأخرب بيتك ! .

وارتعدت فرائص رجب . . واتسعت نظراته فى خوف . . وكلمة رئيسه : «أخرب بيتك» تتردد فى أذنيه بقسوة ، وتقلصت أصابعه على رسالة زوجته . . وهمس فى ضعف :

ـ تخرب بيتى ؟! . . لقد فعلها أبى ؟

واقترب رجب من المـاكينة ، وراح يضغط على الكباس ليغلق صممات الجهاز ولكنه لم يكن يعى ما يفعـــله . . كان يتساءل فى مرارة :

ـ الجميع ضدى . . كلهم . . أمى وأبى . . ورئيسى أيضا . . لماذ ؟ . . اننى لاأقل عن أى رجل . . و . . .

وأفاق على هزة مباغتة ، عنيفة . . فارتخت ذراعاه ، وشحب وجهه الذى تلمع فيه بقع الشـــحم . . ونظر فى اضطراب الى المـاكينة التى توقفت عن العمل .

كاد يستسلم ليأسه ، لكنه لمح رئيسه مقبلا من بعيد ، فأخذ يتفحص أجزاءها فى خوف . . وانكمش على نفسه عندما لسعه صراخ رئيسه :

لو نفعت يارجب يا بن شعبان ! . .

وصمت الرجل لحظة . . ثم هتف :

« ماذا فعلت بالماكينة يا . . . »

واسرع رجب يقول :

ـ الحكاية ياريس . . . ان . . .

وصمت لحظة ، وهو يتحسس الرسالة فى قلق ، وتمنى أن يسمعه رئيسه . . لعله يعذره ويقدر اضطرابه الذى أدى الى تعطيل الماكينة . . ولكن رئيســه صرخ فيه :

ـ حكاية ؟ . . أى حكاية ! . . انك دائما تكسر الماكينة وتعطلها . . . و . . .

ـ يا ريس الحكـــاية . . ان أبى ضرب . . »

ضربة فى دماغك . . الماكينة لا بد أن تدور الآن . . أتفهم ؟! .

واسرع رجب يقول :

ـ أعرف ياريس . . أعرف . . لكن . .

وفى ارتباك أضاف :

ـ أليست لك زوجة ياريس ؟! .

فحدق فيه الرجل بدهشة بالغة . . وكأنه يرى مجنونا أمامه . . ثم قال:

ـ شىء غريب . . مادخـلك أنت فى حياتى وبيتى ؟ .

ثم ضربه على رأسه براحته مهددا :

التفت لعملك يا شاطر ! .

وانحنى رجب وبدأ يصلح الماكينة والعرق يلمع على وجهه الشاحب . .

وبعد لحظات طويلة ، تعذب فيها رجب انطلقت صفارة المصـــنع تعلن راحـة الغذاء .

وفى البوفيه . . وجد رجب نفســه وحيدا . . بين زملائه الزائطين . . وهم يتبادلون النكات والمداعبات . . فانزوى



فى الركن .. وراح يحدث نفسه :

ـ لماذا ياأبى تفعـل كل هذا فى زوجتى ؟

وغامت عيناه وهو يتذكر تلك الايام التى عاشها فى القرية .. حيث كان محط استهزاء الجميع .. لطيبتـه الزائدة عن الحد ..

وخيل اليه أن أصوات أهل قريته تطارده بكلمات قاسية :

ـ رجب أهبل .. رجب العبيط !

فانتفض فى ذعر .. وعندئذ قال له عامل البوفيه :

ـ ماذا بك يا أخ رجب ؟ .. لمـاذا تجلس هكذا وكأنك مسئول عن تنظيم الكون ؟ ! .

وشعر رجب ببوادر راحة نفسية .. لأن عامل البوفيـه حدثه .. فأسرع يقول :

ـ زوجتى أرسلت لى خطابا اليوم تقول

عيه إن أبى وأمى طرداها من البيت ! ٠ و ٠ ٠ ٠

ولكنه توقف فجأة ٠٠ عندما تركه عامل البوفيه وانشغل فى عمله ٠ ٠ فاعتصرت المرارة قلبه ، وهو يزداد احساسا بغربته وشقائه ، وحمل على نفسه وخرج من البوفيه ورسالة زوجته فى قبضته ٠ وفى أعماقه احتراق :

وهمس لنفسه :

ـ سنة ونصف وانا أعيش غريبا بعيدا عنهم ٠٠ والدم جف فى عروقى من الجرى وراء لقمة الخبز ٠٠ و ٠٠ لم أر زوجتى غير مرة ٠٠ مرة واحدة كل ثلاثة أشهر و ٠٠٠

وغلبه الأسى فصمت ٠٠

لكنه أحس بفراغ هائل مخيف يحيط به ٠٠ فهرول الى الخارج ٠ ٠ كان يود الهرب ٠٠ الانطلاق ٠٠ الى أين ؟ !٠ ٠ لم يكن يعلم ٠٠ لكنه أصبح يخاف وجوده بين زملائه ورئيس عمله ٠

ورآه حارس الباب فاستوقفه ٠٠ وساله :

ـ الى أين يارجب ؟ !

فانهار رجب عند المدخل ٠ ٠وراسه بين راحتيه ثم ٠٠٠

فساله الرجل :

ـ ماذا بك ياولدى ؟

ـ لا شىء يا عم محمود ٠٠ لا شىء !

ولكنه لمس طيبة قلب «عم محمود» ، فهم أن يحدثه عن المشكلة التى أطارت عقله ٠٠ لكن صفارة المصنع أعلنت بدء العودة للعمل٠٠ فنهض فى اعياء واتخذ طريقه الى محل عمله وقد بلغ به الضيق منتهاه :

ـ ماذا أفعل ياعبد الرحيم ؟ ٠٠ هل أسكت ؟ ٠٠ ان زوجتى لا ذنب لها فى الموضوع ٠٠ مالها والارض ٠٠ ان الخلاف كله بين أبى ونسيبى ٠٠ فما هو ذنب زوجتى ٠٠ ؟ لكن ٠٠ انا اعرف السبب ٠٠ منذ تزوجت فاطمة ٠٠ وأمى لاتكف عن اعلان سخطها عليها ٠٠ بغير مناسبة ٠٠ أتعرف لماذا ياعبد الرحيم ؟ لانها كانت تريدنى أن أتزوج ابنة خالتى ٠٠ وانا رفضت لانى كنت أحب فاطمة ٠٠ ياسلام ياعبد الرحيم ٠٠ ان فاطمة مثل حبة الجميز ٠٠ حلوة وطيبة و ٠٠٠

ولكزه عبد الرحيم فى جانبه وهو يقول :

ـ يارجب انتبه ٠٠ الماكينة كادت تاكل ذراعك ٠

ثم تركه ومضى لعمله ٠

واخيرا ٠٠ خرج العمال فى جماعات ٠٠ وفى مؤخرتهم رجب يسير كئيبا ٠٠ لايعرف لماذا تحدث هذه المسائل من حوله ٠٠ ! والده وأمه يطردان زوجته ، بسبب خلاف مع والدها ٠٠ أو بلا سبب ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ وزملاءه فى المصنع يمتص العمل كل وقتهم ٠٠ و ٠٠ لا أحد ـ يشاركه أحزانه ٠ ٠و ٠٠ اقترب من مدخل المنزل الذى يسكن فى احدى حجراته ٠ ٠وسمع وهو يصعد السلم سمع مواء قطة وقط فى بئر السلم ، فتوقف برهة ، وتكرر المواء بشكل مثير وتورد وجهه خجلا عندما رآها !٠

وصعد السلم وقد ارتسم فى خياله زوجته وهو يضمها الى صدره فى حب وحنان ، وهى تقبله باشتياق وظمأ و٠٠٠ دق قلبه بحلاوة الذكرى ، وتغلغل شعور بالراحة فى نفسه ، فقال فى رقة وطيف زوجته مازال يملأ خياله :

ـ سأحضرها لتعيش معى هنا ٠٠

وأحس بالهدوء يحتضن كل مشاعره٠

الخزانة

بقلم فخرى فايد

لقد اعتاد راضى ألا يكون فى حياته ما هو سر يخفيه ، ولا ما هو خاص به فيغلق أبوابه دون من حوله : فزوجته لا تترك ثنية فى ملابسه الا وفتشتها وهى تفتح رسائله وتقرؤها قبل أن يقرأها هو ، أنها تنتظره كل يوم فى مدخل البيت لتستجوبه فى دأب ومثابرة عن كل ما صدر عنه أثناء مكوثه بالخارج بطريقة تشعره بأنه واقع تحت تأثير كابوس لاسبيل للخلاص منه الا بتقيؤ كل ما بداخله . أما زملاؤه فى العمل فانهم يفتشون مكتبه ، ويضعون أيديهم فى جيوبه ويخرجونها بكل ماتتعثر فيه أصابعهم : علبة سجائره . حافظته . ورقة بها أسماء الدائنين . رسالة غالبا ماتكون من ابنته المغتربة تشكو له على صفحاتها قسوة زوجها ، كما أنهم يتبسطون معه فى الحديث فيسألونه عن أدق مافى حياته من أشياء ، وكان «راضى» فى البدء يجد غضاضة فى أن يجيب ، ثم اعتاد مع تتابع الايام أن يحكى بلا تحرج . حتى أننا نستطيع أن نقول ان حياته كانت كعلبة من زجاج شفاف . لكن ...

وبالرغم من هذا ...

اربد وجهه راضى فأصفر ثم احمر لما سمع رئيسه ينبئه برغبة المفتش القادم من الوزارة فى أن يلقى نظرة على الخزانة ، وراحت تجاعيد وجهه ترتعد فى انفعال انعكس على صوته رعشات ووهن وهو يعلن :

— لا .. اننى أرفض .

سأله رئيسه مندهشا : كيف ترفض .. انها أوامر الوزارة ؟

صرخ راضى فى غضب : وأين كانت أوامر الوزارة طيلة الخمسة عشر عاما الماضية ؟ .. اننى لن أسمح لاحد مهما كان بأن يفتح الخزانة . السماء أقرب اليهم من فتحها .

همس رئيسه وهو يميل على أذنه هامسا : اذا كان هناك عجز فى عهدتك تستطيع أن تسويه بدون ضجة أو فضائح ، فى مكتبى خمسون جنيها أضعها تحت تصرفك ولك أن تسددها وقتما وكيفما تشاء . وبان التأثر على راضى ، فخرجت كلماته هادئة متوسلة : لا ياسيدى .. ان الامر ليس كما تظن . انه أعمق من هذا ، انها الخزانة ...

ولكنك لن تفهمني ياسيدي : انه شيء مريع • انها في حوزتي منذ خمسة عشر عاما لم يمس مابداخلها مخلوق غيري ، أنا فقط •• لا زوجتي ، ولا زملائي • انها •• انها ، ولكن •• هل ستفهمني ياسيدي ؟ لا •• لا أبدا لن تفهمني •

واندفعت الدموع الى مـــآقي راضي فسكت ليخفف من انفعاله ، ثم تساءل ، أنت •• أنت يا سيدي هل شككت في يوما ؟ •

: أبدا •

: هل تعتقد أنني لص ، أو أنني أقدم على فعل شيء مشين ؟•

: مستحيل •

: اذن فأنا رجل نظيف ؟ •

: يا الهي ، وهل هناك من يشك في نزاهتك ؟

وما دمت كـــذلك يا سيدي ، لم يتطفلون على خزانتي ؟

تمتم رئيسه مهونا الامر : انها مجرد اجراءات روتينية ، تنفيذ أوامرليس الا•

ثار راضي فارتفع صوته حتى تحول صراخا : أية أوامر تلك • لينفذوها على أنفســـهم لـــكنني لن أســـلم المفتاح ، ليكسروها أو فليحرقوها • لكن الخزانة لن تفتح بمحض ارادتي •

وجذبت الضـــجة المفتش فاقبل على الحجرة تسبقه نظرات متسائلة مالبثت أن تحولت الى مزيج من الدهشة والخوف• فما أن رأى راضي المفتش حتى اندفع اليه يجذبه بيـــديه الواهنتين من ياقة سترته وصوته يرعد : انك لن تجرؤ على فتحها ، أبدا لن تفتحها أنت أو غيرك ، انني أرفض هذا التفتيش••• أتسمعني، انني أرفضه ••• أرفضه •

وحاول الرجلان أن يهدئا من ثورته : فقط لنتفاهم في هدوء •

لـــكن راضي لم يقبل مبـــدأ التفاهم مطلقا • فهو لن يسلمهم المفتاح ، وعلى المفتش أن يتصرف كيف يشاء •

هدده المفتش : سأبلغ الامر لرجـــال الشرطة لينفذوه بالقوة

ورجا رئيســـه : لا داعي لهـــذا فسيسلمك المفتاح •

بينما أصر راضي : أبدا لـــن أســـلم المفتاح لاحد فأنا أرفض هذا التفتيش•

وغضب رئيســـه ، وصرخ المفتش : ســـأكتب عنك تقـــريرا يخســـف بك الارض ، وسأطالب باحالتك الى النيابة الادارية ثم اندفع الى الهاتف • وما هي الا لحظات حتى عوى نفير عربة الشرطة تحت النافذة ، وتدفق ما بجوف العربة من رجال داخل الحجرة يحيطون براضي : وكلمات منهم ورفض منه حتى ارتفعت حرارة النقـــاش وأخذت طابع العـــراك ، فصرخ الضابط : سأكسر الخزانة وفي هذه الحالة ستتحمل المسئولية وحدك•

قفز راضي فأســـند ظهـــره الى باب الخزانة ، وصاح متحديا : لن تستطيع مسها •

وتدخـــل الحاضرون فالتفوا حول الضباط وارتفع لغطهم • كانوا خليطا من البشر : شرطة • مخبرون • ناس من العامة وكلهم يتطلعون الى الخزانة تكاد نظراتهم أن تخرق جسد راضي وتدفع بالرجفة في أوصاله ولما تقدم الضابط

يشق طريقه متجهــا الى راضى ، شعر راضى بخوف لا حدود له ، همس أحد الوقوف فى أذن الضــابط : عليك أن تستعمل ذكاءك فانت لا تســتطيع أن تكسر الخزانة الا بأمر من النيابة ·

تمتم الضــابط : أعرف هذا ، ولكن لأحاول أن أهوشه ·

ورسم على وجهه تعبيرا صارما ، ومد يده مشيرا الى راضى وصــاح : ابعده يا عسكرى ·

وتطلع راضى الى العيون التى ترقب الموقف فامتلأ هلعــا وهمس : لا داعى ياسيدى لكسر الخزانة ولنتفاهم ·

فوجىء الضابط فلم يرد وان تألقت عيناه ، أردف راضى : فلنتفاهم ياسيدى فى هدوء

تدارك الضابط الموقف : آسف فليس لدى وقت أضيعه فى المحاورة ، ساكسر الخزانة ، هذا ما عزمت عليه ·

: افهمنى ياســيدى · سأعطيك المفتاح ·

فرد الضابط كفه وقال آمرا : هاته ·

جالت عينــا راضى فى الوجــوه فانغرست فيها مائة عين ، وخرج صوته كالعبرات : أتحتجهــا أمام كل هــؤلاء ياسيدى ؟ ··

: طبعا

: وما الفائدة من وجودهم ؟

: شهود ·

: أرجوك ياسيدى لاداعى لكل هذا الامتهان

: أى امتهان ؟

: أخرجهم من الحجرة وأنا مســتعد لتنفيذ كل ما تأمر به ·

: لن يخرج أحد ·

: أرجوك ياسيدى ·

: لا رجاء ·

: من أجل شيخوختى

وكاد الضابط يمضى فى عناده لكنه ادرك أنه قد يستثير راضى فزم شــفتيه وأمر الجنود بان يطردوا كل من بالحجرة ، ويبقى المفتش واثنان من رؤساء الأقسام·

··· ولما بدأ الجنود ينفذون الامر زفر راضى بارتياح وابتعد عن الخزانة واتجه الى مقعد قريب وترك جسده يتكوم فوقه ثم مد يده بالمفتاح الى الضابط ونظراته المتعبة ترجوه : أخرجهم ·· أخرجهــم جميعا يا سيدى ·· جميعا ·

وحينما استقر المفتاح الرطب فى كف الضابط تألقت عيناه بانتصار ، وصرخ فى جنوده يستحثهم على الاسراع وماهى الا لحظات حتى أخليت الحجرة ·

وتقدم الضابط بخطوات واثقة ففتح الخزانة ثم اســتدار متجهــا الى راضى وناداه : انهض ياســيد راضى لتحضر الجرد ·

لكن راضى لم يرد ، ظل فى جلسته المتراخية فتحرك الضابط واقترب منه وقال فى لهجة يشوبها بعض من غضب : انهض ياسيد راضى ·· هيا ·· هيا

وتناول الضابط يد راضى ليساعده على القيام فلم يبد على ملامحه الصفراء مايبين أنه سيستجيب فصرخ به الضابط ثائرا ، وهو يشعر بأنه قد أهين : اقول لك قم ياسيد راضى ·· هيا · ·

وجــذب يد راضى بعنف ليجبره على النهوض فاستجابت اليد ومــال راضى الى أمام ·· الى أمــام ·· أمام ، ثم سقط الجسد الهامد من فوق المقعد بقوة منفرشا على الارض ·

الشيخ عثمان متولى

قصة سودانية

بقلم: السيد على كراس

عمره ثلاث عشرة سـنة ٠٠ قمحى اللون ، قصير القامة على وجهه تجعيدات خفيفة خطت برفق ٠٠ رأسه مستطيل ٠ فى عينيه عمق غريب ٠ كان يسير وكان الدنيا كلها تحت قدميه ، يرفع رأسه عاليـا كانه يريد أن يعانق السماء ٠ أدار جسـده ناحية اليمين ، وتوقف فجاة ثم أحنى ظهره بصعوبة ليلتقط من الارض شركا كان قـد نصبه فى عصر الامس ٠ الشرك لم يكن فى محله ٠٠ يلتصق به ريش قمرية ٠٠ وارتسمت على شفتيه بسـمة المرارة واليأس ٠ وبلامبـالاة ألقى بالريش فى الفضـاء فاخذت نسمة الصباح معهـا الريش ٠ جلس عثمان فى مكانه يحدق فى الارض يبـحث عن أثر ٠٠ أى أثر ٠٠ آقدام حمار ٠٠ بقرة ٠٠ ماعز ٠ ٠ولكنها كلها لا تهتم بشركه ٠ ووجده أثر ثعبان كبير وتبعه وقد نوى شيئا ٠ انه الثعبان ٠٠ هو الذى أخذ قمريته ٠ وتبع الاثر الذى يتلوى فى الزقاق الذى يشق أحواض البامية وتوقف تحت نخلة القرقودة.. ينظر فى جذعها فلم ـ يجـده ٠ وابتدأ يدور تحت النخلة ولـكن بدا له ان الثعبان لم يفارقها على الاطلاق ٠ ونظر الى أعلى فرأى عدوه الثعبان يلتف بجسده حول جريدة من جرائد النخلة والقمرية فى فمه ٠ وأخذ حجرا ورمى به الثعبان ٠ ولكن الثعبـان لم يقع ، وأرسل آخر وثالث ٠ وفجاة توقف ٠ ماذا يقول عنك الناس عندما يرونك يا عثمان ٠ وأنت رجل كبير ينادونك بشيخ عثمان ٠

كان عثمان أكبر أولاد أبيه ٠ وعندما توفى والده فى السنة الماضية بقى هو المسئول عن الساقية والحمار والبقرتين ٠ وكبر فى عيون الناس ٠ ومن ثم بدأوا ينادونه بشيخ عثمان ٠ وكانت أقواله وحركاته وسكناته تقـول انه فى سن العشرة أو أكثر وليس الثـالثة عشرة ٠ يقوم فى الصباح ليؤدى الصلاة ، وبعد ذلك يتحرك الى الساقية ، ويحرث فيها حتى ياتيه البقيـة من الرجال ٠ كان يؤدى عمله فى نشاط واحساس عميق بالمسئولية التى تتمثـل فى أمة آمنة واخته سعيدة وأخيه الصغير علوبى ٠ كبر فى نظر أمه وأخته وأخيه الصغير الذى كان يناديه ـ ببابا ـ ٠

توقف عثمان عن رمى الحجـارة ، وتلفت حواليه وعلى شفتيه ابتسامة ٠٠ فلم يره أحد ٠ ودخـل المراح ، وصار يربت على ظهر احدى بقرتيه بعد أن ألقى بالشرك فى ركن من أركان المراح ٠ بدأ يلملم بقـايا سيقـان الذ

أحضرها بالامس عشاء لبقرتيه ، وكومها فى داخل المراح ، وبعد ذلك بدأ يجمع بعر البقرة الصغيرة ليزيحها عن طريقه ٠ وابتدأ يفرش البعر تحت الشمس ٠ والقى بنظرة الى الجعرانة التى كانت تدحرج كرة من البعر ٠ ووقف يمط جسده فى الفضاء كانه يريد أن يعانق السماء ٠

كانت أخته سعيدة التى تبلغ من العمر الخامسة عشرة تسير نحوه ، وقالت وهى تضع البعر الناشف فى قفة تحملها ـ عثمان سقيت الحمار ٠ وتوجه وهو يمد اصبعه نحوها يحذرها قائلا :

أوعك تشيلى قصبة واحدة من المراح٠ القصب دا دايرين نخلى للبقر فى الشتا ٠

واجابته بانها تعرف ذلك ٠ توجه عثمان الى مربط حماره خلف المراح ، وركبه وتوجه الى النهر ٠ كان يبدو على الحمار انه لم ير الماء منذ أيام مما جعله يخوض فيه حتى وصلت المياه الى بطنه٠ فى تلك اللحظة كانت أسراب من الفتيات يحملن الصفائح الفارغة ليملأنها من النهر ٠ وتوقفن عندما رأين عثمان يغسل ظهر حماره وهن يهمسن لبعضهن بصوت خافت ، وعلى وجوههن فرحة طاغية ٠٠ كان فى نظرهن كبيرا ٠٠ كبيرا وعاقلا ٠ وحدق فيهن عثمان ثم عاد يغسل ظهر حماره ٠ وتقدمت الفتيات وهن يشمرن ما عليهن من ثياب الى النهر ليملأن الصفائح ٠ عاد بحماره الى المراح ، وهناك وجد أمه آمنة قد عادت من الجزيرة بعد ان أحضرت كمية من النجيلة لغذاء البقرتين ٠ وكان يبدو عليها التعب والارهاق ووجهها ينم عن تعبير مخلوط بالفرح والحزن ٠ شعيرات

بيضاء متطفلة بدأت تتسرب داخل شعرها قبل أوانها ٠ ورفعت رأسها فى اعياء شديد تنظر الى ابنها كأنها لاترى رأسه ٠٠ خيل لها أنه أطول من كل شىء ٠ وتقدم هو منها وطبع على جبهتها المكسوة بالتراب قبلة حارة جعلت الصفاء يرجع الى وجه الام الكئيب ٠ وانفرجت شفتاها عندما بدأ عثمان ينفض عن قميصها بقايا النجيلة التى علقت به ٠ ونهضت واقفة لتضمه بقوة كانها تريده أن يدخل فيها مرة أخرى ٠ وتقدمت منها سعيدة التى كانت تحمل على رأسها وتضع تحت ابطها حزمة من جريد النخل الجاف ٠ جلست بالقرب من أمها ، وأخذ عثمان يفرغ النجيلة والبقرتان تلتهمانها فى سرعة٠٠ وضرب عثمان احدى البقرتين لتفسح له الطريق، وأخذ ما بقى من النخيلة وأفرغه أمام حماره الذى كان يفتح فمه يستعد للنهيق ، ولكنه بلع صوته عندما رأى الخضرة أمام عينيه ٠

طلبت آمنة من ابنها أن يذهب معهن للبيت الا أنه اعتذر بانه يريد أن يرى الاحواض التى سوف تسقى بالليل ٠ وتوجهت آمنة وسعيدة الى الحملة عندما أخذ عثمان شركه وكأنه يسرقه ٠ فقد دخل المراح مرة أخرى ببطء وهو ينظر الى والدته وأخته ٠

ذهب عثمان الى شجرة الطلح التى وجد تحتها دروبا كثيرة للزرازير والقمارى ٠ وهناك نصب شركه ورجع قافلا للبيت ٠ وفى الطريق أحس بشوق وبتطلع نحو الغد ، الذرة قرب أن ينضج، وشركه سوف يقبض له زرزورا او قمرية ٠٠ وأخته سوف يزفونها بعد حصاد الذرة ٠٠ لوازم العرس جاهزة

البامية الناشفة كثيرة ٠٠ وأعواد الملوخية طالت ٠٠ والريحة والحنة والمحلب والصندل اشترتها والدته من — الحلبية كل شيء جاهز وابتدأ يغنى — الله ليل ياليل — ٠ فى الخور الذى يقع جنوب الحلة كانت ليلى تحمل صفيحة مليئة بالماء ٠٠ وتوقف عن الغناء ٠ وحدق فيها : المياه تسيل على خديها ٠٠ شعرها مبلول ٠٠ وقالت له وهى تمسح المياه من عينيها ٠

— عفنت البحر بوسخ حمارك ٠

ولم يجبها فقط دندن — الله ليل ياليل ٠ وتذكر فجأة ماكانت تقوله له أمه بالامس بعد أن تناولوا طعام العشاء ٠ قالت له أمه :

— حتعرس ليلى والله فاطمة ولا عاشه ياعثمان ؟

ولم يجبها ساعتها ٠٠ ولم يصدق إنه وصل بعد مرحلة الزواج ٠٠ الله ياشيخ عثمان ٠٠ انت كبير ٠٠ كبير وكل الناس يحترمونك لماذا لا تتزوج ؟ ودخل البيت ٠ مكون من ثلاث حجرات مبنية من الجالوص ٠ البوابة الرئيسية تهدمت جوانبها وشعر عثمان بكآبه وضيق ٠٠ يجب أن يبنى هذه البوابة ، ويغير السقف من القصب الى الجريد ٠٠ ودخل على أمه ، ورائحة البامية التى لم تنضج بعد تقابله فى بوابة المطبخ وجلس بقربها وأمه تعوس بينما كانت سعيدة تفرك البامية بقطعة خشب ٠ وسأل عن أخيه الصغير الذى كان يغط فى نوم عميق ٠ ثم خرج بعد أن أخذ قطعة من الكابيدة التى كانت ترقد على طبق الدوم ٠ توقف خلف البوابة الكبيرة ، وقبل أن يخرج التهم قطعة الكابيدة ٠٠ وتوجه الى مراح ابقاره ٠ أطلق حماره بعد أن وضع عليه جوال التراب ، وذهب الى الخور الذى يقع جنوب الحلة ، وهناك فى حجرة جانبية بدأ عثمان يعبيء الجوال بالطين ٠ وافرغ الجوال أمام البوابة الكبيرة ، وربط حماره خلف المنزل ، ودخل على أمه وأخته اللتين كانتا قد بدأتا فى تناول الطعام ٠ وجلس بعد أن غسل يديه من التراب ياكل معهن ، ثم قال لاخته سعيدة ٠

— الضهر املى صفيحتين موية عشان عاوزين نصلح البوابة ٠

— حاضر ٠

تمدد عثمان على فرش مفروش على الارض ، وغط فى نوم عميق ٠ وأيقظته أخته وهى تقول له لقد أحضرت الماء وبللت الطين ٠ فارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وخرج وهو يتثاءب ٠ وكانت فى عينيه بقية نوم تخلص منها عندما غسل وجهه ٠ وجد أمه تعجن فى الطين ، فاحضر طشتا ووقف فوقه وابتدأ البناء نزل من ظهر الطشت بعد أن أتم بناء الامكنة المتهدمة ، ووقف ينظر اليها ٠ ثم مال بجسده يغسل يديه من بقايا الطين ٠ بعد ذلك ركب حماره وذهب الى الساقية ٠ فاخذ احدى بقرتيه وأخذ أخرى من مراح عم عبد الله وتوجه الى الساقية ٠ نظر الى البئر ليتأكد من وجود كل « القواديس » ثم ركب على «التكم» وارتفع صوت الساقية عاليا جعل زوجة عم عبد الله توقظه من نومه ٠ كان عثمان يغنى «الله ليل ياليل» ثم يتبعها فى حين لآخر بقراءة فى المولد الشريف ٠

طريق الشوك !!

متولى

بقلم : حسنى المشهراوى

فى كثير من الاحيان كنت عندما اخلو الى نفسى أفكر فى أشياء أصبحت الآن أنشدها فى وجوه الناس جميعا .. غير خائف ان ينتقدنى احد منهم او يكشف من خلفها سرا من اسرارى ذلك لاننى املك من الشجاعة فى ابداء الرأى اكثر من غيرى .. وفى احد الايام قلت امام اصدقائى فى غرور وكبرياء :

ـ بالمال نحصل على كل شيء حتى الاحترام وكل شيء معنوى .

فقال احدهما وكان يدافع عن نفسه :

ـ بالمال تشترى المادة فقط ولكن لا تستطيع أن تشترى القيم الانسانية وتدخلها فى نفسك .

ـ ماذا تعنى ؟! ..

ـ اعنى انك وان كنت على درجة كبيرة من الثراء فانك لن تستطيع ان تغير من حالتك النفسية .. او لن تستطيع ان ترفع من انفسنا الصورة الناطقة عن شخصك .

ـ افصح فانك تتكلم مالا يفهم .

ـ ذلك لانك لا تفهم ما اقول .

كنت أتمسك برأيى وكأننى على حق وكثيرا ما اثبتوا خطأ افكارى وآرائى ولكننى اتمسك بها وان كانت خطأ .. لا أدرى لماذا .. ربما الغرور والشعور بأنى فى مستوى فوق الناس يدفعنى لذلك ..

ونتجادل حتى يقبل « الجرسون » ويخبرنا عن ميعاد اغلاق المقهى .. انه متعود أن يفعل ذلك .. فنحن أول « زبون » له وآخر « زبون » .

ثم نسير الى حيث نفترق واحدا بعد الآخر .. ذاهب كل منا الى منزله .

وفى صباح احد الايام قال لى ذلك الصديق المختلف فى افكاره عن آرائى على نفس المائدة .. وفى نفس المكان :

ـ لقد حصلنا على فريسة كأنها البدر فى كبد السماء .. ولكنها على الارض .. هل تشاركنا الليلة فى التهامها .

فقلت له فى غير اكتراث :

ـ فى منزل من .

ـ ان والدى الليلة خرجوا من المنزل فأفضل أن يكون فى منزلنا .

ـ ولكننى مللت لكثرتهم .

ـ وان يكن ذلك .. فان فيهن سلوى وبخاصة لمن شاكلك .



ـ أتريد أن تقول شيئا ؟! .

ـ لا .. فقط اردت ان اذكرك بأنك ثرى .

ثم قلت له وكأنني قد نسيت شيئا :

ـ ومن المشترك ؟! .

ـ انا وانت وسامى .. أو تظن غيرنا .

ـ اذن افعل ما تستطيع ان تفعله لاجل هذا .. وانا فى الثامنة مساء ساكون عندكم .

ـ ولكن النقود .

وأخرجت من محفظتى النقود واعطيته ورقة تحمل عشرة .. وعندها قلت :

ـ هل يكفى ؟! ..

قال بارتياح قد بدا على محياه :

ـ يكفى .

وخرجت اتجول فى الطرقات غير عابىء مما حدث قبل لحظات على الاطلاق بل لم أعط لنفسى التفكير فى ذلك كعادتى . ولكن شيئا لم تطمئن اليه نفسى قد تراءىأمامى ثم اخترق اسوارها فشعرت بأن الخوف والفزع قد اخذ من نفسى ما أخذ .. ولكن قوة ارادتى وجرأتى ازالت هذا الكابوس عن كاهلى حين أتت الساعة الثامنة .

كان الظلام يحيط المدينة من كل جانب عدا الاماكن الموجود بها تلك الانوار الصناعية.. وبينما كانتتتراءى لى هذهالمناظر .. كنت أرى أشباحا تدق اجراس الخوف والفزع فيرن صداها فى نفسى .

وأخيرا ٠٠ اخيرا وصــلت الى منزل صديقى وكم من مرة اليــه قد وصلت ولمثل هذه المهمة ٠٠ ثم دخلت المنزل٠٠ وفى اثناء وصولى الى نهــاية الدهليز وجدت ماحدثتنى عنه نفسى ٠٠ وجدت الرعب وقد برزت انيابه ٠٠ ولــكن بصورة أبشع مما كنت أظن ٠٠ فلم أعمل لذلك حسابا حتى لا تواجهنى الصدمات ٠

لقد وجــدت اختى فى المنزل ٠٠ وجدتها خارجه ٠٠ اذا فهى الفريسة ٠٠ وقد تم كل شىء ٠

انهارت قواى ٠٠ وارتجف جسـدى واومضت عيناى ببريق الشر ٠٠ ثم بعد هنيهة وجدت ان قوة لا أدرى كنهها قد ملكتها وأصبحت بهــا عات قوى ـ ونظرت بجانبى فوجدت حجرا كبير الحجم يجثو حيث نظرى ٠٠ فحملته بينمــا كانت تقول ببراءة ظننتها خداعا :

ـ ها انت قد ٠٠

فادركت سبب حملى الحجر ٠٠ حيث ارادت ان تهرب من غضبى ٠٠ ولــكن الحجر ارقدها على الارض وهشم رأسها٠

ياله من منظر ٠٠ لن انساه مادمت حيا ٠٠ بل وان حاولت ان انسى ٠٠ فقد ادركت ان انفها قد هبط الى مكان فمها وقد تهشمت أسنــانها وفغرت عيونهــا الجميلة ٠٠ وأمسى وجههــا مدرجــا بحمرة قانية كانه تلك الانوار الصناعية التى مررت عنها قبل دقائق ٠٠ لقد تحولت الى منظر لا أستطيع أن اميزها به ٠

ثم تركتها تئن كالخـــروف الذبيح ودخلت لاقتل صديقى بنفس الحجر الذى قتلت به أختى ٠٠ عندمـا وجد نذير الشر فى عينى قال :

ـ انها اتت للسؤال عنك فقط ٠

فوضعت عليه الحجر وقلت :

ـ ولكنك السبب ٠٠ مت مثلها ٠

وتملكتنى رغبة فى ان امحو اسم كل من فى داخل المنزل ٠٠ من صــديق وعدو ٠٠ وبينمـا كنت أبحث عمن فى الداخل اذ بالبوليس يلقى القبض على ٠٠ ويكبل يدى بالحديد ٠

وبعد ايام قدمونى للمحــــاكمة ٠٠ فقال الحاكم يسألنى :

ـ اتقر بأنك القاتل ؟! ٠

ـ نعم أنا ذاك ٠

ـ وما السبب ؟ ! ٠٠

ـ لقد أردت أن أكون انسانا ففعلت ذلك ٠

واجتماعات كثيرة عقدت لشأنى ٠٠ وفى النهاية كان المؤبد هو المالك لحياتى ٠٠ وعلى الرغم من مضى ثلاث سنوات للحادث فاننى لازلت اذكر ذلك الوجه البرىء ـ وجه اختى المظلومة ـ فلايفارقنى صباحا اوفى المساء وكانه يعاتبنى على ما فعلت ٠٠ وأبتهل الى الله فى كل لحظة من حياتى ان يرحمها وبالغفران لما فعلت ثم ادركت أخيرا ان المال ليس كل شىء فى الحياة ٠

خمس دورات

بقلم : على حسين خلف

صرخ أحمد وهو يركض فوق ساحة مفروشة بالاشــواك ، مخلوطة بحصى الرمل ، حافى القدمين ، وسوط جلاده «حاييم» يمزق لحم ظهره ليتابع الركض بسرعة. الساحة ملطخة بالدم من أقدام الفدائيين والمناضلين العرب ، والشوك الاحمر تقصف أطرافه لكثرة ما لسع من أقدام رجال . هذه أول مرة يسير فيها أحمد تحت السياط ، وفوق الشوك والحصى المزركشة بالاحمر والابيض. أطراف الشــوك تغوص فى قدميــه فيصرخ ، وتتارجح الصور أمام عينيــه .. أمه تشق الصور البــاهتة وتظهر والى جانبها أبوه يرجــوه أن يكف عن فكرة الالتحاق بالثورة «فللمعركة رجال غيره ! » ، وتوسلات زوجتــه العاتبة ، ونظرات صغار ثلاثة بريئة تتمسح به، رفض طلبات الجميع وصرخ فى وجوههم:

ـ حب الوطن أقدس من حب الأمومة، تريدون أن أتخلف ؟ ولم لا يتخلف كل رجل فى مثل سنى ! اذن لضــاعت الثورة .. لا ، لا سالتحق بالثورة رغم أنوفكم .

أصوات نشيجهم تصفعه وهو يغادر المكان ، ولعنات أمه ! وتهديدات والده بالتخلى عنه ، اسطوانات ما قبل الميلاد بالنســبة له ان كانت فى ذلك الزمن اسطوانات !

ويدور أحمد الدورة الثانية ودموعه تسح على خديه وفمه مسترخ فلم يعد قادرا على الصراخ . الشوك والساحة والجلاد والســوط .. ينتزعونه من واقعه ، يرمونه بعيدا ، حيث لا ساحة ولا شوك ولا جلاد ... الى « ســاحة المفخرة » حيث وقفت جموع من الناس غفيرة تنتظر الباص ، والرذاذ يتساقط باستمرار . رياح تشرين تصفع وجهه بشدة وهو يصعد « باص بلد الشيــخ رقم (١) » ، ويأخذ مكانه بصــعوبة لازدحام الركاب ، ثم جلس وأشــعل سيجارة ، ويده اليمنى تحت (كبوته) الثقيل تتحسس شيئا ما. وتطاير دخان سيجارته وتكثف مما أزعج السيدة التى بجانبه والتى طلبت منه أن ينفث الدخان بعيدا عنها لانها تكره الدخان والمدخنين!

مد يده من الشــباك وألقى بعقب السيجارة فتنفست المرأة الصــعداء ، وهو ينزل أمام جامع الاستقلال ، وبعد أن أدى فريضة العشاء ، فضل أن يسير

على قدميه وخاصة أن السماء كفت عن المطر ، وحركة الرياح خفت قليلا ،فقطع ما تبقى من شارع (جسر رشميا) ثم انعطف الى شارع فرعى ، فاذا به أمام (مركز بوليس الحسبة) والجنود يتبخترون بالبستهم السوداء حاملى الاسلحة سريعة الطلقات •

لم يلتفت كثيرا وهو يذرع شارع (وادى النسانيس) ، وأخذ يسير الهوينى ، لان الطقس استهواه ، فكان صيفا ، تلك التى وافقت مولده حتى شبابه ، لم تظهر بمثل هذه الروعةالتى تتجلى فيها الآن ، والاضواء الكهربية تتكسر فى برك الماء الصغيرة والمتجمعة فى الشارع •

وقف للحظة ، وارتفعت دقات قلبه وهو يستجمع شتات أفكاره ويتمتم لنفسه : (العملية فى غاية الصعوبة)، ثم يتحسس ما فى سترته تحت (الكبوت) ويتمتم : «الاعمار بيد الله ! » • ولكن هواجسه لم تتخل عنه، أفكاره تضطرب ، الحوادث المرعبة تمر كشريطمسجل ، انه يذكرحادثةالقوات العربية الفلسطينية حين طوقت هذا الذى سيراه ، فى مستعمرة (كفارى خيسكل) •

« أبو دره ورجاله بقيادة خليل المصرى عجزوا عنقتله فكيف بى أنا !؟» قال لنفسه ثم استطرد :

« سأتوكل وأقوم بمهمتى ••• لن يكون أشد حرصا من (يوسف تلحى) سيذوق مصيره » •

واندفع الدم الحار فى عروقه ، وهو يجتاز (ساحة الحناتير) ، ها هو يصل ، لم يبق أمامه الا بضعة أمتار ، ويدخل بعدها مقهى (مشيل)اليهودى• هذه الامتار القليلة تحمل ضعف ما تحمله من السير مسافة الكيلومترات السابقة ، ها هى الانوار تشع من مقهى مشيل فحدث نفسه :

« وليكن الطوفان •• لم الخوف ؟•• الانسان يموت ميتة واحدة ، ثم دلف الى الداخل •

عيناه ترقبان الباب باهتمام زائد والدم يتفجر بركانا فى عروقه لا بسبب الحماس فقط وانما بسبب الخوف أيضا ، فهذه أول مرة يقوم فيها بمثل هذا الدور منذ أن خرج من السجن قبل سنة تقريبا ، وعلى أثر محاولة لقتل (دافيد بوم) قائد قوات لواء جلبوع• الدقائق تتمرغ بطيئة قبل أن تموت وضجيج لاعبى (الشدة) يتزايد وهو فريسة القلق ، ثم ظهر (مروخاى) ببزته العسكرية وجسمه الضخم الذى يشبه البغل الى حد ما ، وجلس على الطاولة المحاذية له فابتسم ابتسامة الانتصار •

سيطرت الخمرة على مروخاى فقد احتسى خمسة كؤوس من الويسكى ، ولم يعد قادرا على التمييز أو التفكير الواعى ، فاستل أحمد هذه الفرصة وانتقل من طاولته الى طاولة مروخاى وأخذ يلاطفه فى الحديث فسر مروخاى كثيرا وتمنى أن يلتقى به كل ليلة !

حل أحمد بنود (كبوته) فغطى بذلك أطراف الطاولة وسمح لنفسه بيسر وسهولة أن يضع القنبلة تحت الطاولة بل تحت مروخاى بالضبط ثم بعد أن فرغ من مهمته نهض وحاول الخروج فاستوقفه مروخاى وأصر على بقائه

حتى الثانية عشرة ! الدقائق تمر ، وأحمد يكاد يفقد السيطرة على نفسه وينوى الهرب أمام الجميع ، دقائق معدودات ثم تثور القنبلة ، ومروخاى يقول بلهجة السكارى :

ـ ما دمت مصرا على الذهاب ٠٠ سآتى معك ٠

ـ لا ٠٠ لا ابق هنا سأعود أنا بعد لحظات ٠

فقال مروخاى مقهقها : دعك من المواعيد ٠٠ ولتحتس كاسا من الخمرة فهو يساوى كل الذين ستقابلهم ٠

فعقد أحمد ما بين حاجبيه وارتسمت دلائل الخوف على وجهه ، وذعرا قاتلا يموج فى عينيه فتظاهر باللامبالاةوقال بشىء من الرضى :

ـ اقسم لك بشرفى أننى لن أتأخر كثيرا ٠

وأخذ يبتعد تدريجيا ومروخاىيرجوه أن يبقى ، وثوان معدودات باقية تسرع فى السير ٠ أحمد يفرك يديه خائفا غاضبا ، وهو يتراجع باستمرار ، يكاد يصرخ ٠٠ وانفجرت القنبلة وطار مروخاوى !

ويدور أحمد الدورة الثالثة باعياء شديد ، اذ تصلب الدمع فى عينيه فلم يعد يقوى على الانهمار ، وجف ريقه فتقلصت شفتاه وبلل الدم قميصه من سياط الجلاد ٠ الشوك لم يعد يغوص فى قدميه لعدم وجود فراغ فيهما ، الساحة تدور أمامعينيه ، وبصرهالزائغ يمزق شعر لحية الجلاد ؛ ووقع بصره الحائر على باب الساحة حيث قدم قبل دقائق من غرفة التعذيب ٠٠ هو ، جالس على أرض الغرفة الفسيحة ، ورائحة فضلات الحيول تعبق جو الغرفة، والحديد يعض بساقيه ويديه ، فأحس بالقيد فى كل شىء الا بشعرلحيته الذى أجيزت له الحرية ٠

الجلاد يهوى على وجهه صارخا بحشرجة : أين الثوار ؟فيقابله ـ أحمد برد خافت : فى المعركة ٠ فيحملق به ويلطمه لطمات متوالية يقطعها بسبابه: ابن الكلب ٠٠ ابن الحيوان ٠٠ ابن الـ ٠٠٠

وينخشه بسكين صغير فى صدره ، نزف الدم على أثرها ، فتقدم الخبير المكلف بتعذيبه وطلب من الجلاد أن يتوقف وينصرف ، وبعد أن خرج قال لأحمد ـ بعد ملاطفة قصيرة ـ : « لقد أسأنا فهمك ٠٠ اعذرنا ٠٠ التعذيب لا يجدى نفعا ٠٠ ما دمت أسيرا عندنا فمن الخير أن تفكر بالطريقة التىتريحك ٠٠ سنطلق سراحك اذا أخبرتنا بأماكن الثوار ٠٠ أما النقود فهاهى المئاتمنها ٠٠ ثم ما شأنك أنت بالثورة ٠٠ أنت شاب عليه أنيمتع شبابه ، لا أنيضيعه بين الجبال ٠٠ وسنزوجك بمنتريد٠٠ ولكنك لن تحصل على شىء اذا بقيت عنيدا مصرا على الانكار ٠٠ ما رأيك ؟»

فأجابه بابتسامة صفراء ، وهزة من رأسه تعنى الرفض ٠

ـ يا صديقى فكر جيدا سأتركك الى الغد ٠

وعاد فى الغد ليرى ماالنتيجة فصدمه جواب أحمد بجرأته : « الدراهم ٠٠ يا صديقى النصوح لن تمنحنى وطنا أعيش فيه بحرية ٠٠ وامتاع نفسى بمجتمع دنس مثل مجتمعكم لهو حقارة

أعجب كيف تسألنى عنها ، أما خيانة الثورة فهذا مستحيل لو قطعت اربا اربا » ٠

فحدق به غاضبا وقال بحزم : « حسنا ٠٠ ما دمت كذلك فسأريك العذاب » ٠

وتتوالى هزات أحمد فوق الكرسى الكهربى دون جدوى وهو يكاد لا يرى شيئا من تورم وجهه اثرالكدمات الكثيرة حتى كادت عيناه أن تختفيا ، فيصرخ الخبير من جديد : « جهز لى الساحة بالشوك والحصى » ٠

وتنتهى الدورة الثالثة فيحاول أن يدور الرابعة ، وبقية من عزم تبقيه واقفا يترنح وصور بطولته تظهر بأبهى رونق ــ ٠٠ هجومه على مستعمرة (كفر ناحوم) وقتله قائدها ثم مشاركته فى حصار مستعمرة (مشمارهاعيمك) ومدفعه الهاون يقذف باتجاهها صور زاهية تشجعه ولكن الى حين ٠

الدورة الخامسة بدأت كزحف النمل، والسياط لم تعد تتهاوى على جسده اذ لم يبق فيه مكان غير مبلل بالدم٠صوت الجلاد : هل تعترف ؟ اذا اعترفت سأوقف العذاب ٠ لا يحمل جوابا فلم يعد يستطيع الاجابة ٠ طفلاه خالد وابراهيم يشقان حجب الصمت والشوك والسياط ، ويتمثلان أمامه بضحكة بريئة ، وعلى عكس هذه الصورة كان حال زوجته ، عيون كالدم من كثرة البكاء ، وثوب قديم حدادا عليه ، صور متباينة تتصادم ، أمه طريحة الفراش، وأبوه لا يعرف الا عصاه ، مسئول عن حطام هذه الأسرة ، أرضهم تلك التى اضطر والداه الى بيعها ، صور حياته تمر أمامه كشاشة سينما ، وصوت الجلاد يرتفع بغضب شديد : هل تعترف ؟ وهو يوالى الزحف ٠

صوت الجلاد يصرخ من جديد : سأطلق النار اذا لم تتكلم ٠ وأحمد يكاد أن يتهاوى من شدة الاعياء ، ثم تكوم جسدا بلا حراك اثر طلقات ثلاث من فوهة مسدس الجلاد ٠

لا حياة مع اليأس

قصة

بقلم: زكى توفيق

مضت أكثر من ساعة ، وسلمان جالس فى مكانه على التخت ، متكورا ·· وعيناه الغائرتان ترمقان الطريق بلهفة ، وكأنهما تنتظران شيئا لابد من مجيئه·· عاجلا أو آجلا ·

ومرقت من امام عينيه ، فيما مرق من مئات السيارات والسابلة ، سيارة صغيرة عادية ، لم يأبه لها اول الامر ، ثم جذبت نظره فجأة ·· فقد وقفت على مسافة قصيرة من المقهى الذى يجلس فيه · ثم نزل منها شاب كان يركب فيها وحده ، وقصد من فوره الى محل تصليح السيارات ، الذى وقفت أمامه السيارة ·

وهب صاحب المحل الى لقائه · ودار بينهما كلام قصير ، هز بعده صاحب المحل رأسه معبرا عن آسفه ·· فهو لم يستطع ـ كما بدا لسلمان ـ أن يقضى للشاب حاجته · واستدار رأساهما الى جهته ·· رأس صاحب المحل ، مع اشارة طويلة من يده · ثم رأس الشاب ايضا وتبادلا كلاما آخر ،لم يلبث الشاب بعده ان القى بتحية سريعة من يده ، مودعا بها صاحب المحل وشاكرا حسن لقائه · ثم سار بخطوات ثابتة ، الى حيث يجلس سلمان ·· فى المقهى الصغير ، الذى اتخذ منه محلا لمراجعته منذ اكثر من عشر سنين ·

واعتدل سلمان فى جلسته ، ولمعت عيناه جذلا · وسرعان ما نهض قائما ، ليلقى الشاب القادم اليه · ووجد يده اليمنى ، بدون ما وعى منه ، تخشخش بكومة المفاتيح الصغيرة ، التى حشا بها جيب سترته · ووجد يده اليسرى بدون وعى منه ايضا ، تتحسس كومة اخرى من المفاتيح ، كان وضعها فى جيبه الايسر حين غادر البيت فى الصباح ·· وكأنه يريد الاطمئنان عليها ، أو يريد ان يستمد منها العون والقوة ·

وطلب اليه صاحب السيارة ، ان يعالج قفل الصندوق الخلفى لسيارته·· حيث انكسر مفتاحه ، وظل جزء منه فى داخل القفل · ولم يعد فى الامكان فتح الصندوق ·

ان مهمة سلمان هذه سهلة جدا · ولا تتطلب منه اكثر من ان يجرب فى القفل ·· مفتاحين ، أو ثلاثة ، أو أربعة من مجموعة المفاتيح التى يملأ بها جيوبه والتى هى كل عدته ورأس ماله فى كسب عيشه ·· وتمر بضع لحظات هينة ·· ثم

لا يلبث بعدها القفل .. أى قفل .. ان ينفتح .

ولكن هذه المهمة ذاتها .. صعبة ، واحيانا صعبة جدا ، بالنسبة لمصلحى الاقفال أو الحدادين أو امثالهم .. ممن لا يحترفون مهنة سلمان .. التى تعلم دقائقها وفنونها ، بتجاربه الخاصة .. عبر السنين الطويلة ، والصبر المرير ، ولهذا اعتاد ان يفرض شروطه على مراجعيه .. ملء صدره وملء فمه ، واثقا انها لن ترد بحال .. فكان أن قال ..

ــ انى أفك القفل ، بس على شرط.. آخذ نص دينار .



فأجاب الشاب صاحب السيارة .. وعلى وجهه علائم الدهشة والانزعاج .

ــ نص دينار ؟ اشدعوة يمعود ؟ .

فرد عليه سلمان بحزم قاطع .

ــ هاى هى .. نص دينار . ماتقبل، الله وياك .

ووجد الشاب نفسه مضطرا لقبول هذا العرض الجائر . فلم يكن فى المدينة الصغيرة كلها ، من يزاول هذه الصنعة .. غير سلمان .

وجرب سلمان مفتاحه الاول فى القفل .. فلم ينفتح . ثم جرب مفتاحا ثانيا . وجرب ثالثا . ورابعا وخامسا .. دون ان ينفتح القفل . وكانت ابتسامة الرضا والتفاؤل ، لا تزال ترتسم على شفتيه الباهتتين .. دون ان يعتريها القلق .

وتركه الشاب لقضاء شغل له ، حتى ينتهى من مهمته . فشيعه سلمان بنظرة ساخرة ، وكأنه يقول فيها .. ولكنك لن تبتعد بضع خطوات يا هذا ، الا ويكون القفل قد انفتح .. فلماذا لا تنتظر ؟ .

ولكن الذى حدث ، لم يكن فى الحسبان ·

لقد جرب سلمان اكثر من عشرين مفتاحا ، دون ان يجد فى مجموعته المفتاح المنشود .. حتى تعب ظهره واعياه الانحناء ·فجلس القرفصاء وراء السيارة ·· ومضى يجرب مفاتيحه الاخرى ،تحت الشمس المحرقة ، واحدا بعد الآخر .. فى صبر وأناة ·

ومع كل مفتاح يفشل فى تجربته ، يتقلص جزء آخر من ابتسامة الرضا والاعتداد التى كانت ملقية ظلها على وجهه النحيل كله ، ويحس بنفسه ·· وكانها تتهاوى شيئا فشيئا ، فى اعماق بئر لا قرار لها ·

وانقضت ثلاث ساعات · وجرب سلمان مفاتيحه كلها · ثم عاد فجربها أكثر من مرة ·· والقفل لم ينفتح ! · وكانما ركبته قوة خفية ، أصرت على ابقائه مقفلا فى وجه سلمان ، وفى وجه مفاتيحه ! .

وتيقن فى النهاية من فشله · فنهض متحاملا على ساقيه المكدودتين ، والعرق يتصبب من جبينه ، وقد استحال كتلة من اليأس والالم ·

وألقى سلمان علىالمفاتيح المكومة عند قدميه ، نظرةتفيض بالسخط والمرارة·· وبصق عليها بقوة ·ثم عاد فانحنى عليها ليجمعها من الارض ، فان هذه المفاتيح ، وان خيبت أمله وجرحت كبرياءه..هى وحدها مصدر رزقه · وهى ··هى كنزه الذى لا يفنى ·

وعاد مخذولا الى مكانه على التخت · ولم يزد ان قال للشاب صاحب السيارة

– يرحم ابوك ، امنين مشترى هالسيارة ؟! .

ولم تكد السيارة الصغيرة تغادر مكانها ، حتى جاءت سيارة أخرى ··· تقصد سلمان ، وتطلب اليه عين الطلب

ولم يجد سلمان فى نفسه المهزومة ، ما يشجعه على المغالاة فى الطلب ·· كما اعتاد ان يغالى فيما يطلب من اجور من قبل ·· فى عزم لا يريم · فقام الى عمله ·· بدون ثمة كلام ! ·

وقبل ان يجرب مفتاحه الاول ·· بادره صاحب السيارة من خلفه ·

– بالله كيل ما تشتغل ، خلى نتفق عالاجرة .. مواحسن من اللغاوى ؟ .

فأجاب سلمان من دون تردد ·

– حسب امرك ·

فالقى صاحب السيارة بعرضه ، بقوة واصرار ·

– اذا لكيت لى مفتاح للقفل ، انطيك مية فلس ·· صار ؟ ·

ومرة أخرى أجاب سلمان من غير تردد ·

– حسب أمرك أغاتى .

ووضع أكوام المفاتيح كلها أمامه ·· وجلس على الارض متربعا · وبدأ يعالج قفل الصندوق ·· وجرب المفتاح الاول فلم ينفتح القفل · ثم جربالمفتاح الثانى ·· وفى لحظة واحدة ، انفتح ·

وضحك سلمانضحكة تفيض بالمرارة وتمتم بضع كلمات من السباب البذىء ·· اودعها كل ماجاش فى نفسه من سخط وحنق ·

ومرة أخرى ·· بصق على كومة المفاتيح · ولكن بصقته هذه المرة ، كانت اقوى بكثير من تلك التى بصقها على مفاتيحه ·· قبل لحظات ·

ناس في الليل



متولى

بقلم : ضياء الشرقاوي

أدخل يده بين زراير الجاكتة ٠٠ ودلفت أصابعه دون أن تتحسس طريقها الى جيب سميحه ٠ ٠انها تعرف طريقها تماما الى هذا الجيب ولم تخطىء مرة واحدة ٠٠٠ فوق القلب مباشرةوالتفت حول ورقة مطوية راقدة فى ركنها بهدوء ٠٠ ونشرها امام عينيه واخذ يتفحص الكلمات الغريبة التى لايعرف منها شيئا ٠٠ أفى هذه الكلمات القليلة الشفاء لسميحة من مرضها الطويل ؟ ٠ ٠وتداخلت الحروف أمام عينيه وتشابكت وبرز من بينها وجه الطبيب الشاب وهو يقول له :

اشتر هذا الدواء بسرعة ٠٠ واعطها جرعة كل ساعتين ٠

قال له بتردد :

ـ أهذا الدواء غال يا سيدى ؟

قال الطبيب الشاب :

لا ٠٠ لن يزيد عن جنيه ٠

تمتم :

ـ جنيه ٠٠ جنيه ٠

لطمته هذ هالكلمات ٠٠ وود لو يقول له : ألا تكتب لنا دواء رخيصا شيئا ما بدل هذا الدواء ياسيدى ؟

وهاهو شهر كامل ينقضى ولا يستطيع أن يشترى هذا الدواء ٠٠ الورقة البيضاء راقدة وسط ستة وثلاثين قرشا فى قاع الجيب ٠٠ هذا الشهر ملعون جمد الناس الى جوار مدافئهم أو فى فراشهم ٠٠ لا زبائن ٠٠ وسميحة لا تمرض الا فى هذا الشهر الملعون الشحيح ٠٠ والميدان فسيح كئيب تضيع حدوده فى الظلام ٠٠ وثلاث عربات فقط يحلقون حول بعض ، اثنتان صغيرتان ٠٠ وواحدة فارهة يلوح عليها عليها العز والثراء ٠٠ انه لا يأمل كثيرا فى العربتين الصغيرتين والعربة الكبيرة لن تعطيه أقل من خمسة قروش ٠ ٠ خمسة قروش ٠ ٠ العربتان الصغيرتان قرشان أو ثلاثة ٠ ٠ما يأتى منهم ؟ سيضعه فى جيب سميحة ٠ ٠ ضرورى ٠٠ تحسس الجيوب الاخرى ٠٠ جيبه خال لم يضع فيه شيئا تماما فليؤجل موضوع رتق الحذاء ٠ وهذا جيب الايجار فيه قروش قليلة٠٠ وجيب زوجته ٠٠ وجيب الاكل ٠٠ وجيب محمد ٠٠ جيوب كثيرة واسعة خالية الوفاض وثنى الورقة برفق ٠٠ وادخل يده بين زراير الجاكتة ٠ ٠ودلفت أصابعه دون أن تتحسس طريقها الى جيب سميحة حيث تركت الورقة فى القاع ٠٠ وانتشله من تفكيره صوت عربة من العربتين

الصغيرتين٠٠ واندفع نحوها يلوح بيده ويتقدمها ٠٠ وعندما حاذته ٠٠ أسقط الرجل فى يده قرشين ٠٠ ومرقت تقتحم الظلام ٠٠ رفع الحارس عم بيومى القرشين الى شفتيه وقبلهما بامتنان ٠٠ وامتدت يده بهما بين الزراير ودلفت الى جيب سميحة ٠٠ وخيل اليه أن الكلمات تجمعت وبرز من بينها وجه الطبيب الذى أخذ يحصى النقود ٠٠ فتمتم عم بيومى كأنه يحادثه ويطمئنه :

وقل العربة الصغيرة الثانية قرشين لأخرين ٠٠ والعربة الكبيرة خمسة قروش ٠٠ يكون الحساب خمسة وأربعين قرشا ٠٠ هانت ٠

وأحس بالارتياح ٠ ٠خيل اليه انه لمح ابتسامة على وجه سميحة ٠٠ أخذت الرياح الباردة تجوب الميدان طولاوعرضا مثل الكلاب الجائعة المجنونة تطارد بعضها بعضا ٠ ٠لقد صارت اكثر من العربات هذه الايام ٠٠ والرياح تجوب الميدان دون أن تدفع شيئا ٠٠ ماذا سيقبض من الرياح ؟ هل هى تعرف أن وراءه فى البيت ابنة مريضة تحتاج الدواء ٠ ٠وفى قدميه حذاء يحتاج الرتق ٠٠ وسكنا يحتاج الايجار ٠٠ وولدا وزوجة ٠٠ الرياح لاتعرف شيئا ٠٠ ولا تريد أن تعرف شيئا ٠٠ حتى ولا تريد أن تتركه واقفا فى مكانه وحيدا فى أمان الله ٠٠ بل تصفعه وتعابثه ٠٠ وتجذب ذيل جلبابه ٠٠ وشق طريقه الى العربة الصغيرة وجلس الى جانبها يحتمى بها من عبث الرياح ٠ ٠وسميحة ترمقه بعينيها الذابلتين فى حنان ٠ ٠ ود لو أغلقتهما ونامت فلماذا تستيقظ معه هى الاخرى حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل ٠٠ التؤنسه وتبدد وحشته ؟ فلتنامى ٠٠ معى العربتان تؤنسان وحشتى ٠٠ يومان أو ثلاثة وسأشترى لك الدواء ٠٠ وتستردين صحتك وعافيتك وتلعبين مع الاولاد فى الحارة كما كنت تلعبين ٠٠ واسمع صوتك يأتينى من بعيد ٠٠ وتتعلقين بعنقى ٠٠ وأضمك الى صدرى ٠٠ أليس لهذا الليل من نهاية ؟ ٠٠ أين صاحبا هاتين العربتين ؟٠٠ هل ناما فى الملهى ٠ ٠ لابد انهما قد ناما هناك ٠٠ فكثيرا ما ينامون فى أماكنهم من فرط السكر وينسون أنفسهم ويتركوننى ملقى بجوار عرباتهم ٠ ٠ وألقى نظرة الى الملهى ٠٠ الموسيقى الصاخبة الضارية تغفو ٠٠ والانوار تخفت ٠٠ والطريق الى البيت طويل ٠ ٠ساعة كاملة حتى يصل اليه ٠٠ ساعة كاملة ٠٠ وتخيل صاحب العربة الصغيرة يقول له :

أين تسكن أيها الرجل ؟

ـ فى السيدة عائشة ٠

ـ ياه ٠٠ انها بعيدة جدا ٠٠ والدنيا ليل ٠٠ تعال معى لأوصلك ٠

وتمرق العربة فى الطرق الكثيرة لايهمها الوحل ولا البرد ٠٠ كل شىء غرق فى النوم ٠٠ من هنا يا سيدى ٠٠ على طول ٠٠ الشارع القادم ٠٠ فى آخره ٠٠ فى ماذا تفكر ايها الرجل ؟ ٠٠ ان ابنتى سميحة مريضة منذ شهر ٠٠ انها بنت حلوة ستحبها ان رأيتها ٠٠ ألم تعرضها على طبيب ؟

ـ نعم ٠٠ نعم يا سيدى والله ٠٠ وكتب لها الدواء ٠٠ ان الدواء غال يا سيدى ٠٠ ثمنه جنيه ٠٠ جنيه كامل وهذا الشهر شحيح ٠٠ شهر بارد ٠ والرياح أكثر من العربات ٠ ٠ الرياح لا تدفع شيئا يا سيدى ٠٠ لقد وفرت ثمانية وثلاثين قرشا حتى الآن ٠٠

ـ خذ أيها الرجل هذا الجنيه واشتر الدواء ..

ـ أدامك الله يا سيدى فى صحة وعافية .. انها بنت حلوة ستحبها ان رأيتها ..

وفتح عم بيومى عينيه فى ذعر على صرخات رجل .. وقفز حارس العربات من مكانه ..

أيها الحمار .. أين أنت ؟

ـ هذا هو انا ياسيدى .

كان صاحب العربة الفارهة .. رجل قصير ضخم . .له رأس كبير .. وعينان تلتمعان بالسكر والغضب .. وتقف الى جانبه فتاة رفيعة من فتيات الملهى . . رآها كثيرا تذهب مع الرجال فى مثل هذا الوقت .

ـ اين فوانيس العربة يالص ؟

وكان لكمة قوية سقطت فوق رأس الحارس فافقدته الوعى .. فوانيس ؟.. أى فوانيس ؟ . .ماذا يقصد .. هل سرقت وهو نائم ؟ .. وأخذ يحملق فى العربة بذهول .. والرجل الضخم يعدو حوله ويلوح بيديه فى عصبية .

وتمتم : والله ياسيدى ...

ـ أين كنت ؟

ـ لم أتحرك من هنا ياسيدى، والله..

ـ اذن كيف سرقت الفوانيس ؟ .

ـ لم اتحرك من هنا ياسيدى والله .

كان الرجل يزداد صخبا ويتحسس أماكن الفوانيس فى غضب.. ولم يعرف الحارس ماذا يفعل وقد تملكه الخوف ، وأخذ ينظر هنا وهناك لعل أحدا ينجده ويقف الى جانبه .. ليته يستطيع أن يعدو بأقصى سرعة .. ويذوب فى الظلام.

والله لم أرها ياسيدى .

ـ اذن من سرقها .. أمى ؟

ـ والله ...

ـ ياعسكرى .. ياعسكرى .. لا بد أن آخذك الى القسم .

واخذ صوت الرجل يمزق صمت الميدان . .وصمتت الرياح مرة واحدة وفجاة .. وأخذت عينا الحارس تدوران هنا وهناك ولا تريان شيئا .. وأمسك به الرجل من جاكتته الصفراء .. واخذ يجذبه وراءه .

وخرجت الفتاة من صمتها وقالت للرجل :

ـ اتركه يا سنسن.. لا تعكر دمك.

وازدادت ثورة الرجل وقال :

ـ لابد أن آخذه الى القسم . . لم يسرق الفوانيس أحد غيره .. اللص .

ـ والله ياسيدى .. أخذنى النوم رغما عنى .. لم أر الفوانيس .

.. ووقعت عينا الحارس على رجل قادم فصرخ مستغيثا :

الحقنى ياعم والنبى .. ربنا يخليك .

وتجمع ثلاثة رجال آخرون على صوت الجلبة .. وحاولوا أن يتفاهموا مع الرجل الضخم الذى زاده السكر ثورة وغضبا . .وازدادت قبضته على الجاكتة الصفراء تشبثا واصرارا .. وابتعدت فتاة الملهى قليلا ووقفت الى جوار العربة ترقب المعركة فى ملل وغيظ ، وانفلت الرجال يتفحصون الفوانيس ، ويقدمون الحلول والترضيات الممكنة.. ويستثيرون كرم الرجل وأريحيته .. دون فائدة .

وقال أحدهم :

كم ثمن الفوانيس ؟ .. جنيه . . اثنان .. افرض أن هذا المبلغ سرق من سيادتك .

ـ هذا الرجل مسكين ياسعادة البك .. وعنده أولاد .

قال الرجل بغلظة :

ـ لايهمنى ذلك .. القسم أو يدفع ثمن الفوانيس .

ـ كم ثمن الفوانيس ؟

ـ ثلاثة جنيهات ·

ـ لا ·· ليس ثلاثة جنيهات · · لن يزيد ثمنها عن جنيهين ·

ـ ثلاثة جنيهات أو القسم · ياسعادة البك ···

ـ ثلاثة جنيهات أو القسم ·· ليس لدى وقت لأضيعه ·

قال احد الرجال :

ـ فلنذهب الى القسم ·· لن يفعلوا له شيئا ·· ثلاثة جنيهات ·· انك تبالغ ·· الرجل غلبان وليس له ذنب·

كان بيومى صامتا ·· تجذبه قبضة الرجل الضخم الهائج هنا وهناك · · والرجال الاربعة ثائرون كأن القضية قضيتهم هم ·· وفى عيونهم الاصرار ·· وتحرك الرجال خطوات ·· وتلاقت أعينهم لحظة ثم قال أحدهم لزملائه :

ـ مارأيكم يارجال ؟ فلندفع له المبلغ وأمرنا لله ·

رفضت اعينهم الاذعان للرجل · · وتهامس رجلان ثم قالا :

ـ انتظر قليلا ياسعادة البك ·

وتوقفوا جميعا ملتفين حول الحارس ·· وواصل أحدهما :

ـ ان الرجل فقير · ·وصاحب عيال· وسندفع لك النصف ولتتحمل انت النصف ·· هذا عدل ·

قال الرجل باصرار وهو يهم بمواصله الطريق الى القسم :

ثلاثة جنيهات أو القسم ·

كور أحد الرجال قبضته وفكر فى أن يطوحها فى وجهه الضخم ويصرعه أرضا ·

سأل رجل منهم الحارس :

ـ هل معك نقود ؟ ·

هل يقول لهم لا ·· هل سيكون كاذبا حينذاك ·· ليس له الحق فى قرش واحد من قروش سميحة الثمانية والثلاثين ·· انه يستطيع التنازل عن القروش القليلة التى ادخرها للايجار

وتمتم : نعم ·

ـ أرنا كم معك ؟

ومد يده فى جيب الايجار · واخراج قبضة من القروش واسقطها فى يد الرجل الذى أخذ يحصيها وقال :

ـ ثلاثة وعشرون قرشا فقط ·

تمتم عم بيومى :

ـ ليس معى غيرها ·

ـ كل واحد يمد يده فى جيبه يخرج مايستطيع يارجال ·· لوجه الله ·

ومد الرجال ايديهم فى جيوبهم ·· واسقط كل منهم ما استطاع فى راحة الرجل : ثلاثة وعشرون ·· ثلاثة وثمانون ·· جنيه وثلاثة قروش ·· جنيه ونصف ·· ومنى نصف جنيه ·· فيكون المجموع جنيهين·· هاهما جنيهان ياسعادة البك واترك الرجل ·

قال الرجل الضخم :

ـ ثلاثة جنيهات كلمة واحدة · · سأعرف كيف يدفعها فى القسم ·

ـ ياسعادة البك ·· جنيهان ·

ومد عم بيومى يده خلال زراير الجاكتة ·· وتحسست أصابعه طريقها الى جيب سميحة ··

وأحس بيد ابنته تمتد من الجيب وتبعد يده عن النقود ·· لا ·· لا ياأبى سيأخذنى الى القسم ·· يا ابنتى ··انه مصر ·· وحش · ·وسأدفع الجنيهات الثلاثة هناك أو أحبس ·· سأموت ياأبى سأموت ·· انى انتظر الدواء منذ شهر السعال يمزق صدرى ·· والدماء تلوث شفتى ·· سيعوضنا الله ياابنتى وليرزقنا برزقك · ·لماذا تمتلىء عيناك بالدموع يا ابنتى ؟ ·· وبرز وجه الطبيب من بين الكلمات ·· وقال حازما :

اشتر هذا الدواء بسرعة ٠

هل أعود اليها وجيبها خال ٠٠ ماذا ستقول سميحة ؟ اليوم فى جيبك عشرة قروش يا سميحة اليوم فى جيبك واحد وعشرون قرش يا سميحة ٠٠ اليوم صارت ستة وثلاثين ٠٠ سأشترى لك الدواء قريبا يا سميحة ٠٠ ماذا ساقول لها اليوم ؟ ٠٠ هل ساقول لها لم يعد فى جيبك مليم واحد يا سميحة ٠٠ هانت يا ابنتى ٠٠ لا ٠٠ ما زال الطريق الى الجنيه طويلا ٠٠

مازال الطريق الى الشفاء طويلا ٠٠ كانت أصابعه تتلاحم ٠٠ وتتقدم ببرود هل تواصل الطريق وتنتزع من بين أصابعها الواهنة حق الدواء رغم الدموع ٠٠ أم تنكص وليكون مايكون ٠٠ ياابنتى العزيزة ٠٠ أعدك وعدا صادقا سأشترى لك الدواء قريبا ٠٠ سأسأل جارنا قرضا مرة ثانية ٠٠ سأستعطفه ، وستأتى فى الغد مائة عربة وعربة ٠٠ وكل النقود ستكون لك ٠ ٠ ستكون للدواء ٠٠ صدقينى ٠٠ لن أستطيع أن أدفع لهذا الرجل ثلاثة جنيهات بمفردى فى القسم وسيحبسوننى ٠٠ وربما سحبت منى الرخصة ٠٠ هل يرضيك هذا ؟ ٠٠ لن ترينى اذا حبسونى فى فى القسم ٠٠ ولن أستطيع أن أراك ٠٠ أما فى الغد ٠ فستأتى مائة عربة وعربة بالتأكيد ٠ ٠وكل النقود ستكون لك ٠٠ خذها ياأبى ٠٠ خذها ٠ ٠واصطدمت أصابعه بالقروش ٠٠ وافرغ قبضته فى يد الرجل وهو يقول :

ـ هذه نقود سميحة ٠٠ ثمانية وثلاثون

قال الرجل الضخم : من يفتشه يجد معه مائة جنيه على الأقل ٠

قالت فتاة الملهى فى غضب : لماذا كل هذا الاصرار ؟ ٠ ٠الرجل عجوز ومسكين ٠

قال الرجل :

أنا واثق انه هو الذى سرق الفوانيس ٠

قال الحارس عم بيومى : والله لم أسرق شيئا ٠٠ كيف أسرق ولى ابنة مريضة ؟

وواصل الرجل : لابد أن نؤدبهم ونضعهم عند حدهم ٠٠ ولعل هذا يكون درسا نافعا ٠

وانفجر عم بيومى يبكى فجأة ٠

وأزاح أحد الرجال قبضة الرجل الضخم بعيدا عن كتف الحارس ٠ وأمسكت الفتاة بذراع الرجل وقالت :

ـ يكفى هذا ٠٠ يكفى هذا ٠٠ انه رجل مسكين ٠

لا يهمنى هذا ٠٠ انه لص ٠

قال عم بيومى : والله لقد أخذت حق الدواء ٠

قال الرجل الضخم وفتاة الملهى تدفعه أمامها : دعينى حتى آخذ حقى كاملا ٠٠ هذا اللص ٠

وصرخ الحارس : لست لصا ٠٠ انا لست لصا ٠

ـ اتسمعين ماذا يقول الآن هذا الحمار ؟

ـ لقد أخذت ثمن الدواء ماذا تريد بعد ذلك ؟

كان الرجال متوترين ٠٠ لف الرجل الضخم حول عربته ٠ ٠ وجلس أمام عجلة القيادة ٠

فتحت الفتاة باب العربة ومدت يدها بسرعة الى عم بيومى ٠٠ وأسقطت فى يده ورقة نقدية ٠٠ وهمست :

ـ خذ هذه الخمسين قرشا من أجل الدواء ايها الرجل

ـ لا ياابنتى ٠٠ ابقيهم من أجلك ٠٠ غدا ستأتى مائة عربة وعربة ٠

ولكن قبل أن يقول أى كلمة كانت قد أغلقت الباب ٠٠ وانطلقت العربة ٠

لقاء

متولي

السعيد بيومي الورقي

الساعة الآن التاسعة والنصف ، مازال أمامي المتسع ، فاعتقد ان نصف الساعة الباقية كفيلة بان تجعلني أبدو على خير ما يرام . وأسرعت في ارتداء ملابسي ، وتمشيط شعري .. لم يبق على الميعاد سوى ربع ساعة فقط ... وأصدقك القول حتى لاتتعجب ، هذه هي المرة الاولى التي أعطي فيها امرأة « ميعادا » أو اخذ من امرأة « ميعادا » فانا كما لا تعرف شديد الحياء ، يغلب على طبعي الخجل .. و «أموت» في جلدي من الشيء الذي يكون فيه « الحريم » ، ولو أن بيني وبينك ، النساء أجمل شيء في الدنيا ، لكن أنا والحمد لله معدوم الخبرة ، فأنا شديد الخجل كما قلت لك، وصدقني في ذلك — وبكل جرأة قلت لها سانتظرك يوم الأربعاء القادم في محطة الرمل الساعة العاشرة .. وبكل بساطة أقسمت أنها سوف تحضر .. لكن المهم ، عندما أتقابل معها ، ما الذي أعمله ، وأين آخذها ، وكيف أسير معها ، وأنا جد خجول ، لقد كان الاجدر أن أستشير أحد الزملاء ، لكن لا بأس « تفرج » عندما تأتي .

انها بارعة الجمال حقا ، هذا ما يجب أن تضعه في اعتبارك ، والا فما كنت لاترك المحاضرات هذا اليوم لاذهب حيث انتظرها ، لكن لاباس .. يبدو أني سوف أحب كالآخرين ..وبهذه المناسبة يقال ان الحب هو أجمل ما في الوجود .. على كل لنجرب هذا الاجمل اليوم — وأنا أقيم في « الازاريطة » وهي لاتبعد عن محطة الرمل بأكثر من خمس دقائق سرعان ماطويتها ، ووجدت نفسي في محطة الرمل ، وأجلت بصري هنا وهناك .. الحمد لله ، لم تحضر بعد .. فالساعة الآن العاشرة الا عشر دقائق ووقفت أمام باعة الجرائد وقد عقدت يدي خلف ظهري أنظر الى الجرائد والكتب . ويبدو أني أطلت النظر بعض الوقت فقد أفقت فجاة على صوت صبي صغير وهو يجذبني :

— باغة ، مشط .

فالتفت اليه ، وأنا أستعيذ بالله وصحت به : — لا هذا ولا ذاك ، اغرب عني قبحك الله . الا أن الملعون أصر على مضايقتي في هذا الصباح ، وقد اشرفت الساعة على العاشرة بالضبط ، وأخذت أتطلع الى جميع الجهات المؤدية الى محطة الرمل ، والصبي ما زال يلح :

— والنبي يا بيه .

وكدت أن أجن : ـ ما الذى تريده منى أيها الابلة ، أغرب والا اشـــبعتك ضربا ٠

ونظرى حائر هنا وهناك ، ويبدو أن الصبى قد لاحظ اللهجةالجادة التى أتكلم بها ، فتركنى الى صيد آخر ٠٠ ولم تأت بعد ، لقد اتفقتمعى على الساعة العاشرة وها هى العـــاشرة ٠٠ اخشى أن تكون تلك ضحكة منها ٠ وعند ذلك انتابتنى الهواجس ٠٠ ماذا سيكون موقفى أمام نفسى ، وأمام ضميرى ، وكبريائى التى جرحت ، وكرامتى التى أهينت لـــكن لا بأس ، لننتظر قليلا ، ربما عاقها بعض الامور ٠٠ الساعة الآن العاشرةوالربع، والوقت يمر ببطء ، يا الهى ٠٠ انجميع الانظار تتجه الى ٠٠ انها الطامة الكبرى وربى ، لماذا ينظر الى الجميع هكذا ، أفى هيئتى ما يغرى بالنظر ، أم وقفتى ٠٠ نعم ، انها ولا شك ٠٠ وقفتى ٠٠ نصف ساعة بالتمام ، وأنا هكذا لا ريب انها كفيلة بأن تجذب الانظار الى ٠٠ لكن ، مثلا ، مثلا ٠٠ أنا فى انتظار الترام ، ولكن أى ترام ، لقد مر العديد منها ٠٠ الا لعنة الله على النساء ٠٠ أهكذا تضحك على « مقصوفة الرقبة » هـــذه ٠٠ والله العظيم بنت « مفعوصة » لاراحتولاجات ٠٠ لكن النصيب ٠٠ لاشك أن كرامتى الآن قد انهارت تماما ، وضـــميرى ٠٠ نعم ضميرى ما الذى أقوله له ٠٠ فقط لو تجىء ، كنت أتغاضى عن الوقتالذى مر ، لكن ٠٠ وتذوقت لاول مرة تقريبـــا طعم الخيبة والمرارة ٠٠ طعم الفشل ٠٠ ان له مذاقا مرا ورثيت فى نفسى لحال هؤلاء العاشقين ٠٠ أتراهم هكذا ٠٠

وأسرعت دقات قلبى ، ولا ريب أن وجهى قد تقلبلونه الى الوانعدة كالوان الطيف هكذا مرة واحدة ٠٠ انهـــا هى لاشك تلك القادمة من أقصى الشارع٠٠ وأسرعت الخطى قليلا ، وارتفعت الدقات وتجمدت مرة واحدة ، لم تكن هى ٠٠ لقد كانت فتاة مماثلة لها فى القد ٠٠ لعنة الله على نظرى ، مع العلم أن نظرى ستة على ستة ، مثل نظر زرقاء اليمامة بالضبط ٠٠ الساعة الآن العـــاشرة والنصف ٠٠ العاشرة والنصف ولم تأت وأخذت أدور حول نفسى فى تتـــابع ، وما عدت أحفل بالنظرات التى لاشك فى أنها موجهة الى ٠٠ فلينظر من ينظر من شاء ٠٠ يكفى ما أصيبت به كرامتى وكبريائى ٠٠ والمصيبة أنه أول لقاء ٠٠ والألعن من هذا أنى لا أعرف عن الفتاة سوى اسمها ٠٠ أى وربى اسمها فقط ، وهى لاتعرف عنى شيئا البتة ، ســـوى اننى انسان ، ويبـــدو من نظراتى انى متيم وفقط ٠٠ فقد تعرفت بها فىظروف حرجة ، وأصدقكالقول ، لست بالمحدث البارع خصوصا مع النساء ، فسرعان ما أتلعثم ، وتنتابنى موجة من الخجل والارتباط ، و لاأدرى ما الذى أقوله ، سوى أن أداعب اصابعى ٠ وأتذكر انى ذات مرة ذهبت الى أحد الزملاء وكانت عنده فتاة قدمتنى اليها ، وقدمها الى ٠ ولم أدر ماذا أقول ، سوى أن أبتسم ، وأخفى الابتســـامة بأسرع من البرق ، وأفتحفمى لكى أقول شيئا ثم لاأقول ٠٠ هكذا أنا دائما ، ضعيف من ناحيـــــة الجنس اللطيف ٠٠ المهم ان ما تبادلته مع هذه الفتاة كان مجرد كلمات متفرقة هى حصيلة ساعتين ٠٠ اى وربى ســـاعتين ٠٠ اعمل ايه الدنيا تجارب ، وأنا مازلت تحت التجربة ٠

ألا لعنة الله على هذه الفتاة ٠٠ لاريب

أنها لم تجد فى ما يجعلها تحبذ متابعة التعرف ٠٠ آه ، لو تجىء، لسوف أقضم رقبتها ، أبصق على وجهها ، أتركها فى الطريق تمد ذراعها لتسلم على وأذهب بعيدا ٠٠ لا بد أن آثار لكرامتى ٠٠ لاشك أن كرامتى الآن تنزف دمعا ودما ٠

الساعة الآن الحادية عشرة الا خمس دقائق ٠٠ ساعة وخمس دقائق ، وأنا أقف هكذا كالطريد ٠٠ أترك محاضراتى واضغط على كرامتى وكبريائى من أجل هذه « المقصوفة الرقبة » ثم لاتأتى ٠٠ آه ياكرامتى ٠٠ رحمة الله على ٠٠ لقد فقدت كل شىء ٠٠ أى وربى ٠ فقدت نفسى ، وما الذى يتبقى للانسان بعد الكرامة والكبرياء ٠٠٠ والمصيبة أنها لم تأت بعد ٠٠ وشعرت بالأسى وطعمه المالح فى جوفى ، حتى كدت أشرق ، ولا بد أن عينى أغرورقت بالدموع ، لأنى لم أعد أتبين الاشياء بوضوح ، أو يبدو من غيبة المكثة ٠ وانتابنى دوار هائل من الشمس المحرقة التى تلسع رأسى منذ أكثر من ساعة ، وتحسست رأسى ٠٠ انها تلسع كما لو كانت مشتعلة ٠٠ رحماك يا الهى ، وأحسست بالظمأ :

ـ يا أخينا يابتاع القازوزة ؟

فالتفت الرجل الى ٠

ـ قزازة وحياة والدك ٠

وتناولت الزجاجة ، وحاولت أن أتناول منها بعض الجرعات ، ولكن أمسكت فجاة عن الشرب ، وناولتها للرجل بأسرع من لمحة البصر ومعها ثمنها وأسرعت الخطو فى خفة العصفور الطليق فى روضة من الرياض العبقة ٠٠ انها هى نعم ٠٠ وابتسمت ابتسامة عريضة ، أخفت وراءها كل ما بى من أسى وشجن ، ومددت لها يدى وأنا أهمس:

ـ صباح الخير ٠

ـ صباح الخير ٠

وتزحزحت الى جوارها فى سكون وابتسام ، وسرنا ٠

هذا أبى

مراد صبحى

.. لم أر أبى فى صغرى — وهو يؤدى عمله «كطبال» فى فرقة للعوالم . قبل تلك الليلة التى ذهبت فيها بصحبته ... الى ذلك المنزل المقام فيه « الفرح » لاول مرة .

.. وكانت كل معرفتى بعمله ... تنحصر فى تلك الاخبار .. التى كان أبى يقصها علينا ... عن الافراح ... والليالى الملاح ، التى يحييها مع زملائه ، وما قد يحدث فيها من نوادر ... وطرائف ... لا تخلو منها عادة !

... وكنت احيانا — اذهب اليه فى ذلك المقهى المعروف بزبائنه من أولاد «الكار» الذين يتخذونه مقرا ومحلا مختارا لهم ، فى الليالى التى لايوجد فيها عمل لديهم — وما اكثرها . فأجده وقد اتخذ ركنا منها ، وراح يدرب أصابعه على « طبلته » العتيدة الأثيرة الى نفسه .. التى لا تفارقه أبدا ، مشاركا احدهم فى التدريب على غناء اغنية جديدة لمطرب كبير..او «منولوج» حديث «لمنولوجست» معروف .

وفى تلك الليلة ... دخل أبى علينا المنزل مبكرا ، ولا تزال آثار « البودرة » بادية فوق وجهه . فقد كان من عادته الا يعرض لموسي الحلاقة الا اذا كان لديه عمل،ثم أبدل الصندل الذى ينتعله بالحذاء « الاجلسيه الاسود » اللامع ، وجلبابه الزفير بآخر أبيض حريرى نظيف مكوى مخصص للحفلات ، وارتدى فوقه معطفه الحالك السواد ، وأحكم وضع طربوشه فوق رأسه بميل كبير نحو أحد حاجبيه وقد تدلى الزر فوق اذنه يداعبها كالعاشق — بحنان .

وهكذا اكمل ارتداء زيه الرسمى ... واصبح على «سنجة عشرة» ...وجلس فى انتظار من سيذهب معه الى الفرح... وهو يسلى نفسه بتدليك جلد الطبلة براحة يده بين الحين والحين ، ليبعث فيها الدفء فتشد وينجلى صوتها ... وطال عليه الوقت ... ولم يحضر أحد ، فشعر بدبيب السأم والملل يتسللان اليه ، وتحرق شوقا للذهاب وقد استعاد فى أذنيه صوت من كان يصف له الاستعدادات الكبيرة التى أقامها أصحاب الفرح لهذه المناسبة السعيدة . واخيرا لم يجد بدا من اصطحابى معه لاول مرة.موصيا اياى

بضرورة مراعاة أصول الادب واللياقة فى تصرفاتى ولم أصدق اذنى لفرط السعادة التى غمرتنى .

فقد آن لى ان ارى ، راى العين ... هذه الدنيا الساحرة — دنيا الافراح بعد أن سمعت من أبى عنها الكثير .

ولست اذكر كيف وصلنا الى المنزل المنشود لارى واجهته وقد غمرتها الانوار الباهرة الملونة ، التى خطفت بصرى ، واستولت على مشاعرى ، وجعلتنى احس بالدماء تجرى فى عروقى بحرارة ونشوة !!. وسمعت افراد الفرقة تنادى على أبى :

— تعالى هنا يا مصطفى ... انت اتأخرت علينا خالص .

ودخل أبى معهم فى مناقشة طويلة ، حول التأخر عن الموعد ، ومن هو المخطىء .. ومن هو المصيب ، بينما كان يتخذ مجلسه الى جوارهم امام المدعوين فوق نصب مرتفع — أشبه بخشبة المسرح بينما اندسست وسط صفوف المدعوين ، وانا اتيه فرحا...واكاد اميل على آذان الجالسين الى جانبى لاقول لهم بكل فخر ... أننى ابن مصطفى .. هذا « الطبال » المعروف .

وبدأ الحفل بتقديم رقصة بلدية من « الباتعة » — راقصة الفرقة ومطربتها الاولى — التى راحت تتثنى وتتمايل .. على أنغام الموسيقى ... وضربات أنامل ابى المدربة على طبلته العتيدة ... وانتشيت بهذا الجو المشحون بمشاعر الفرح .. والسعادة ، وعجبت كيف قدر لى ان اظل كل تلك السنوات الماضية دون ان اتمتع بالتواجد فى مثل هذه الليلة ... ولو حتى مرة كل حين وحين !

وانتهت « الباتعة » من تقديم رقصتها وتبادل معها افراد الفرقة الآخرون بقية فقرات البرنامج ، الذى ساهم فيه والدى بنصيب الاسد دون ان ينال قسطه من الراحة ... فلا غنى للفرقة عن اصابعه الماهرة وضرباتها البارعة فوق الطبلة يصحبها هزات جسمه المتتابعة الى أعلى واسفل ، ويمينا ويسارا ، وخلف وامام وكأنه جالس فوق زمبلك تبعا لما تتطلبه اصول الصنعة والايقاع المطلوب وامتدت السهرة وامتدت حافلة بألوان المسرات والموسيقى والرقص والطرب والفكاهة تتخللها لحظات لجمع «النقطة» من المدعوين تهبط خلالها «الباتعة» الى صفوفهم وتتثنى بجسمها اللدن فوق صدر هذا أو ذاك فما تلبث الايدى أن تمتد الى الجيوب وتخرج منها ما تجود به انفسهم ، أو ما يحبون أن يعرف عنهم من الكرم او اعزازهم للعريس السعيد فيلصقون الاوراق المالية المتفاوتة القيمة تبعا لتفاوت درجة اظهارهم لمشاعرهم فوق جبين الراقصة او يضعونها فى فتحة ثوب صدرها الواسعة التى تكشف عن جزء كبير من نهديها الناضجين فتتقلت برشاقة ودلال لتقبل النقطة بحمد وشكر وتناولها لرئيس الفرقة الذى يمسكها بين اصابعه مظهرا قيمتها للملأ وهو يردد كلمات صاحبها فى تحية العريس واهل العريس « والجدعان » « والحتة » « واللى شرفونا » و « أنا وانت » والف مرة « وسلام ياعم » .

وتعزف الموسيقى جزءا من السلام الوطنى قد يطول او يقصر حسب قيمة النقطة ثم تميل « الباتعة » على آخر وثالث ورابع ، وتتكرر التحية ويتكرر السلام ، حتى اذا ما احست الباتعة بأن



المدعوين قد اكتفوا ولو مؤقتا بما نقدوها اياه فى هذا الشوط ، عادت تعتلى النصب وتوالى تقديم رقصاتها واغانيها وفكاهاتها بالتناوب مع زملائها وزميلاتها ومضت الساعات تلو الساعات حاملة المتعة والهناءة وقاومت رغبتى القاهرة الى النعاس بعزيمة قوية حتى اظهر امام والدى بمظهر الكبار الذين يعتمد عليهم فلا يحرمنى من صحبته الى الافراح التالية . وفجأة تصاعدت أصوات عابثة متضاحكة من جماعة من الشباب تبدو عليهم آثار الخمر بوضوح من عباراتهم وتصرفاتهم ، تقول بصوت منغم رتيب .

— عاوزين صفصف ، عاوزين صفصف عاوزين صفصف .

وتساءلت فى نفسي عمن يكون هذا الصفصف الذى يطالب المدعوون بسماعه بمثل هذه الضجة الساخرة ، وحملقت بعينى ، وتطاولت بعنقى لاراه : واذا بى اشاهد ابى يقف مترددا ليقابل بعاصفة من الضحك والتصفيق والتهريج والصفير وبدأ فى القاء منلوج فكاهى وهو يهتز بجسمه الضئيل القصير هزات متتابعة على انغام الموسيقى ضج لها المدعوون بالضحك لكنها أثارت فى قلبى الصغير كوامن الالم والمرارة وانا اراه فى اهتزازاته العشوائية هذه مثارا لضحك الضاحكين وهزء المستهزئين وسخرية الساخرين . ورغم كل ذلك كان يواصل منلوجه الذى نال كثيرا من الاستحسان ، وكثيرا ايضا من « التريقة » « والتقشات » وقارب المونولوج على الانتهاء وزادت حماسة ابى وجلبة الموسيقى الدالة على ذلك ، واذا به بحركاته شبه الهستيرية يقترب من حافة النصب المرتفع دون ان يدرى ، واذا بقدمه تزل فيتهاوى الى الارض على

حين غرة وكاد ان يحدث له ما لا تحمد عقباه لولا ان اسرعت ايدى القريبين منه الى نجدته فاسندته وانتشلته من سقطته فلم يصب الا بعرج ظهر أثره فى مسيره واضحا وهو يعود الى كرسيه مادا بذراعيه الى الامام يتحسس بهما الطريق ووجهه ينطق بالالم البالغ ، وعيناه الغائرتان المظلمتان تحدقان فى لا شيء .

وشاهدت كل ما حدث لابى المسكين وكادقلبى انيسقط بين ضلوعى وانهمرت دموعى الغزيرة المتتابعة فوق وجنتى وانا اجد ابى الضرير الذى لايرى شيئا مما حوله يحدث له هذا الحادث المؤلم امامى الذى كاد أن يودى به لولا ستر الله ، ومع ذلك كله اراه يكتم آلامه واوجاعه ومشاعره واحاسيسه ازاء تحديق الأعين فيه بما تحمله من معان متباينة ، ويعود فى الحال ليستأنف عمله فى سبيل لقمة العيش وكأن شيئا لم يحدث .

يا لأبى المسكين .. انني لم أشعر بفضله ومدى تضحيته وكده وسهره الليالى بطولها حتى مطلع الفجر فى سبيلى وفى سبيل اخوتى الكثيرين ووالدتى المريضة رغم عاهته ليوفر لنا جميعا بكل ما فيه من جهد أسباب العيش الى الآن وهممت بأن اترك مقعدى لاذهب اليه حتى أطمئن عليه ، واذا بأفراد الفرقة الموسيقية بصحبة والدى يعزفون مقطوعة موسيقية مرحة ليزيلوا بها آثار ما حدث من النفوس ، ويعيدوا الى الحفل بهجته ورونقه . وما ان رأى الحاضرون ابى وهو يشارك الفريق على طبلته المعهودة بأصابعه المدربة حتى قابلوه بالتصفيق الحاد الصادق هذه المرة .

واذا بأحد المدعوين يسر فى اذن رئيس الفرقة شيئا ما ، فغمز بعينه الى زملائه الذين كفوا عن العزف على الفور دفعة واحدة قبل انتهاء المقطوعة ، ولم يستمر أبى فى ضرباته الايقاعية الا اقل من القليل ريثما ادركت اذناه المرهفتان حقيقة المؤامرة فكف بدوره . وعاد الفريق الى العزف فاستأنف ابى ايقاعه ثم توقفوا ثانية على حين غرة ولكنه كان فى هذه المرة كله آذان لما سيحدث من مفاجآت فتوقف معهم فى آن واحد ، ولم يتمالك المستمعون أنفسهم فانطلقوا فى تصفيق حاد طويل تتخلله عبارات الاستحسان الصادقة .

وهنا امتلأت نفسي بالفخر لموقف أبى المشرف وطردت هذه المشاعر احاسيس الالم السابقة ولم اتمالك نفسي بدورى فغادرت مكانى مندفعا صوبه متخطيا الصفوف بلا تردد ، وارتقيت النصب المرتفع بخطوات ثابتة مرفوع الرأس ، وبكل ما بى من عاطفة التيت بنفسي بين احضانه اقبله بحرارة .. وانا أهتف من اعماقى :

— ابويا .... ابويا .

وتدحرجت عبرات الفخر من عينى .. فوق وجه أبى . الذى ضمنى الى صدره بحنان ، وبادلنى العناق وقد داخلته مشاعر السعادة والرضا .. وعادت الاشراقة الى وجهه الحبيب ، والبسمة الحلوة المعهودة عنه الى شفتيه .

وازدادت عاصفة التصفيق شدة وحرارة واستمرت فترة طويلة بلا انقطاع دون أن ادرى — وقتئذ سببا لذلك .



القصة حول العالم

بقلم : على شلش

جناية الذرة على القصة القصيرة

كان من المعروف عن الروائى الامريكى ارنست هيمنجواى انه عالج فيما عالج من الوان الكتابة القصصية لونا طريفا بتأثير اشتغاله بالصحافة فى مطلع حياته.. وهو لون حار الناس فى تسميته ، لكن الصحفيين يميلون الى حصره تحت عنوان « قصة ذرية » أو « قصة فى دقيقة » ، أو غير ذلك من عناوين تدل على صفة هذا اللون القصصى المركز الذى يشبه الذرة فى ضآلتها لا فى تكاثرها حين تتفتت .

ومن قبيل هذا اللون مقال طريف يدور حول القصة القصيرة .. كتبه وليام بيدن الاستاذ بجامعة ميسورى الامريكية ، وجعله مفتاحا يهتدى به القارىء فى تذوقه لنماذج القصة القصيرة فى مختلف الآداب العالمية . وقد نشر ضمن الفهرس الدورى الذى تصدره دار « منتور » بنيويورك تحت عنوان « القراءة الرشيدة » .. وهو فهرس يظهر كل أربع سنوات ابتداء من عام ١٩٣٢ ويضم قائمة وصفية لنحو ١٢٠٠ كتاب مختار من أشهر ما أنتجه العقل البشرى فى مختلف فروع المعرفة على مدار التاريخ ، قديمه وحديثه .

والمقال — تنطبق عليه صفة الضآلة السابقة .. لكنه يثير — على ضآلته — عدة قضايا جديرة بالمناقشة .. أوثر ارجاءها الى حين الفراغ من ايراده بنصه .. **يقول وليام بيدن :**

« من المرجح ان القصة القصيرة أقدم الاشكال الادبية المعروفة ، وما من شك ايضا فى أنها أحدث هذه الاشكال . فالقصص والحكايات والاسكتشات القصصية عريقة عراقة الادب المكتوب ذاته ، ومع هذا فالقصة القصيرة باعتبارها نمطا ادبيا تتحقق فنيته بوعى تعد ذات أصل حديث نسبيا . **وليس لهذا الاصل — ان شئنا التوسع فى الجدل — قيمة كبيرة ، رغم انه من المعروف عن القصة القصيرة انها — بوجه عام — الشكل الادبى الرئيسى الوحيد الذى يعتبر امريكيا فى أساسه .**

فبعض النقاد يلح على أن أول نماذج للقصة القصيرة فى الادب الحديث هى

الاسكتشات القصصية ذات الالوان الدافئة التى كتبها واشنجتن ارفنج ، بينما يخلع البعض الآخر المصطلح على بعض الحكايات التى كتبها هاوثورن مثل « ابنة راباتشينى» وهى حكايات اقامها حول موقف واحد مكثف تنمو منـه سلسلة من الحوادث المتشابكة تنتهى بذروة متوقعة . ولا يزال آخرون يذكرون اننا — فيما كتب قبل العمل الناضج الذى قام به ادجار الن بو — نعدم العثور على السعى الواعى وراء كلية التأثير والعلاقة الوثيقة التى تربط بين العقدة والشخصيات والبناء والفكرة الدافعة ، وهى عناصر تميز القصة القصيرة الحديثة عن الاسكتشات القصصية التى نراها فى كتاب الهند « البنشاتانترا » أو فى الانجيل . ولئن كان كل ماتقدم هاما فان الاكثر أهمية هو ان ارفنج ، وهاوثورن ، وبو كانوا صناعا جادين مهرة ، فهم عالجوا القصـة القصيرة بشكل جدى ، باعتبارها وسيلة ترفيـه ، وباعتبارها شكلا ادبيا ، وعربة لنقل وتوصيل التفسـير الجـدى لمشاكل وجـود الانسان . وبعد كل منهم رائدا فى حدود طريقته الخاصة . وقد اضفى كل منهم على الشكل الاصالة والمهارة الفنية ، ومهد الطريق للعدد المتزايد على الدوام من القراء الذين وجدوا ان القصـة القصيرة — منذ مطلع القـرن التاسع عشر — هى أعظم الانماط الادبية قاطبة من حيث الذيوع والانتشار .

ولقد كانت القصة القصيرة لاتفتأ تتأثر تأثرا بالغابالمناخ الاخلاقى والسياسى والاجتماعى والادبى السائد فى بيئتها . ذلك لان «الموضات» الادبية تميل الى التغير بشكل يكاد ان يكون جذريا ودون سبب واضح تماما — شأنها فى ذلك شأن ازياء النساء . فالقصة القصيرة التى يستحسنها جيل ما ، قد يستخفها جيـل آخر، كأن لم تكن . وعلى سبيل المثال نجد ان القصص القصيرة التى كتبها فرانز كافكا والتى لاقت الاعجاب على نطاق واسع ابان حقبتين من الزمان مضيتا ، هى نوع شديد الاختلاف عن نوع القصص النثرية القصيرة التى كتبها ادجار الن بو ، أو هنرى جيمس أو أ . أ . كوبارد أو ارنست همنجواى .

ومن ثمة فان محاولة تعريف القصة القصيـرة ليست بذات بال . فالقصـة القصيرة ، فى أبسط أشكالها تتركز حول موقف يتضمن كائنات بشرية تعانى نوعا ما من المشاكل التى تحتاج الى نوع ما من القرارات والحلول . وتكون هذه القـرارات والحلول اما طبيعية (فيزيقية) او نفسية ، حسبما تكون الحالة .

ولقد جنح كثيرون من الكتاب ، منذ عهد تشيكوف وجيمس ، نحو تأكيـد الفراسـة داخل الشخصيـة ، او تأكيـد دلالة موقف ما ، او الكشف عن الدوافع الانسانية ، او اقتراح طريقة ما للحياة (بدلا من الاصـلاحين التقليـديين : «خط القصة أو العقدة ») .

ولعل أبسط وأفضل معيار للحكم على القصة القصيرة هو اختيار قابلية التذكر . فالقصة الممتازة هى ، ببساطة ، القصة التى تستحق القراءة مرة أخرى. ومن حسن الحظ ان الزمن يميـل الى تمييز الثمين من الغث . والقصة الممتـازة

تبقى فى ذهن القارىء لانها تترك به بقية من الحق أو الجمال ، ذلك لانها تكون قد حولت مظهرا ما من مظاهر الحياة الى فن ، داخل كيمياء الخيال الخلاق » .

ومن المفيد قبل أن نناقش ما جاء بهذا المقال « الذرى » أن نوضح بعض الاسماء التى حشدها الكاتب .. وهى :

● **واشنجتن ارفنج (١٧٨٣ – ١٨٥٩) أمريكى معروف ، يعده البعض رائد الادب الامريكى الحديث ، وله كثير من القصص والاشعار والمقالات .**

● **ناثانييل هاوثورن (١٨٠٤ – ١٨٦٤) أمريكى يغلب على قصصه الطابع الرومانسى .**

● **البانشاتانترا .. مجموعة من خرافات الحيوان المبنية على الحكمة والموعظة الحسنة ، يرجع تاريخها الى القرن السادس الميلادى .**

● **ادجار الن بو (١٨٠٩ – ١٨٤٩) القاص والشاعر الامريكى المعروف . طور شكل القصة القصيرة واهتم بعنصر التاثير الكلى فى كتاباتها . ويلقبه احيانا : « أبو القصة القصيرة » العصرية .**

● **فرانز كافكا (١٨٨٣ – ١٩٢٤) مجرى ، تسود كتاباته القصصية روح تشاؤمية منفرة أحيانا ، لكنها تستهوى طراز المثقفين الذين يبحثون عن حلول لأزمة الانسان المعاصر وتمزقه فى الافكار والفلسفات الوجودية المعاصرة .**

● **هنرى جيمس (١٨٤٣ – ١٩١٦) أمريكى معروف باتجاهاته فى تعمق نفوس أبطاله ودراسة سلوكهم من الناحية النفسية .**

● **أ.أ كوبارد (١٨٠٨ – ١٩٤٨) أمريكى ذو اتجاهات طبيعية ورمزية فى كتاباته القصصية .**

نعود بعد هذا الى القضايا التى يثيرها المقال وتنحصر فى اثنتين رئيسيتين :

القضية الاولى ان الكاتب اعتبر القصة القصيرة « الشكل الادبى الرئيسى الوحيد الذى يعتبر أمريكيا فى أساسه » .. وتلك مغالطة واضحة .

ذلك لانه اعترف مقدما بعراقة الادب القصصى . فالثابت ان تاريخ الادب العالمى قد ورث حصيلة ضخمة من الحكايات النثرية القصيرة والمطولة ، لعل من اقدمها « قصص السحرة » التى خلفها الفراعنة منذ نحو اربعة آلاف عام ، بالاضافة الى المجموعات الكثيرة الاخرى التى خلفها الهنود واليونانيون والعرب وغيرهم فى الزمن القديم ، وما أسهمت به العصور الوسطى وعصر النهضة من خرافات الحيوان

الى مجموعة جيوفانى بوكاشيو المعروفة باسم «الديكاميرون» ، ومع هـذا لم تتم الولادة الحقيقية لهذا الشكل الخاص من الكتابة القصصية الا فى القرن الماضى بعد انتشار الصحف والدوريات المطبوعة . والثابت ايضـا ان اوربا كانت اسـبق من أمريكا فى مضمار الصحافةالمطبوعة ، وان الاخيرة عاشت فى كثيرمن فنونها وآدابها ــ عالة على التراث الاوربى ، فكيف اذن ابتكرت هذا الشكل ابتكارا بلا تراث خاص يسنده ويؤدى اليه ؟!

ومن الملحوظ كذلك ان الكاتب حاول ان يقصر مهد القصة القصيرة على بلاده دون تتبع لمحاولات الاوربيين ، وخاصة محاولات موباسان فى فرنسا وتشيكوف فى روسيا بل ان معظم استشهاداته ــ كما رأينا ــ تعتمد على الكتاب الامريكيين . ومن ثمة لم تخل آراؤه من التحيز وان كانت طريقة مركزة .

أما القضية الثانية فتتفرع من سابقتها ، وتترتب عليها . اذ سلم الكاتب بأن ادجار الن بو هو صاحب اليد الطـولى فى تاسيس الشكل العـام للقصـة القصيرة العصرية . والحق ان هذا الرأى الذى سبقه اليه آخرون حين خلعوا على بو لقب « أبو القصة القصـيرة » ، انما يصـدق على أمريكا بالدرجة الاولى . ذلك لانه فى الوقت الذى كتب فيه بو نماذج ناضجة من القصة القصيرة كان الكاتب الروسى نيكولاى جوجـول (١٨٠٩ ــ ١٨٥٢) يكتب بدوره نماذج أخـرى ناضجة ، لعـل أشهرها قصة المعطف التى قال عنها دستويفسكى : « لقد انحدرنا جميعا من معطف جوجول » . والحق كذلك ان قصص بو القصيرة التى تبلغ نحو ٧٢ قصة انما تشكل فى مجموعها نهجا خاصا فى الكتابة القصصية ليس الاول والاخير من نوعه ، ومجمله ان القصة عملية فنية تخاطب الذهن وتتركز حول تأثير معين يتوهمه الكاتب ويرمى الى خلقه فى نفس القارىء عن طريق عدد من الوسائل الفنية مثل لياقة الموضـوع وتناسبه مع التأثير المطلوب احداثه وكذلك الاقتصاد فى الوقائع وتركيز الاسلوب . بل ان هذه التعاليم التى وضعها بو لم تحدث نتائج سريعة فى حينها ، وانما ظلت محدودة الفعالية ، تكاد تنحصر فيما كتبه بو نفسه .

وهكذا فالقول بأن القصة القصيرة ابتكار من صنع فرد بعينه أو بلد بعينـه فيه الكثير من التحـامل والتجنى . ذلك لان الاصح من ذلك القـول بأن القصـة القصـيرة شكل فنى تطور عبر سلسلة طويلة من التجارب الفردية والجماعيـة على السواء ، وكذلك عبر اطار انسانى عام .

ولو كان وليم بيدن فصل القول بعض الشىء ، وابتعد عن الشكل «الذرى» للمقال ، لسلسلة القصة القصيرة من اشعاعات الذرة الخبيثة !

زوايا وأنباء

● **ألفرد دوجان** الروائى الانجليزى المعروف بتخصصه فى التاريخ توفى فى الشهر الماضى عن ٦١ عاما . وهو من جيل جراهام جرين وايفيلين وو . ومن بين رواياته المعروفة : الفهود والزنابق ، أحياء الشتاء ، ضمير الملك ، الفارس المدرع .. والاخيرة تدور حول الحروب الصليبية وكانت سببا فى شهرته .

● **نشر الملحق الادبى** لصحيفة « ذى أوبزرفر » الانجليزية سلسلة من الفصول للروائى الامريكى الراحل هيمنجواى تحت عنوان « ذكريات باريس » .. كتبهـا قبل وفاته بأسلوب السيرة الذاتية ثم جمعتها أرملته وأعدتها للنشر ..

وقد تنـاول فيها السنوات التى قضـاها بباريس فى أعقاب الحـرب الاولى وعلاقاته بمشاهير الكتاب فى تلك الفترة . ومن بين هذه الفصول فصل ممتع بعنوان « رحلة غريبة مع سـكوت فيتزجيرالد » ، قص فيه هيمنجـواى طرفا من علاقته بالـكاتب الامريكى الذى عاش مغمـورا فى حياته ، وتكالبت عليـه ظروف بددت استقراره النفسى ، فظل طوال حياته نهبا للوساوس والاوهام .

والرحلة الغريبة قام بها هيمنجواى مع زميله فى سيارة الاخير ، وهى سيارة غريبة كصاحبها .. نزع عنها غطاءها استجابة لرغبة زوجته .. وقد قطع الاثنان الرحلة بهذه السيارة المكشوفة من مدينة ليون الى باريس ، وفاجأهما المطـر فى الطريق أكثر من مرة فاضطروا الى التوقف نحـو عشر سنوات ، وقضيا ليلتهما بفندق صغير ، حيث خلعا ملابسـهما المبتلة وانتظـراها حتى جفت ، لكن سكوت ما لبث أن سيطر عليه وهم بأنه مصاب بالالتهاب الرئوى ، وأنه لا محالة هالك .. وعبثا حاول هيمنجواى ان يطمئنه .. وظل يحاول التخفيف عنه بالحديث تارة ، وبالوصـفات الشـعبية تارة أخرى ، الى أن أفاق فى النهاية من وهمه واسـترد عافيته ..

وقد أنهى هيمنجواى قصة هذه الرحلة الغريبة بقوله لزوجته اثر عودته ان الدرس الوحيد الذى تعلمه منها هـو ألا يغامر قط بمصاحبة شخص لا يحبه فى رحلة !

● **احتفل** الاتحاد السوفييتى بذكرى مرور ١٣٥ عاما على ميلاد أديبه الخالد ليوتولستوى .. وقد عقدت بهذه المناسبة عدة ندوات ألقيت فيها ٤٥ محـاضرة وبحثـا للفيف من نقاد وأدباء موسكو والمدن الاخرى .. كذلك احتفل بالذكـرى **المئوية لانشاء مدرسة تورجنيف .. وهى مدرسة أسسها بالقرب من مسقطرأسه وكافح طويلا فى سبيل تأسيسها .. وتضم اليوم ٤٠٠ تلميذ .**

بين القصة والقراء



يقدمه : ثروت أباظه

حامد محمد حامد وفا

عتابك الشديد الرقيق أنا لا أستحقه يا أخى وانما عبء العتاب يقع عليك أنت ٠ أنت يا أخى تتعجل فى القراءة والا لكنت قرأت اسمك والرد على خطابك والتعليق على قصتك فى عدد ابريل وهو العدد التالى لوصول خطابك الى المجلة ٠ انى يا أخى لا أعاتبك فلعل لهفتك على معرفة الرأى فى قصتك شغلتك عن انعام القراءة ٠

أحمد عاصم

أسلوبك القصصىجميل والعرض فيه اصالة ٠ وقد أعجبنى أنك تعترف بأنك لم تقرأ شيئا عن فنكتابة القصة ولكننى لا أشك أنك قرأت كثيرا من القصص ٠ وقد تغنى قراءة القصص عن القراءة فى فن القصص٠ قصتك فيها انسانية رقيقة ازجيتها فى خلال عرضك دون أن يرتفع بها صوتك سأنشر قصتك فى أقرب فرصة ٠

محمد شحاته عبد الرحمن شوقى

خطابك ياسيدى يفيض تعاطفا ٠ ولقد تأثرت باشفاقك تأثرا بالغا أشكرك عليه ٠ فليس أروح للقلب أن يجد قلبا يفهمه ويتفهم خلجاته ونوازعه ٠ أما عن قصتك ياسيدى فهى صريحة أكثر مما يحتمله الفن القصصى ٠ والجانب الوعظى فيها واضح وضوحا يجنح بها عن القصة ٠ وقد أحللت العقات بمن لا يستحقه ، فماتت الزوجة وقد كان مجنيا عليها ٠ ثم انك أنزلت العقاب من حيث لا يحتسب أحد فجعلت الزوج مصدورا وهو فى هذا غير مذنب ٠ لو كان الزوج مثلا قد أساء معاملة الزوجة لكنت بذلك قد جعلت العقاب ينزل على الأخ من نفس عمله ٠ هذا الى جانب أن موضوع القصة سبق معالجته وقد كنت أرجو أن أجد فى العلاج جدة تحفزنى على نشره ٠٠ ان أسلوبك خليق أن

ينتج لنا قصصا أكثر فنية • أرجو أن توفق فى كتابة القصة توفيقك فى كتابة هذا الأسلوب الجميل •

محمد صفوت محمد عبده :

أبدأ بتهنئتك على حصـــولك على البكالوريوس بدرجة جيد • وأشكر لك جميل ظنك بى • ثروتك اللغوية زاخرة وأسلوبك جميل • لا أدرى لماذا تحاول أن تحشو قصتك ببعض الحكم الكلية ، فان هذا لايتفق اطلاقا مع سلامة عرضك وفنية العرض القصصى • أمـــا عن الموضـوع فالفجيعة فيه درامية بشــكل يجعلها أقـرب الى الافتعال حتى ليخيل الى أنك قتلت مبروكة وشحته معـــا لتجعل مدبولى يصيح آخر الأمر بعنوان قصتك «دنيا» • أنا واثق أننى سأنشر لك عما قريب انتاجا أكثر عمقـــا فى مضمونه من قصتك دنيا •

حسن درويش العقابى ــ العراق :

يا ســيدى كنت أرجـــو أن تكون الأخطاء النحوية فى قصـــتك أقل من هذا • وعهـدى بأبنـــاء العراق يحتفون بلغة الأجداد فهى أقوى رابطة تصل بين العرب على اختلاف أقطارهم • أما عن القصـــــة ذاتها فهى أيهـــا الأخ مقال تتصـــدره النصــيحة الصريحة وأنت لا شك تدرى أن فنية القصة تقتضى أن نخرج بعبرة من خـــلال الحادثة أرجو أن أتمكن من قراءة قصة أخرى لك تكون عناصر القصة فيها أكثر وضوحا •

سعيد صبحى الصفانى :

أما عن تعليقك على التعليق فقد وضح فيه أنك على علم باصول كتابة القصة • وقد كنت أرجو أن يتضـــح هذا فى قصتك الســـابقة وضوحا لا يجعلنى آخذ عليها ما اخذت • وانى أشكرك على حسن تقديرك للنقد مما يجعلنى واثقا من المستقبل الفنى الذى ينتظرك • أما عن قصتك «انفرج» فالصور الأسلوبية فيها جميله مسه وان كنت لا أدرى لماذا تعمد فى السرد الى بعض الالفاظ العامية التى تعرف لها ــ لا شك ــ مقابلا فى العربية كقولك الجلبية بدلا من الجلبـــاب وتنطط بدلا من تقافز • أما القصة نفسها فانا على ثقة أنك تستطيع ــ أنت شخصيا ــ أن تكتب خيرا منهـا ولكننى سانشرها قريبا على أنها صورة أحسنت العرض فيهـا • وستجد فى هذا العدد قصة أخرى لك ولعلك بهذا تعرف مقدار حرصنا على نشر الجيد من الانتاج الجديد •

فخرى قعوار ــ الاردن :

أسلوبك جميل وطريقة عرضك فيها واقعيـــة • والقصـــة فى ذاتهـــا تتسم بالانسانية • وان كان الموضوع قديما وليس فى العـــلاج تجديد كبير ولكننى مع ذلك سأحاول نشر قصتك ان شاء الله •

محمود محمود جاد الله :

أسرفت فى اللوم أيها الأخ • فقصة البنت والحداه والكتكوت ليست كمـــا تظن • والذى قراها هو أنا وقد اعجبت بها ولا أعرف كاتبها حتى هذه اللحظة التى اكتب فيها هذا الكلام • والاسلوب الذى تنتقده اسلوب يتفق وموضـــوع القصـــــة • ومن العجيب أن بين يدى خطابا آخر من أحد القراء يبدى اعجابه

بالقصة • ولكن هذا جميعه لا يمنعك حقك فى ابداء رأيك بل انى أشكرك على أنك ابديت رأيك فى صراحة ووضوح وأحب أن أقرأ رأيك هذا دائما •

محمد الحسينى المرسى :

بالنيابة عن كاتب البنت والحدأة والكتكوت أشكرك على حسن رأيك كما اشكرك عن كل الذين رضيت عن انتاجهم من كتاب المجلة • وقد اعجبت فعلا بتحليلك لقصة البنت والحدأة والكتكوت • فان تحليلك هذا يدل على أنك قارىء عميق النظرة ولا عليك ان كنت اتفق معك فى المعانى الرمزية التى التى تهدف اليها أولا أتفق ، فالقصة الرمزية من شأنها الا يكون لها معنى واحد •ومن شان القصة الرمزية أيضا ألا يرضى عنها بعض قرائها كما فعل محمود محمود جاد الله • أما عن قصتك « أنت صغير » فقد اعجبت بها حقا • وسأنشرها عما قريب •

عبد المنعم أحمد ونس :

اكرر الرجاء يا أخى أن تكتفى بارسال قصة واحدة • والتمس لى العذر أننى أنا سأكتفى بالتعليق على واحدة من قصتيك وهى « أمل تحقق » هى أولا عبارة عن صورة سريعة ، ولعل سرعتها لم تتح لك أن تضفى على ملامحها التفاصيل الفنية التى لابد منها لاكتمال الصورة •وهى بلا حادثة على الاطلاق • أعتقد أنك فى حاجه الى مزيد من القراءة

عائشة أرناؤوط ـ دمشق :

أسلوبك فى غاية الجمال • وعرضك شيق فيه أصالة فنيةوأصالة عربية معا وانك بارعة فى تحميل الاحداث الصغيرة معانى كبيرة وعميقة ، وثروتك اللفظية ضخمة وقدرتك فائقة على استخدام هذه الالفاظ • وواضح أنك بعيدة العهد بممارسة الكتابة الاصيلة • أما عن القصة فى ذاتها فانه يسعدنى أن تقرئيها قريبا على صفحات هذه المجلة •

احمد فراج العبد :

قصتك عرض ساذج لحادثة قد تتكرر كل يوم وليس عمل القصاص أن ينقل وقائع الحياة كما هى • فانه حينئذ يكون أشبه بمن يروى على الصحاب حكايه تسليهم وتدفع عنهم ملالة الفراغ والصمت • القصة انعكاس الحياة على نفس القصاص يعكسها القصاص مرة ثانية الى الحياة • فاذا مرت القصة بنفس الفنان ولم يستطع أن يضفى عليها شيئا فاولى به آلا يقصها • لابد للقصاص أن يقول رأيه فى الحياة من خلال القصة التى يرويها • أما قصتك فانت فيما يبدو قد رويتها كما رأيتها فهى لا سمة لها ولا معالم • أعتقد أنه لابد لك أن تقرأ كثيرا •

محمد عبده الانصارى :

لاشك أن محمد القرش يسعده أن يجد منك شاهد عيان سمع قصته منذ سنتين فى نادى القصه • أما عن قصتك فالناحية الحوارية فيها تجعلها أقرب الى المسرحية منها الى القصة •• ولذلك أرجو آن نلتقى فى محاولة أخرى •

عبد المحسن سلامة ـ بيروت :

قصتك فيها من الواقعية أكثر مما

فيها من الانسانية • كم كنت أرجو أن يجد بطل قصتك فتاة تعجب بروحه ولا تهتم بمظهره • انك بقصتك تقضى على بقايا آمال تداعب قوما قست عليهم الحياة فلم تنعم عليهم بالمظهر الجميل ووظيفة الأديب أن يفتح مشارق الآمال فلا يغلقها ، أسلوبك فى العرض لابأس به • وكنت خليقا أن أتغاضى عن اخطائك النحوية لو أنك قدمت لى فى قصتك عرضا جديدا أو موضوعا جديدا • أرجو أن نلتقى معا على عمل لك أكثر توفيقا من قصتك هذه •

عامر الأبيض :

كنت أرجو أن أنشر قصتك ولكنها مباشرة أكثر مما تتحمله فنية القصة • والواقع انك كنت تستطيع أن تقدم موضوعها فى شكل مقال وان خطابك يدل على ثقافة واسعة • فانت لاشك تدرى مقدار ما تحتاجه القصة من فنية فى العرض بحيث اذا جاءت بهذه الصراحة ابتعدت عن مفهوم القصة الذى عرفته من خلال قراءتك • أرجو ان أقدم اليك عما قريب عملا أكثر فنية •